
مكتبة 219
رواية
إبنَة البَخيل
أوجيني غراندي
دي بلزاك
ترجمة:
رحيل بالي
KALEMAT

ابنة البخيل

أوجيني غراندي

● ابنة البخيل/ أوجيني غراندي
● أونوريه دي بلزاك
● دار كلمات للنشر والتوزيع
● الطبعة الأولى ٢٠١٧
دولة الكويت / محافظة العاصمة
تلفون : ٠٠٩٦٥٩٩١١٩٩٣٤
تويتر : @Dar_kalemat
إنستجرام : Dar_kalemat
Dar_Kalemat@hotmail.com

ردمك: ISBN: 978-99966-95-07-0



ابنة البخيل
أوجيني غراندي

أونوريه دي بلزاك

ترجمة

رحيل بالي

٢٠١٧

يوجد في بعض الأقاليم منازل تبث ، حين النظر إليها ، أسى يشبه ذلك الذي ينبث من دير الرهبان الأكثر كآبة ، من الأراضي البور الباهتة ، والأنقاض الأشد تعاسة . ربما ، ما يلف هذه المنازل هو مزيج من صمت دير الرهبان ، قحط الأراضي البور ، وعظام الأنقاض . الحياة و الحركة بها هادئة لدرجة أن غريبا مارا قد يعتقد أنها غير مأهولة إذا لم يصادف نظره النظرة الشاحبة الباردة لأحد سكانها الذين يكادون لا يتحركون ، والذين تتهافت أوجههم شبه الرهبانية من عتبات النوافذ بمجرد أن تتصيد آذانُهم صدى خطوات شخص غريب . تتواجد هذه القيم الكئيبة في ملامح بيت في سومور ، في آخر الطريق الوعرة المؤدية للقصر ، في أعالي المدينة . هذه الطريق ، التي غدت اليوم غير مألوفة ، حارة صيفا ، وباردة شتاءً ، مظلمة في بعض النواحي ، ومعروفة بجهورية بلاطها الحجري ، الذي دائما ما كان نظيفا جافا ، هي كذلك معروفة بضيقها والتوائها ، وبهدوء المنازل التي هي جزء من المدينة القديمة . كما وتوجد بها منازل مبنية منذ حوالي ثلاثة قرون لا تزال متماسكة رغم أنها من الخشب ، وهي بذلك تساهم في تكوين تلك الأصالة التي تسترعي اهتمام الفنانين و علماء الآثار . لا يستطيع المرء أن يمر بهذه المنازل دون أن يتأمل طويلا الألواح التي نحتت أطرافها بأشكال عجيبة لتتوج بنقش أسود بارز . هنا ، تغطى القطع الخشبية العرضية بالأردواز وترسم خطوطا زرقاء على الجدران الهشة لمنزل يعتليه سقف مصنوع من الخشب و الذي أطبقت عليه

السنون ثقلها، بفعل المطر و الشمس. وتظهر كذلك عتبات النوافذ المستعملة، المسودة، التي تكاد لا تظهر منحوتاتها الملساء، والتي تبدو أخف من أن تحمل أوعية الطين التي تمتد منها أغصان الورد و القرنفل. بعيدا عن هنا، توجد أبواب مزينة بمسامير عملاقة تظهر بذلك عبقرية أجدادنا في تطوير لغة هيروغليفية محلية لن يقدر أحد على تفسير معناها أبدا. فقد تكون خربشات بروتستانتي وقع عليها عقائده، أو كاثوليكي لعن عليها هنري الخامس، أو برجوازي حفر عليها أمجاده المنسية. على هذه الأبواب نُحِتَ تاريخ فرنسا كاملا. بجانب المنزل ذي الجدران التي عبدَها الحرفي بمسحجِه، يوجَد فندق لأحد النبلاء، أين لا يزال بإمكاننا أن نرى على بوابته الحجرية بقايا أسلحته التي انسحقت تحت وقع مختلف الثورات التي هاجت في البلد منذ ١٧٨٩. الدكاكين المرصوصة على حافتي الطريق كانت عبارة عن قاعات منخفضة لا تملك واجهات، ولا ساعات أو زجاجات، عميقة، مظلمة، وهي ليست مزينة لا من الخارج ولا من الداخل. أبوابها مفتوحة على جهتين، مصفحة بالحديد، تنطبق جهتها العليا إلى الداخل، وتتحرك جهتها السفلى المزودة بجرس جيئة وذهابا. هنا، لا مجال للدجل. سترون بائع الخشب جالسا على باب دكانه محادثا جاره، من الظاهر أنه لا يملك سوى ألواح سيئة لا تصلح إلا للقارورات، وبضعة رزم من الشرائح الخشبية، إلا أن شيئا آخر يحدث في الميناء، فسفنه المليئة هي من تزود جميع صانعي البراميل في أونجو بالخشب، هو يعلم كم من برميل بإمكان خشبه أن يُعِدّ إذا كان الحصاد جيدا؛ قليل من أشعة الشمس الدافئة قد تجعل منه غنيا، قليل من المطر قد يتسبب في إفلاسه: في صبيحة واحدة، تتأرجح مداخيله بين

إحدى عشر فرنكا أو ستة جنيهات . في هذا البلد ، تماما مثلما هو الحال في تورين ، تتحكم التقلبات الجوية بالحياة التجارية . صانعوا الخمر ، أصحاب الأملاك ، تجار الخشب ، صانعوا البراميل ، أصحاب النُزل ، والبحارة جميعهم يعيشون تحت رحمة أشعة الشمس ، يرتعدون ليلا خوفا من أن يستيقظوا في الغد ليجدوا أنها أثلجت بينما كانوا نيامًا ، يخشون المطر والرياح والجفاف ، ويريدون أن يتوافق وجود الماء ، والحر ، والسحاب مع نزواتهم . دائما ما كان هناك صراع مستمر بين السماء والمصالح الأرضية . بإمكان البارومتر أن يتحكم في ملامحهم وذلك بإسعادها تارة ، وبإتعاسها تارة أخرى . ينطلق من أحد نواحي هذا الطريق ، الشارع الرئيسي السابق لسومور ، صوت ينادي : يا له من جو رائع! وينتقل الخبر من باب لباب : إنها تمطر نقودا ، وذلك نظرا للتغيير الذي يحدثه شعاع شمس أو قطرات مطر .

هنا ، بما أن كل شيء متوقع ومحدد في حياة التجار من بيع وشراء وأرباح فإنهم غالبا ما يحصلون على عشر ساعات من اثنتي عشرة ساعة ليستغلوها في الاحتفال ، ومراقبة ما يقوم به الآخرون ، والتعليق والتجسس المستمر على بعضهم البعض . فهم مثلا إذا ما لاحظوا أن ربة بيت جيرانهم قد اشترت طائر الحجل فلا بد أن يسألوا زوجها عن إذا ما كان الحجل مستويا ولذيذا . وليس بإمكان فتاة ما أن تطل من نافذة منزلها دون أن يلمحها كل العاطلين عن العمل الشاغرين الذين لا يفعلون شيئا . الحياة هنا دائما ما تُعاش في الهواء الطلق والعراء : كل ربة بيت تقف عند باب بيتها ، تفطر هناك ، تتعشى في ذات المكان ، وتتشاجر عنده . لا يمر أحد في الطريق دون أن يُدْرَس من أعلى رأسه لأخمص قدميه . كما أنه ،

قديما ، كان كل غريب يأتي لبلدة ريفية يُستقبل بالتهكم من باب لباب ، طويلا .

تتموقع الفنادق القديمة لهذه المدينة العتيقة في أعلى ذلك الشارع الذي كان مأهولا فيما مضى من طرف نبلاء المنطقة . وبالتحديد ، كان البيت التعيس الذي جرت به وقائع هذه القصة أحد هذه البيوت ، بقايا مبجلة لقرن من الزمان كان للأشياء والناس فيه طابع البساطة الذي تفتقده الأخلاق الفرنسية يوما بعد يوم . بعد أن تتبعوا التواءات هذا الطريق الفتان ، والذي توقظ أدنى الحوادث به ذكريات قديمة ، والذي يوقع في النفس إحساسا بأنها في حلم يقظة ، ستلاحظون تجويفا جد مظلم ، تختفي في وسطه بوابة منزل *السيد غراندي* . من المستحيل استيعاب قيمة هذه العبارة الريفية من دون معرفة سيرة السيد غراندي . يحظى السيد غراندي في سومور بسمعة لن يفهمَ من لم يعش بالريف لا أسبابها ولا تأثيرها . السيد غراندي ، الذي لا يزال يُدعَى من طرف البعض بالأب غراندي ،كان في عام ١٧٨٩ صاحب مصنع براميل غني ، و كان يُحسنُ الكتابة والحساب . وبمجرد أن وُضعت الجمهورية الفرنسية رهنا للبيع ، تزوج صانع البراميل الذي كان أربعينيا آنذاك بابنة أحد أغنى تجار الألواح الخشبية . ذهب غراندي محملا بثروته وبمهره ، مُحملا بمائتي ألف لويس ذهبي ، ووظف أربع مائة لويس ذهبي أهداها إياه حموه ، و حصل بعد طول ترصد ، على أحسن بساتين الكَرم في المنطقة ، على دير عتيقة وبضع منازل ريفية . وبما أن سكان سومور لم يكونوا ثوريين ، فإن الأب غراندي بدا رجلا مقداما ، جمهوريا ، وطنيًا ، إنسانا ذو فكر ، صاحب أفكار جديدة ، بينما كان كل ما يفعله صانع البراميل في الحقيقة ، هو أن

يهتم بأشجار الكرم . عُين عضوا في إدارة مقاطعة سومور ، وكان بالإمكان الإحساس بتأثيره السلمي سياسيا وتجاريا . فسياسيا ، منعَ بكل ما أوتي من قوة بيعَ ممتلكات المهاجرين . أما تجاريا ، فقد كان يمنح الجيوش الجمهورية ألفا أو ألفي قارورة نبيذ أبيض .

في القنصلية ، أصبح السيد غراندي رئيس بلدية ، وأدار المنطقة بحكمة وحصدَ العنب بشكل أفضل . وفي عهد الإمبراطورية ، لم يكن نابليون يحب الجمهوريين : استُبدل السيد غراندي ، الذي كان يُعتَقد أنه كان صاحب قبعة حمراء خلال الثورة الفرنسية ، بأحد كبار المُلاك ، أحد البارونات المستقبليين لفرنسا . ترك السيد غراندي التشريفات المحلية من غير ندم . وخلال عهدته ، قام بإنشاء طرق عديدة مؤدية إلى أملاكه ، وذلك تسهيلا على سكان المنطقة . منزله وأملاكه كانت مسجلة بشكل يجعله لا يدفع ضرائب باهظة . منذ أن تم ترتيب أملاكه وبساتين الكرم خاصته ، والتي صُنفت ، بفضل مجهوداته الجبارة ، في صدارة لائحة أفضل منتجي النبيذ ، كان بإمكانه أن يُطالبَ بصليب وسام جوقة الشرف .

حدث هذا عام ١٨٠٦ . كان السيد غراندي حينها يبلغ سبعة وخمسين عامًا ، بينما تبلغ زوجته ستة وثلاثين . كانت لهما فتاة وحيدة ، ثمرة حبهما الشرعي ، تبلغ عشر سنوات . في ذلك العام ، وكأن الآلهة أرادت أن تعوضه عن نكبته الإدارية ، وَرث السيد غراندي ، على التوالي ، ثروات السيدة دي غودينيير ، المولودة باسم دي لا بيرتوليير ، وهي والدة السيدة غراندي ، ثم ثروة العجوز السيد دي لا بيرتوليير ، والد المتوفاة آنفا ، ثم السيدة جونتيي ، الجدة من الأم : ثلاثة مواريث لم يكن يعلم أحد بقيمتها . كان شغف هؤلاء

الموتى بالبخل والنقود كبيرا لدرجة أنهم كانوا يكدسون الأموال فقط لكي يتأملوها خفية . كان العجوز لا بيرتوليير يرى أن استثمار الأموال هو إسراف لها ، فهو يعتقد أن مظهر النقود المكدسة أكثر أهمية من فوائد استعمالها . ولذلك اكتفى سكان سومور بتخمين قيمة ما كانوا يرونه من إرث أمام أعينهم من أراض و عقار .

كان السيد غراندي الرجل الذي فرض نفسه أكثر من أي شخص آخر في المنطقة . فقد كان يستغل مئة فدان من أشجار الكرْم ، وفي السنوات الممطرة ، كانت تعطيه سبعمائة أو ثمانمائة برميل خمر . كان يملكُ ثلاثة عشرَ حقلا مُسوّرًا ، ديرا عتيقة ، ومائة وسبعة وعشرين فدانا من المروج أين تنمو حوالي ثلاثة آلاف شجرة حور مزروعة منذ عام ١٧٩٣ . وأخيرا ، منزله الذي يقطن به . هكذا كانت تُقَيّم حصيلة ممتلكاته الظاهرة للعلن . أمّا رأسماله فلم يكن أحد ليعلمه ، ماعدا شخصين اثنين كانا أقرب من يكون لمعرفة قيمة مقاربة له : أحدهما كان السيد كروشو ، كاتب العدل الذي كان مسؤولا عن الاستثمارات الربوية للسيد غراندي ، والآخر هو السيد دي غراسان ، أغنى مصرفيّ بسومور . وبالرغم من أن العجوز كروشو والسيد دي غراسان كانا جد متحفظين وكتومين ، وهو ما يخلق في عالم الريف انطباعا بالثقة وامتلاك الثروة ، إلا أنهما كانا يظهران احتراما كبيرا للسيد غراندي أمام الآخرين ، وهو ما جعل المُلاحظين لذلك يستنتجون القيمة العظيمة لرأسمال رئيس البلدية السابق ، من خلال المجاملة المُفرطة التي كان السيد غراندي يُعامَل بها . كل سكان سومور كانوا يعتقدون يقينا أن السيد غراندي يملك كنزا خاصا ، مخبأً مليئا بالنقود أين كان يستمتع ليلا بالمتعة العظيمة التي تبثها مشاهدة كتلة من الأموال المكدسة . كان

البخلاء يتيقنون من ذلك حينما يرون عيني الرجل ، واللتان تبُدوان وكأن معدن النقود قد تركَ بهما مسحته الذهبية . كانت له نظرة رجل اعتاد الحصول على فوائد مالية عظيمة ، فمثلما هو الحال عندَ الشهواني ، كانت هذه الأشياء تولّد في الإنسان عادات لا توصَف ، حركات ونظرات ، جشعة ، غامضة ، لا تمر أمام غيره دون أن يلاحظوها . كان السيد غراندي يُلهم ذلك النوع من الإجلال والاعتبار الذين يحظى بهما كلّ رجل لا يدين بشيء لأحد . كما كان بإمكان صانع البراميل العجوز أن يُخمّن بدقة مُنجّم متى يجب أن يعدّ ألف برميل للخمر الذي سينتج عن الحصاد ومتى يعد خمسمائة برميل فقط ، لم يخطئ يوما في تخميناته ، ودائما ما كانت عنده براميل للبيع حتى عندما كان ثمنها يزيد على ثمن الخمر في حد ذاته . كان بإمكانه أن يضع العنب المقطوف في الأقبية ويتحين الوقت الذي يبيع فيه براميل خمره بمائتي فرنك بينما يبيعهُ المُلاك الصغار بخمسة قطع لويس .

في تجارته وأموره الاقتصادية ، كان السيّد غراندي يتصرّف كهجين متولّد عن نمر وأفعى : كان يتمدد ، ويختفي ، يراقب فريسته طويلا قبل أن ينقضّ عليها ، شاغرا فاهَ حافظةِ نقوده ، يبتلعُ الأموال ، ثم ينامُ بهدوء ، تمامًا مثل أفعى باردة ، لا مبالية ، تهضم ما أكلته . لم يمرَ السيد غراندي يومًا أمام شخص دون أن يشعر هذا الأخير بمزيج من مشاعر الإعجاب ، والرهبة والاحترام . ألم يُحسَ جميع من في سومور بالخدش اللطيف الذي تُحدثه براثنه الفولاذية؟

لا يكاد يمر يوم من دون أن يُذكر اسم السيد غراندي في السوق ، في الحفلات ، وفي أحاديث سكان المدينة . بالنسبة

للبعض فإن ثروة هذا الرجل بمثابة فخر وطني . ولذلك كان التجار وأصحاب الفنادق يقولون للغرباء بسعادة ورضا : «سيدي ، لدينا حوالي ثلاثة مليونيرات ، إلا أن ثروة السيد غراندي عظيمة لدرجة أنه لا يعرفها هو نفسه .» في عام ١٨١٦ ، قدّر ألمع المحاسبين ثروة السيد غراندي المحلية بحوالي أربعة ملايين ، إلا أنه وكحد أوسط ، كان عليه أن يستخرج من أملاكه حوالي مائة ألف فرنك كل سنة خلال الفترة الممتدة بين ١٧٩٣ و١٨١٧ ، فكان يفترض أن تصل قيمة ما يملكه من مال إلى قيمة شبه مقاربة لما يملكه من أملاك عقارية . كما أنه إذا حدث وتحدثوا عن السيد غراندي بعد جولة من ألعاب الورق أو نقاش حول أشجار الكَرم ، فإنهم غالبا ما يقولون : - الأب غراندي؟ لابد وأنه يملك خمسَة أو ستة ملايين .

- أنتُم أكثر نباهة مني إذن ، إذ أنه لم يكن بإمكاني أن أحصي مجموع ما يملكه يومًا ، يرد السيد كروشو أو السيد غراسان إذا ما كانا حاضرين .

وإذا ما تحدث أحد الباريسيين القادمين إلى سومور عن السيد روتشيلد أو السيد لافيتي ، فسيتساءل سكان سومور إن كانا غنيين مثل السيد غراندي . وإن أشار الباريسي بالإيجاب مع ابتسامة مزدرية ، فإنهم يتبادلون نظرات مذهولة فيما بينهم . ثروة مثل هذه تمكّنت من تغطية جميع مساوئ السيد غراندي و عيوبه كمعطف ذهبي . فإذا كانت هناك خصوصيات تبعث على السخرية في حياته ، فإنها قد أصبحت تبدو بالية بلا معنى . كان السيد غراندي يبدو متحكمًا في أدنى تصرفاته . حديثه ، ملابسه ، تصرفاته ، رمشات عينيه ، جميعها كانت كالقوانين تسري في تلك المنطقة ، التي ارتأى لسكانها بعد أن تفحصه كلّ منهم تماما مثلما يَدرُس

عالم الطبيعة مظاهر غريزة الحيوانات ، أن نوعا من الحكمة العميقة الصامتة تنبعث من أدنى تحركاته . «الشتاء سيكون قاسيا هذا العام» ، يقول أحدهم لأنه رأى السيد غراندي يضع أغلظ قفازاته ، علينا أن نبدأ الحصاد : فالسيد غراندي يشتري الكثير من الخشب مؤخرا لابد وأنه يحتاجها للبراميل وأن محاصيل العنب ستكون هائلة هذا العام .

لم يكن السيد غراندي يشتري لا الخبز ولا اللحم . فمزارعوه كانوا يحضرون له كل أسبوع ما يكفي من الدجاج والبيض والزبدة وقمح الإيرادات . كما كان متفقا مع السباخين من مستأجريه ليمدوه بالخضار . أما الفواكه ، فقد كان يحصد كمية جد معتبرة لدرجة أنه يبيع الكمية الأكبر منها في السوق . وبالنسبة لحطب التدفئة ، فإنه كان يجمع جذوع الأشجار القديمة المترامية في حواف حقوله ، وكان مزارعوه ينقلونها له للمدينة ، ويرتبونها له في المحطبة مقابل بعض الشكر . أما مصروفه المعروف الوحيد فكان : الخبز المقدس ، زينة زوجته ، زينة ابنته ، أجر كراسيهم في الكنيسة ، الضوء ، أجور خادمته نانو ، مصاريف إعادة طلي طناجره بالقصدير ، دفع الضرائب ، تصليحات مسكنه وتكاليف استثماراته .

كانت خصال هذا الرجل وعاداته جد بسيطة ، لم يكن يتحدث كثيرا وعادة ما كان يعبر عن أفكاره بجمل قصيرة وصوت هادئ . منذ الثورة الفرنسية ، وهي الفترة التي لفت فيها الأنظار إليه ، كان السيد يتلعثم كلما تطلب الأمر منه أن يتحدث طويلا . كل هذا التلعثم ، عدم اتساق أقواله ، اندفاع كلماته التي كان يُغرق بها أفكاره ، والنقص الواضح في منطقه والمرتبط بخلل في تعليمه ، سيأتي الشرح المفصل لأسبابه وتأثيراته على أحداث هذه القصة .

كان للسيد غراندي أربعة عبارات جبرية يستعملها دائما كحل بسيط لجميع المصاعب التي تواجهه في حياته وتجارته : أنا لا أعلم ، أنا لا أستطيع ، أنا لا أريد ، سنرى ما بإمكاننا فعله بشأن هذا . لم يكن ليقول «نعم» أو «لا» قط ، كما أنه لم يكن يكتب أبدا . وإذا تحدث إليه شخصٌ ما ، فسيستمع إليه ببرود ، متكئا بذقنه على يده اليمنى واضعا مرفقه الأيمن على قفا يده اليسرى ، مُصدرًا آراءً خاصة به عن كل قضية لم يكن ليتراجعَ عنها . كان يفكر طويلا قبل عقد أصغر الصفقات . وفي حالة ما إذا اعترف له محدثه بهدفه من وراء ادعاءاته معتقدا بذلك أنه قد أطبق عليه ، فإن السيد غراندي سيقول : أنا لا أستطيع أن أقرر شيئا من دون استشارة زوجتي . زوجته التي لم تكن تمثل شيئا في الحقيقة له ، كان يستعملها كحجاب سهل . لم يكن السيد يزور أحدا ، ولم يكن يدعو أحدا أو يقيم عشاءً على شرف أحدهم ، لم يكن يُصدر أدنى صوت ، وبدا وكأنه يدخرُ كل شيء ، حتى الحركة . لم يكن يُزعج شيئا عندَ غيره وذلك لاحترامه الثابت للملكية . إلا أنه ، ورغم لطافة صوته وهيئته الحريصة فإن لغة وعادات صانع البراميل كانت حادة وثاقبة خاصة عندما يكون في منزله ، أين لم يكن مُجبرا على التظاهر كثيرا . جسديا ، كان السيد غراندي يرتفع عن الأرض بخمسة أقدام ، قصيرا بدينا ، مربعا ، ذو كتفين عريضين ، أما وجهه فكان دائريا ، زرعت فيه بثور الجدري ، كان ذا ذقن مستقيم ، ولم تكن بشفتيه أي انعطافات ، أسنانه بيضاء ، ولعينيه ملامح هادئة فتاكة ينسبها الناس للثعبان ، جبهته مليئة بالتجاعيد العرضية والنتوءات ، شعره يميل للشقرة الممتزجة بالشيب وكان بعض الشباب يصفونه بالشعر الأبيض الذهبي ، غير مدركين

لخطورة أن يسخر المرء من السيد غراندي . يعكس هذا الوجه نعومة خطيرة ، استقامة باردة ، أنانية رجل معتاد على تركيز مشاعره على الاستمتاع ببخله ، وعلى الكائن الوحيد الذي كان يعني له القليل في هذا العالم : ابنته أوجيني ، وريثته الوحيدة . كانت تصرفاته ، وخصاله ، ومظهره ، ومشيته ، وكلّ شيء فيه ينم عن ثقة كبيرة بالنفس ولّدتها نجاحاته الدائمة في أعماله . كما أنه تحلّى بشخصية من برونز رغم أخلاقه التي تبدو سهلة ورخوة . كان السيد غراندي يرتدي ملابسه بالطريقة ذاتها التي كان يرتديها بها منذ عام ١٧٩١ . أحذيته الخشنة تُعقَد بخيوط جلدية ، صدّارًا بالقطيفة المخططة بالأصفر والأحمر ، مزررا بأكمله ، ربطة عنق سوداء ، و قبعة الكويكرز . أما قفازاته الخشنة كقفازات رجال الدرك فكانت تدوم لما يزيد عن العشرين شهرا ، ولكي يحافظ على نظافتها ، كان يضعها على حافة قبعته في نفس المكان دائما ، بطريقة منهجية . لم يكن سكان سومور يعلمون أكثر من ذلك عن هذا الشخص حيث لم يكن يُسمح إلا لستة أشخاص بزيارة هذا المنزل . أهم شخص من الأشخاص الثلاثة الأوائل المعنيين كان ابن أخ السيد كروشو . فمنذ تم تعيينه كرئيس للمحكمة الابتدائية بسومور ألحق باسمه اسم بونفون ، وكان يعمل على أن يجعل اسمه هذا أكثر شهرة من اسم كروشو ، حتى أنه كان يمضي : ك . بونفون . كان السيد الرئيس يبلغ ثلاثة وثلاثين سنة ، ويملك ميدانا زراعيا باسم بونفون ، تقدر ريعه بسبعة آلاف جنيه . كان ينتظر أن يرث عمه كاتب العدل وعمه رئيس الدير صاحب المقام الرفيع في منطقة القديس مارتان دو تور . بدعم أبناء أعمامهم ، وتحالفهم مع عدد كبير من عائلات المدينة ، كان هؤلاء الكروشو الثلاثة بمثابة آل ميديشي في فلورنس ،

ومثلما كانت عائلة آل باتسي لهؤلاء كالشوكة في الحلق ، فإن عائلة دي غراسان كانت لآل كروشو بالمرصاد . السيدة دي غراسان ، والدة شاب يافع ذي ثلاثة وعشرين ربيعا ، كانت تحاول التودد والتقرب من السيدة غراندي طمعا في الحصول على يد الآنسة أوجيني لابنها العزيز آدولف . وكان السيد دي غراسان يساعد زوجته في مخططها ذاك بأن يسدد معروفا تلو الآخر سريا للبخيل العجوز . حتى عائلة دي غراسان كان لها أبناء عمومها وحلفاؤها وأصدقاؤها الأوفياء . من ناحية آل كروشو ، كان رئيس الدير بمثابة تاليران العائلة ، فلكونه مدعما بأخيه الموثق ، كان يجادل في الأمور المالية ويحرص على أن يخصص ميراثا كبيرا لابن أخيه الرئيس . كان هذا الصراع الخفي بين آل كروشو وآل دي غراسان ، والذي جائزته يد أوجيني غراندي ، يشغل مجتمع سومور . هل ستتزوج الآنسة بالرئيس أو بالسيد آدولف دي غراسان؟ وبخصوص هذا الشأن ، فإن البعض كان يعتقد أن السيد غراندي لن يزوج ابنته لا لهذا ولا لذاك ، بل إنه يبحث لابنته عن ندّ له في ثروته تجعله يقبل جميع براميل آل غراندي في الماضي ، الحاضر والمستقبل مقابل قسط بمائة ألف جنيه . أما آخرون فكانوا يقولون أن السيد والسيدة دي غراسان نبيلين ، ويملكان ثروة عظيمة ، وأن آدولف فارس لطيف ، وأنه لو لم يكن الأمر يتعلق بابن أخ لرئيس كنيسة ، لكان هذا ارتباطا جد مناسب لأي كان . كما وقد انتبه البعض إلى أن السيد كروشو دو بونفون كان يذهب لمنزل البخيل في كل وقت وحين ، بينما كان منافسه مرحَّبا به أيام الأحد فقط . وأكّد آخرون أن الدور الذي تلعبه السيدة دي غراسان في تمهيدها للفكرة مع نساء منزل غراندي سيكون امتيازا لصالحهم على العكس من آل

كروشو . وقال البعض أن رئيس الكنيسة كروشو كان أكثر الرجال دهاءً وخداعا ، وأن اللعبة ستكون على نحو متساو عندما يلعب فيها كاهن ضد امرأة . أمّا الأقدمون في المدينة والذين كانوا أكثر علمًا وبصيرة فادّعوا أن آل غراندي كانوا أكثر فطنة من أن يتركوا ثرواتهم تتسرب خارج عائلهتم ، وأن الآنسة أوجيني غراندي من سومور ستتزوج حتما من ابن السيد غراندي في باريس ، الذي يتاجر الخمر بالجملة . أما ردّ الكروشونيين والغراسينيين على هذا الفريق فكان : أنه قبل كل شيء : كون الأخوان لم يلتقيا أكثر من مرتين على مدى ثلاثين عاما ، ثم أن السيد غراندي الباريسي يتوق لأن يحظى لابنه بزواج أحسن من هذا . فهو رئيس بلدية إحدى المناطق ، مبعوث وكولونيل الحرس الوطني ، قاض في هيئة التجارة ، علاوة على أنه ينكر أخاه من سومور ويدعي انتسابه لعائلة دوقية بفضل نابليون . ما الذي لم يقله بعد بخصوص هذه الوريثة التي تحدث الكل عنها؟

في بداية ١٨١٨ ، حقق الكروشونيون أفضلية على منافسيهم : فحين اضطر الماركيز الشاب دو فروافون لوضع أرضه للبيع ، وهي أرض معروفة بحدائقها ، و قصرها الخلاب ، ومزارعها ، وأنهارها وغاباتها وتبلغ قيمتها إجمالا ثلاثة ملايين ، نجح كل من الكروشو الثلاثة في إقناعه ببيع الأرض للسيد غراندي جُملة دون تقسيمها إلى قطع صغيرة منفصلة . حيث أن كاتب العدل عقد صفقة ذهبية مع الشاب لصالح السيد غراندي ، وأقنعه بأنه ستكون هناك قضايا وتبعات لا حصر لها إن هو قسّم الأرض ليبيعها ، وأنه من الأفضل له أن يبيعها كاملة للسيد غراندي ، القادر على دفع ثمنها كاملا مرة واحدة . وفعلا ، فقد اشترى السيد غراندي الأرض ودفع ثمنها بعد

الانتهاء من إجراءات الشراء ، وسرعان ما انتشر الخبر في الأنحاء ، في نانت وأورليان . وبعد أن زار السيد غراندي قصره الجديد ليتفقده ، عاد إلى سومور مرتاحا متأكدا من أنه وضع أمواله في المكان الصحيح . ولكي يملأ خزينته من جديد ، قررَ أن يقطع جميع الأشجار في البساتين والغابات والمراعي التي اشتراها ، وأن يستغلها .

من السهل الآن أن نفهَم قيمة هذه الكلمة : منزل السيد غراندي ، هذا المنزل الشاحب البارد الصامت المتموضع في أعالي المدينة . كانت دعامتا الباب و قوسه المعقود مصنوعين ، كبقية المنزل ، من صخر طباشيري أبيض خاص بالبنايات الساحلية في لالوار ، وهو صخر رخو طري يكاد لا يزيد عمره عن المائتي سنة . وفي الملتقى الأقرب للباب ، وُجدَ كرسي من القش وضعت نهايته على زلاجتين لتزيد من ارتفاع السيدة غراندي عندما تجلس عليه لتتمكن من مشاهدة المارة . وبجانبها ، في فتحة بالجدار رُصت آلة تحوي أدوات الخياطة ، إلى جانبها وُضعَ كرسي صغير ذو ذراعين لأوجيني غراندي . منذ خمس عشرة سنة والأم وابنتها تجلسان بسلام في هذا الموضع ، في عمل متواصل ، من شهر أبريل إلى شهر تشرين الثاني . في بداية هذا الأخير تتجه المرأتان نحو المدفأة لتقضيا أيام الشتاء أمامها ، فالسيد غراندي لا يسمح بإيقاد المدفأة إلا انطلاقا من ذلك اليوم ، وكان يطفئها في اليوم الواحد والثلاثين من شهر مارس ، من دون أن يبالي بالأيام الخريفية أو الربيعية الباردة . ولذلك كانت السيدة والآنسة غراندي تستعينان بالجمرات الدافئة التي تحترق في مطبخ نانو على النسمات الباردة لصباحات وليالي أبريل وتشرين الأول .كانت الأم وابنتها تتكفلان بكل

ملابس المنزل ، وتخصصان كامل أيامهما لأشغالهما النسيجية ، لدرجة أنه كان يتوجب على أوجيني ، إذا ما أرادت أن تحيك طوقا لأمها ، أن تقوم بذلك خلال الساعات التي من المفترض أن تنام فيها ، كما يتوجب عليها أن تستغفل والدها للحصول على الضوء . فمنذ مدة طويلة والبخيل يوزع على ابنته أوجيني وخادمته نانو الضخمة الشموع ، مثلما يوزع في الصباح حصص الخبز والطعام التي تُستَهلَك خلال اليوم . ربما نانو الضخمة هي المخلوق الوحيد الذي استطاع أن يتقبَل استبداد ذلك الرجل . المدينة بأجمعها كانت تحسد السيد والسيدة غراندي عليها . فقد اشتغلت نانو الضخمة ، المدعوة بهذا الاسم نسبة لحجمها الضخم الذي يصل لخمسة أقدام وثمان بوصات ، لصالح السيد غراندي منذ ما يقارب الخمسة وثلاثين ربيعا . ورغم أن أجرها لا يزيد على الستين جنيها ، فإنها تُعَد من أغنى الخدم بسومور . هذه الجنيهات الستون المتراكمة على مدى خمسة وثلاثين سنة مكنتها من تكديس قسط حتى موتها عند السيد كروشو . وبدت نتيجة هذا التكديس الطويل المضني إنجازا عظيما . كانت كل خادمة تحسدها على ما خزنته لأيام شيخوختها ، إلا أنهن لم يكُنّ يعلمن بالفطام المضني الذي تكبدته لتضمن أمنها في أيامها الأخيرة .

في سن الثانية والعشرين ، لم يكن أحد ليرضى بتشغيلها بسبب بشاعة وجهها . جاءت نانو إلى سومور ، لأنها أجبرت على ترك مزرعة البقر التي كانت ترعاها بعدما احترقت ، وبحثت عن عمل ، مدفوعة بتلك الشجاعة التي لا ترفض ولا تردع شيئا . كان السيد غراندي حينها يرغب في الزواج ، وفي الاستقرار والتقدم في عمله . فارتأى أن يُشغل تلك الفتاة التي تُردَع من باب لباب . وبما

أن بإمكانه تقدير القدرة الجسدية للأشخاص بحكم عمله في مجال البراميل ، فكان قد خمن كمّ الفائدة التي يمكن أن يجنيها من مخلوقة أنثوية بحجم هرقل ، تقف على ساقيها كما تقف شجرة سنديان منذ قرابة الستين عاما على جذورها . قوية الوركين ، مربعة الظهر ، وذات التزام شديد تماما كعفافها . لم تُخف صانع البراميل الذي كان في السن الذي يرتعش عنده القلب ، لا بثراتها التي زُرعت في وجهها اليافع ، ولا بشرتها التي تشبه الطوب ، ولا ذراعاها المتعصبتان ، ولا خرقها . ألبسَ حينئذ الفتاة المسكينة ، وأسكنها ، وغذاها ، ودفع لها أجرا ، وشغّلها دون أن يكثر من تعنيفها . وبفضل معاملته الجيدة لها ، كانت نانو الضخمة تبكي سرًا من الفرحة ، وتعلقَت بصانع البراميل الذي كان يستغل ذلك بأن يزيد أعباء أشغالها : فقد أصبحت نانو تطبخ ، وتغسل الملابس ، وتحملها على أكتافها ، تستيقظ في الصباح الباكر وتنام في وقت متأخر من الليل ، كما أنها كانت تعد الطعام للمزارعين خلال أيام الحصاد ، وتدافع ككلب وفي على أملاك ومصالح سيدها ، ولكونها تثق به ثقة عمياء ، فقد كانت تطيع نزوات سيدها الأكثر جنونا دون جدال . عام ١٨١١ ، حين كان الحصاد جيدا ، وبعد عشرين عاما من خدمتها له ، قرر السيد غراندي أن يقدم لنانو ساعته القديمة ، وقد كانت تلك الهدية الوحيدة التي قدمها لها . رغم أنه كان يعطيها أحذيته المستخدمة كل فصل ، إلا أنه لكثرة ما تكون بالية لا يمكن اعتبارها كهدايا . وقد جعلت الحَاجَة تلك الفتاة المسكينة بخيلة لدرجة أن الأمر انتهى بأن أحبها السيد غراندي كما يحب كلبا ، وقد سمحت له نانو بذلك أن يربطها بطوق مسنن لم تعد أسنانه تُدمي رقبتها وتؤلمها . فحتى لو أراد السيد غراندي أن

يقطع عليها الخبز بالتقسيط والتقتير فإنها لن تشتكي ، بل ستساهم بسعادة في تطبيق النظام الصارم الجديد في المنزل الذي لا يمرض فيه أحد . كما أن نانو أصبحت فردا من أفراد الأسرة : كانت تضحك سعيدة عندما يضحك سيدها ، تبرد ، وتسخن ، وتحزن لحزنه ، وتعمل معه .

بالنسبة لفتاة حقول لم تتلق في شبابها سوى المعاملة السيئة ، بالنسبة لفقيرة استُقبلت بشفقة ، فإن ضحكة الأب غراندي كانت في نظر نانو بمثابة شعاع شمس حقيقي . علاوة على ذلك فإن قلبها البسيط ورأسها الضيق لم يحملا إلا شعورا واحدا ، وذكرى واحدة . منذ خمسة وثلاثين عاما وهي ترى نفسها تقترب من مشغل الأب غراندي ، بقدمين حافيتين ، ملتفة في خرقها ، وصوت السيد غراندي يسألها : ما الذي تريدنه يا جميلتي؟ كان امتنانها حينها لا يزال يافعا . أحيانا ، يفكر غراندي أن هذه المخلوقة المسكينة لم تسمع في حياتها أدنى كلمة تمدحها ، وأنها تجهل كَنَه المشاعر الجميلة التي تُلهمها المرأة ، وأنها قد تَمثلُ يومًا أمام ربها للقائه ، أكثر عفافًا من مريم العذراء نفسها . وحينها مدفوعا بمشاعر الشفقة ، كان يقول وهو ينظر إليها : نانو المسكينة! ودائما ما يتبع قوله هذا نظرة غير قابلة للتعريف تلقيها عليه الخادمة العجوز . هذه العبارة التي يلقيها على مسامعها من حين لآخر منذ زمن طويل ، هي ما وطد علاقة الصداقة التي لم تنقطع يوما بينهما ، والتي كانت كسلسلة تربطهما ، تزيد كلمات مدحه لها إليها في كل مرة حلقة . هذه الشفقة المتوضعة في قلب السيد غراندي ، كانت تُسعِدُ نانو أيما سعادة ، وكان لها أثر رهيب في نفسها . الشفقة البغيضة لهذا البخيل والتي كانت تحيي آلاف النشوات في قلبه ، كانت مصدر

سعادة نانو الوحيد . من لن يقول هو أيضا : نانو المسكينة! فالرب يتعرف على ملائكته من خلال اعوجاج أصواتهم وحسراتهم الغامضة . في سومور ، كان هناك عدد معتبر من الخدم الذين يعاملهم أسيادهم أحسن مما يعامل به البخيل خادمته ، ومع ذلك فإن أسيادهم لم يكونوا يلقَون مثل تلك الخدمة المتفانية والامتنان . ومن هنا جاء ذلك التساؤل الآخر : «ما الذي يفعله آل غراندي ليحظوا بتعلق نانو؟ قد تمشي في نار مهولة لأجلهم .» مطبخها الذي كانت نوافذه تطل على الفناء ، دائما ما كان نظيفا ، صافيا ، وباردا ، مطبخ بخيل بحق ، أين لا يجب أن يضيع أي شيء هدرًا . عندما تنتهي نانو من جلي الأواني ، وتنظيف بقايا العشاء ، وتطفئ النار ، لتترك مطبخها المنفصل عن الغرفة بممر ، كانت تنضم إلى أسيادها بجوار الشمعة الوحيدة التي كانوا يشعلونها لتضيء لهم السهرة بطولها . كانت الخادمة تنام في آخر الممر . صحتها القوية سمحت لها بأن تعيش في هذا الجحر الذي بإمكانها أن تسمع منه أدنى صوت بفضل الصمت المريب الذي يطغى على المنزل بكرة وعشيا . كان يتوجب عليها ، تماما ككلاب الشرطة ، أن ترقد بأذن واحدة فقط ، وأن تنام حارسة تحركات المنزل .

في عام ١٨١٩ ، في بداية إحدى سهرات منتصف شهر تشرين الثاني ، أوقدت نانو النار للمرة الأولى . كان هذا اليوم مناسبة معروفة لدى كل من آل كروشو وآل دي غراسان . وبهذا اجتمع الأعداء الستة ، واتجهوا مسلحين بجميع اللوازم كي يلتقوا في الصالة ليتنافسوا على إثبات صداقتهم . في الصباح ، شاهد الجميع السيدة والآنسة غراندي ، تصحبهما نانو ، متجهات نحو الكنيسة ليحضرن القداس . كان الجميع يتذكر أن هذا هو عيد مولد

الآنسة أوجيني . وبهذا ، وبعد أن قام السيد كروشو بحساب تقريبي للوقت الذي ينتهي آل غراندي فيه من تناول عشائهم ، اتجه هو والقس ، والسيد بونفون لمنزل آل غراندي محاولين أن يسبقوا آل دي غراسان . ثلاثتهم كانوا يحملون باقات ورد كبيرة قطفوها من بيوتهم البلاستيكية . باقة الورد التي أراد السيد رئيس المحكمة تقديمها كانت ملفوفة بمهارة في شريط أبيض من القطيفة ، مرصع بقطع ذهبية . في الصباح ، ووفقا لعاداته في أيام ذكرى ميلاد ابنته أوجيني ، اتجه السيد غراندي إلى سريرها ليفاجئها ، وقدم لها بجلال هديته الأبوية ، التي هي نفسها منذ اثنتي عشرة سنة ، عبارة عن عملة ذهبية ما ،نادرة . عادة ما كانت السيدة غراندي تهدي ابنتها ثوبا للشتاء أو الربيع ، طبقا للظروف . كانت هذه الأثواب والقطع الذهبية التي تجمعها من والدها في يوم ميلادها وفي رأس السنة تشكل عائدا من مائة عملة ، كان والدها يسعد بتكديسها إياها . ألم يكن هذا بمثابة نقل نقوده من خزنة إلى أخرى؟ وبالتالي تنشئة روح البخل في صغيرته التي كان يطلب منها من حين لآخر أن تريه كنزها الصغير وهو يقول لها : سيكون هذا جهاز زواجك .

الجهاز عادة قديمة لا يزال يُستَعمَل في عدة مناطق من فرنسا . في بيري ، وفي أنجو . فعندما تتزوج آنسة صغيرة ، كان على عائلتها أو عائلة زوجها أن تقدم لها مبلغا ، يتشكل ، حسب العادات الجارية ، من دزينة ، أو اثنتا عشرة دزينة ، أو ألف ومائتي قطعة فضية أو ذهبية . حتى أفقر الرعاة لم تكن لتتزوج بدون جهازها هذا ، وإن لم يتعدَ ذلك اثني عشرَ فلسا .

عند العشاء ، سعِدَ السيد غراندي أيما سعادة برؤيته لأوجيني

في ثوبها الجديد، لدرجة أنه صرخ قائلا: فلنشعل النار بما أنه عيد مولد أوجيني.

- ستتزوج الآنسة خلال هذه السنة، هذا أكيد. قالت نانو وهي تحمل بقايا إوزة.

- لا أرى زوجا مناسبا لها هنا في سومور، قالت السيدة غراندي وهي تنظر إلى زوجها بطريقة خجولة تعكسُ رضوخها الزوجي التام.

نظر السيد غراندي طويلا نحو ابنته، ثم قال بسعادة: لقد أكملت ربيعها الثالث والعشرين اليوم، علينا أن نهتم بأمر هذه الفتاة قريبا. فتبادلت أوجيني ووالدتها بصمت نظرة ذكية. كانت السيدة غراندي امرأة جافة ونحيفة، صفراء كالسفرجل، عسراء، إحدى تلك النساء اللواتي تبدون وكأنهن خلقنَ ليُظلَمنَ. كانت تملكُ عظاما خشنة، وأنفا ضخما، جبهة عريضة، وعينيين كبيرتين، وتعطي انطباعا لمن يراها للمرة الأولى بأنها تشبه تلك الفواكه القطنية التي لم تعد تملك لا عُصارة ولا طَعما. لم تكن تملك أسنانا كثيرة، وأغلبها كانت مسودة، كان فمها مُجعّدًا، وذقنها يبدو كحذاء. كانت امرأة رائعة، امرأة من آل لا بيرتولِيير بحق. دائما ما وَجد القس كروشو مناسبات ليذكرها بكم أنها امرأة طيبة، ودائما ما كانت تصدقه. كانت تُحتَرَم لكونها تتحلى بلُطف ملائكي، برضوخ حشرة تخضع لتعذيب الأطفال، بشفقة نادرة، بمساواة نفسية ثابتة، وطيبة قلب عظيمة. لم يكن زوجها ليعطيها أكثر من ست فرنكات في كل مرة لمصروفها الشخصي. ورغم أنها تبدو سخيفة ظاهريا، إلا أن هذه المرأة بفضل مهرها وما ورثته عن أهلها، جلبَت للسيد غراندي أزيد من ثلاثمائة ألف فرنك، ومع

ذلك فإنها دائما ما أحست بتَبعية مُهينة لم تسمَح لها روحها اللطيفة الحنون أن تتمرد عليها ، وبذلك فهي لم تطلب من زوجها فرنكا أبدا ، ولم تعترض يوما أو تقدم ملاحظة بشأن العقود التي يطلب منها السيد كروشو إمضاءها . إن الكبرياء الغبي والسري لهذه المرأة ، ونبالة روحها التي دائما ما جرحها السيد غراندي ، هما ما كانا يهيمنان على تصرفاتها .

غالبا ما كانت السيدة غراندي ترتدي ثوبا مخضرا تحرص عليه طوال السنة ، وتلف نفسها بوشاح قطني أبيض ، وقبعة من القش المخاط ، إضافة إلى مريلة سوداء . وبما أنها لم تكن كثيرة التجوال خارج منزلها ، فإنها لم تكن تستعمل أحذية كثيرة . في الحقيقة ، هي لم تكن تريد شيئا يخصها وحدها أبدا . ولذلك ، فإن الإحساس بالذنب كان يجعل السيد غراندي يتذكر من حين لآخر الزمن المنساق على آخر مرة قدم فيها لزوجتها فرنكاتها الستة . ولكنها ما أن تتحصل عليها ، حتى يقول لها زوجها : هل بإمكانك أن تقرضيني بعض النقود؟ وكانت المعتوهة المسكينة تسعد لكونها قادرة على تقديم المساعدة لرجلٍ ، كان القس يصفه بأنه ربها وسيدها ، فتقدم له مبلغا ماليا من مصروفها . في كل شهر ، عندما يستخرج مبلغا ماليا محددا بعناية ليقدمه لابنته من أجل زينتها ، وإبر وخيوط خياطتها ، لم ينسَ السيد غراندي يوما أن يسأل زوجته : وأنتِ ، أيتها الأم ، هل تريدين شيئا ما؟

- سنرى في هذا الأمر لاحقا ، يا رفيقي ، دائما ما ترُد الأم مدفوعة بمشاعر الكرامة الأموية .

وبهذا كان السيد غراندي يرى أنه جد كريم مع زوجته . أليس من حق الفلاسفة الذين يلتقون بشخصيات من أمثال نانو ، السيدة

غراندي وأوجيني ، أن يعتقدوا أن السخرية هي أعمق خاصية تميز شخصية الآلهة؟

بعدَ هذا العشاء ، أين تم تناول موضوع زواج أوجيني لأول مرة ، ذهبت نانو لتبحث عن قارورة الكشمش في غرفة السيد غراندي ، وكادت تسقط وهي تنزل الدرج .

- يا لكِ من غبية ، هل كنت ستتركين نفسك تسقطين من على الدرج؟

- سيدي ، إن ذلك يعود لتلك الدرجة المتهرئة في السلالم .

- إنها محقة ، علّقت السيدة غراندي . كانَ عليك أن تُصلِحَها منذ مدة ، فقد كادت أوجيني تسقط منها البارحة .

ولّما رأى السيد غراندي وجه نانو الشاحب ، اقترح عليها :

- حسنًا ، بما أنه يوم ميلاد أوجيني ، وبما أنك كدت تسقطين ، فلتسكبي كأسا من الكشمش لتستردي أنفاسك .

- يا إلهي ، إني أستحقه بجدارة . قالت نانو . فلو كان شخص ما في مكاني ، لكان قد كسر القارورة ، أما أنا ، فقد كنتُ لأكسرَ مرفقي بدلا من ترك الزجاجة تنكسر .

- نانو المسكينة! ردّد السيد غراندي وهو يسكب لها الكشمش .

- هل جرَحتِ نفسكِ؟ سألتها أوجيني بقلق .

- لا ، لقد تماسكت بعد أن اتكأت على كليتي .

- حسنا ، لكونه عيد مولد أوجيني ، سوف أصلحُ لكم الدرَج بنفسي بما أنكم لا تملكون المهارة الكافية لتتمشوا على طرف السّلم الذي لا يزال سليما .

أخذ غراندي الشمعة ، تاركا زوجته وابنته وخادمته في ظلام

يتخلله فقط الضوء الخافت الصادر من نار المدفأة ، وذهب ليبحث عن الألواح ، والمسامير والأدوات اللازمة .

- هل تحتاج المساعدة؟ نادته نانو متسائلة عندما سمعته منهالا على السلم بالضربات .

- لا ، لا ، أنا أُحسنُ هذا ، ردّ غراندي ، صانع البراميل سابقا .

وبينما السيد غراندي يسترجع مع ذاته ذكريات الأيام الخوالي في صنع البراميل خلال شبابه ، إذا بآل كروشو يطرقون الباب .

- هل هذا أنتَ سيد كروشو؟ سألت نانو وهي تنظر من ثقب الباب .

- بلى ، ردّ الرئيس .

فتحت نانو الباب ، واتجه الكروشو الثلاثة نحو الصالة ، تقودهم أشعة المدفأة .

- آه ، أنتُم محتفلون؟ سألتهم نانو وهي تستنشق عبير الورد .

- اعذروني أيها السّادة ، ناداهم السيد غراندي قائلا . هاأنذا أتفرغ لكم . لست فخورا بهذا ، لكنني أصلح إحدى سلالم بيتي بنفسي .

- فلتفعل ذلك ، سيد غراندي ، فكما يقول المثل «الفحّام ربّ في بيته» . قال رئيس المحكمة ، وهو يضحك بينه وبين نفسه على التلميح الذي لم يفهمه أحد منهم .

نهضت السيدة والآنسة غراندي ، واستغل السيد رئيس المحكمة الظلام ، وقال لأوجيني : هل تسمحين لي ، آنستي ، أن أتمنى لك ، اليوم حيثُ جئت إلى الوُجود ، سلسلة من السنوات السعيدة والصحة الجيدة التي تنعمين بها؟

وقدم لها باقة كبيرة من الورود النادرة في سومور ، ثم ، وهو

يُمسكُ الوريثة من مرفقيها ، قبَّلَها على طرفي عُنُقها بكثير من الكياسة ، مما جعَل أوجيني تشعر بالخجل والحياء . اعتقَد الرئيس أنه بهذا قد لاطفها وكسب وُدّها ، إلا أنه بدَا كمسمار يعلوه الصدأ . فأقبل السيد غراندي قائلا :

- لا تُكلف نفسك ، سيدي . أوَلست تذهب للكثير من الأعياد والمناسبات ، أيها الرئيس؟

- لكن مع آنستي ، أعتب القس حاملا باقة الورد قائلا ، كل الأيام ستكون بمثابة أعياد بالنسبة لابن أخي . و قبّل القسّ يدَ أوجيني . أمّا السيد كروشو ، فقد قبلها بلُطف على وجنتيها ، وقال : كَم أننا نكبر ونُزهر ، كلّ عام ، بعد اثنتي عشر شهرًا!

وَضع السيد غراندي الشمعة بجانب ساعة الجدار ، وبما أنه لا يسأم أبدا من ترديد مزحة بدَت له مسلية ، فقد أردف قائلا :

- بما أنه عيد ميلاد أوجيني ، فلنشعل الشمعدانات .

أوقدَ السيد غراندي الشمعدانات بمساعدة نانو ، ثم جلَس بجانب زوجته ، متأملا بالتناوب أصدقاءه ، وابنته ، والشمعدانين . القس كروشو والذي كان رجلا صغيرا سمينا ، مُشحّما ، بشعر مستعار أحمر ، ووجه امرأة عجوز لعوب ، سأل قائلا :

- ألَم يأتِ آل دي غراسان؟

- ليسَ بعد ، ردّ السيد غراندي . . .

- ولكن ، هل يجب عليهم أن يأتوا؟ تساءل كاتب العدل العجوز ، عابسا بوجهه كمطفحة .

- أعتقد ذلك ، ردّت السيدة غراندي .

- هل انتهيت من جني الثمار؟ سأل الرئيس بونفون .

- بلى ، في كل مكان . ردّ غراندي ، ثم قام من مكانه ، وتجول

ذهابا وإيابا في الصالة ، رافعا زوره بكبرياء وتبختر مثل كلمته : في كل مكان . من الباب المؤدي للردهة والذي يصلها بالمطبخ رأى نانو جالسة بجانب الموقد الخاص بها ، كانت تستعد لتحيك قليلا مستعينة بذلك الضوء ، حتى لا تتدخل في ما يجري في الحفلة .

- نانو ، قال السيد غراندي وهو يقترب منها في الردهة ، هلاّ أطفأت النار هنا ، وانضممت إلينا؟ بحق السماء ، الصالة كبيرة بما يكفي لتسعنا جميعا!

- لكن يا سيدي ستكتظ الصالة قريبا .

- ألا تريدين الانضمام؟ جميعهم أبناء آدم ، مثلك تماما .

عاد السيد غراندي إلى الرئيس ، وسأله :

- هل بعتُم محاصيلكم؟

- يا إلهي ، لا! أنا أخبئها . إذا كان الخمر لذيذا وجيدا الآن ، فسيكون أكثر لذة وجودة بعد عامين . المُلاك ، كما تعرف ، أقسموا على المحافظة على الأسعار المتفق عليها ، وهذه السنة ، لن يخدعنا البلجيكيون ولن يكسبوا . وحتى لو ذهبوا ، فإنهم سيعودون حتمًا .

- نعم ، ولكن علينا أن نتماسك جيدًا . قال غراندي بنبرة جعلت الرئيس ينتفض .

وفي تلك اللحظة ، أعلنت الطرقات على الباب وصول آل دي غراسان ، وقطع وصولهم بذلك حديثًا انطلق بين القس والسيدة غراندي .

كانت السيدة دي غراسان إحدى تلك السيدات الصغيرات المفعمات بالحيوية ، السمينات البيضاوات الورديات ، واللواتي يحافظن على شبابهن حتى بعمر الأربعين بفضل نظام الدير الريفي وعادات الحياة الصالحة . إنهن مثل ورود نهاية الخريف ، فمنظرهن

يخلق نوعا من البهجة والمتعة ، إلا أن بتلاتهن باردة على نحو ما ، ورائحتهن تخبو وتنقص يوما بعد يوم .

كانت السيدة دي غراسان تعتني بنفسها جيدا ، وتطلب ثيابها من باريس ، وتَمُد سومور بجمالية ما ، كما أنها كانت تنظم الحفلات والسهرات . أما زوجها الذي كان ، في السابق ، قائدا مهما في الحرس الإمبراطوري ، فقد جُرح بشكل خطر في معركة اوسترليتز ، واضطر للتقاعد . ورغم احترامه الكبير للسيد غراندي ، إلا أنه حافظ على صراحته الظاهرة التي تميز العسكريين .

- مساء الخير ، غراندي . ردد السيد دي غراسان ، وهو يمدُ يدًا متعالية لتصافح يد البخيل ، بطريقة دائما ما أثبتت تعاليه الذي يسحَق به آل كروشو . وبعدَ أن حيّا السيدة غراندي استدار نحوَ أوجيني وقال لها :

- آنستي ، دائما ما كنتِ جميلة ورزينة ، في الحقيقة ، لا أعرف ما الذي يمكنني أن أتمناه لكِ .

ثم قدَم لها علبة صغيرة كان خادمه يحملها ، وكانت تحتوي على زهرة جد نادرة قدمت حديثا لأوروبا .

قبّلت السيدة دي غراسان أوجيني بكلّ لطافة ، وصافحتها بحرارة قائلة : لقد تكفّل آدولف بإحضار هديتي الصغيرة .

ظهر شاب أشقر طويل ، شاحب ، ونحيف ، يُحسن أساليب الكلام والتعامل ، يبدو خجولا ، إلا أنه كان قد عاد لتوه من باريس بعد أن صرف ما يزيد على عشرة آلاف فرنك فرنسي لدراسة الحقوق ، واقترب من أوجيني ، وقبلها على وجنتيها ، مقدما لها علبة بدت زهيدة القيمة رغم أن حرفي أ .غ الذين نُقشا عليها يُعطيان الانطباع بأنها مزينة ومزخرفة بدقة متناهية . وعندما

فتحتها ، ازدان وجه أوجيني وبدَت على مُحياها فرحة غير معهودة جعلتها تحمرّ وترتعش . استدارت أوجيني نحو والدها وكأنها تطلب إذنه في قبول الهدية المقدمة لها ، فقال لها : «خذيها يا ابنتي» .

اندهش آل كروشو عندما رأوا النظرة السعيدة والحيّة التي رمت بها الوريثة آدولف ، هي التي لم يسبق لها عهد بهدايا هكذا . قدمَ السيد دي غراسان للسيد غراندي علبة سجائره ، فأخذ واحدة منها ، وأخذ هو بدوره واحدة ، واستدار إلى آل كروشو ملقيا عليهم نظرة محتقرة متحدية . أما السيدة دي غراسان ، فقد ألقت نظرة متهكمة باحثة عن الهدايا التي أحضرها آل كروشو . وفي ظل هذه الظروف ، تركَ القس الجميع مجتمعين في قلب القاعة ، واتجه إلى آخرها ، حيث انضم للسيد غراندي بجانب النافذة ، بعيدا جدا عن آل دي غراسان ، وهمس للبخيل قائلا : هؤلاء القوم يرمون أموالهم من النوافذ! ياله من تبذير . فردّ عليه غراندي قائلا :

– وما الذي يضيرني إن كان مالهم يصبُ في جيبي؟

– إن أردْت أن تُهدي ابنتك مقصا من الذهب ، لكنتَ قادرًا على ذلك ، أعرف ذلك .

– أنا أعطيها ما هو أفضل من المقص .

– ابن أخي أبلَه سخيف ، فكّر القس ، ألم يكن بإمكانه أن يفكر في ابتكار شيء ما يبدو ذا قيمة أكبر!

– هيا لنلعب ، إذن ، مدام غراندي!

– إننا مجتمعون جميعًا ، هل ستتسع لنا طاولتان . . .

– بما أنه عيد مولد أوجيني ، فلتلعبوا اللوتو ، ودعوا هذين الطفلين يشاركان ، قال السيد غراندي الذي لا يلعَب أبدا ، مشيرا إلى أوجيني وآدولف . هيا نانو ، حضري الطاولات .

- سوف نساعدُكِ، آنسة نانو، اقترحت السيدة دي غراسان والسعادة تغمرها بعدَ أن تمكنت من إدخال السرور على قلب أوجيني.

- لم أشعر يومًا أني سعيدَة أكثر مما أنا عليه الآن، لم أرَ يومًا أجمَل من هذا في حياتي. أخبرَتها الوريثة.

- لقد اختارها آدولف وأحضرها من باريس خصيصا لك، همسَت لها السيدة دي غراسان في أذنها.

كان السيد رئيس المحكمة ينظر إليهما مفكرا: فلتذهبي للجحيم، أيتها الملعونة. إن حدث وتورطتِ أنتِ أو زوجكِ في قضية ما، فسترون ما أنا فاعل بكما.

أما كاتب العدل، فكان جالسا في ركنه، يراقب القس بكل هدوء، وهو يحدّث نفسه قائلا: مهما فعل آل دي غراسان، فإن ثروتي، وثروة أخي وابن أخي ستتزايد لتصل لإحدى عشر مائة ألف فرنك، وهي قيمة لن يصل آل دي غراسان حتى إلى نصفها كما أن لهم ابنة، بإمكانهم أن يقدموا ما يريدون، فالوريثة وهداياها كلها ستغدو لنا في يوم ما.

على الساعة الثامنة والنصف مساءً، وُضعَت الطاولتان. ونجحت السيدة دي غراسان في وَضع ابنها بجانب أوجيني. كل هؤلاء المثلين المتظاهرين بالاهتمام، بدَوا سوقيين، حاملين لوحات كرتونية مبرقشة، مرقمة، وبفيش لعب من الزجاج الأخضر، بدا المثلون وكأنهم يستمعون لنُكت كاتب العدل العجوز، هو الذي لم يكن يسحب رقما دون أن يُدلي بملاحظة ما، إلا أنهم جميعهم كانوا يفكرون في الشيء ذاته، كلهم كانوا يفكرون بجشع في أموال السيد غراندي. كان البخيل يتأمل بترفع الريشات الوردية، والزينة

الخاصة بالسيدة دي غراسان ، والرأس الحربي لعمال البنوك المتوضع على رقبة آدولف ، الرئيس ، القس ، وكاتب العدل ، وكان يقول في نفسه : جميعهم هنا من أجل نقودي . يأتون ويزعجون أنفسهم هنا ، فقط من أجل ابنتي . لكن ابنتي لن تكون من حظ لا هذا ولا ذاك ، وكل هؤلاء سأستعملهم كطعم لأصطَاد!

هذا الجو المفعم بالسعادة العائلية ، في هذا الصالون الرمادي الذي بالكاد يكون مضاءً بشمعدانين ، هذه الضحكات لم تكن صادقة إلا على فم أوجيني ووالدتها . هذه الفتاة الصغيرة التي تحظى باهتمام كبير ، هذه الشابة التي تشبه الطيور الضحايا التي تُوضع للبيع بأثمان باهظة وهي تجهَلُ ذلك ، هذه الشابة كانت ملاحقةً كطريدة ، مُعلقة بأدلة الصّداقة التي كانت تجهل ما وراءها ، كل هذا جعل الأمر يبدو كمشهد كوميدي حزين . أوليس هذا مشهدًا يحدث في كل مكان وكل زمان ، إلا أنه مدفوع لصورته الأكثر بساطة . وصورة غراندي وهو يكتشف ويستغل التعلق المزيف للعائلتين ، مستغلا إياهما ، كانت تُهيمن على المشهد الدرامي وتوضحه . أليسَ المال ، في كامل جاهه وقوته ، الإله المعاصر الوحيد الذي نؤمن به ، والظاهر في هيئة واحدة؟ لم تكن مشاعر الحياة اللطيفة تشغل هنا سوَى حيز ثانوي ، تُحرك ثلاث قلوب نقية ، قلبَ نانو ، أوجيني ، وأمها . يا للكم الهائل من الجهل الذي يشغل سذاجتهم . أوجيني وأمها لم تكونا تعلمان شيئا عن ثروة غراندي ، فهما لم تكونا تقدرَان قيمة الأشياء الدنيوية سوى من البريق الخافت الصادر عن الأفكار الشاحبة ، ولم تكونا تقدران المال أو تحتقرانه ، معتادتان على أنهما تستطيعان التخلي عنه . مشاعرهما الحية - من دون علمهما - رغم كونها متقبضة ، كانت بمثابة سر

وُجودهما ، كما أنها كانت الاستثناءات الوحيدة المثيرة للفضول في هذا الاجتماع الذي جَمع ناسًا حيواتهم مادية بحتة . يا لها من وضعية حقيرة يعيش بها الإنسان! لا تنبع السعادة إلا عن جهل ما .

في الوقت الذي ربحت فيه السيدة غراندي ستين فلسًا ، وهو أكبر مبلغ كُسبَ تحت سقف هذه الصالة ، وبينما نانو تضحك بسعادة وهي ترى سيدتها تربح هذا المبلغ المعتبر ، سُمعت طرقات على باب المنزل دُقّت بقوة لدرجة أن النساء قفزن هلعًا عن كراسيهن .

- ليسَ هناك من رجل في سومور يطرق الباب بهذه الطريقة ، قال كاتب العدل .

- كيفَ لأحد أن يطرق الباب بهذه الطريقة؟ هل يريدون كسرَه؟

- أي شيطان هو ذا؟

حَملت نانو إحدى الشمعدانين ، وذهبت برفقة السيد غراندي لتفتح الباب .

- غراندي ، غراندي! صرخت زوجته مهرولة نحو باب الصالة مدفوعة بخوفها عليه .

أما بقية الحضور ، فتبادلوا نظرات صامتة .

- ربما يجدر بنا الذهاب ، هذا الطَرق يبدو فألا سيئا . همهم السيد دي غراسان .

بالكاد تمكن السيد دي غراسان من رؤية وجه الشاب المُرفَق برَسول يحمل حقيبتين ضخمتين ويجر حقائب ليلية . استدارَ غراندي فجأة نحو زوجته وقال لها : سيدتي ، أكملي لعبتكِ ،

ودَعيني أتحدث مع السيد .

ثم أغلق باب الصالة ، وتركَ اللاعبين يعودون لأماكنهم دون أن يكملوا لعبتهم .

– هل هو شخص من سومور ، سيد دي غراسان؟ سألته زوجته .

– لا ، يبدو أنه مسافر .

– لا يمكن أن يكون قادمًا إلا من باريس . قال الموثق وهو ينظر إلى ساعته الضخمة القديمة ، والتي تبدو كمركب هولندي : إنها الساعة التاسعة!

– وهل السيد القادم شاب؟ سأل القس كروشو .

– أجل ، ردَ السيد دي غراسان . وقد أحضَر معَه رزمًا تزن على الأقل ثلاثمائة كيلوغرام .

– نانو لم تعد بعد ، علّقت أوجيني .

– هذا لا يمكن أن يكون إلا أحد أقاربكم ، قال السيد الرئيس .

– دعونا نعد إلى لعبتنا الآن ، قالت السيدة غراندي ، يبدو لي السيد غراندي مستاءً من صوته ، ربما هوَ لن يكون سعيدًا إذا ما انتبه إلى أننا نتحدث عن شؤونه .

– آنستي ، قال آدولف متحدثا إلى أوجيني التي جاورته في المقعد ، لابدَ وأنه ابن عمك غراندي ، وهو شاب وسيم قابلته في الحفلة الراقصة التي نظمها السيد نوسينجين . . . لم يُكمل آدولف حديثه حيث أن أمه سحَقت قدمَهُ تحت الطاولة ، ثم طلبت منه بصوت عال أن يُكمل اللعبة ، وهمست له : هلّا أغلقتَ فمكَ أيها الأبله؟

وحينئذ عادَ غراندي بدون نانو ، التي كان صدى خطواتها هي

والرسول يتردد في السلالم ، وتبعَ السيد غراندي المسافر الذي ـ منذ مدَة ـ حرّكَ فضول الجُلوس وشغل مخيلاتهم بكل حيوية . وبدا وصوله لهذا المنزل ونزوله وسط هؤلاء القوم كدخول حلزون في خلية نحل ، أو كوضع طاووس بهيّ في فناء الدواجن الخاص بأحد الأرياف .

– فلتجلس بجانب المدفأة ، قال له السيد غراندي .

قبلَ أن يجلس ، حيّا الشاب الغريب الجماعة برفق ، قام الرجال ليردوا عليها بانحناءة مهذبة ، وأجلّته النساء محتفيات .

– لابدَ وأنك تشعر بالبرد ، سيدي ، قالت السيدة غراندي ، لابدَ وأنك قادم من . . .

– هاه ، هكذا هنَّ النسوة دائما ، قال البخيل العجوز وهوَ يتوقف عن قراءة رسالة كان يحملها بيده ، فلتدعوا الرجل يرتاح .

– ولكن يا أبي ، ربما يحتاج السيد شيئا ما ، قالت أوجيني .

– من الواضح أنه يملك لسانًا ، ردَ البخيل بجفاف .

وحدَه الغريب من اندَهش من هذا المشهد . فقد اعتاد الآخرون على أساليب السيد غراندي الاستبدادية . إلا أن الغريب بعدَ أن شَهدَ هذه المحادثة ، قام وعرّضَ ظهرَه للنار ، وحمَل إحدى قدمَيه لتسخينها أمام المدفأة ، وقال لأوجيني : ابنة عمي ، أشكُركِ كثيرا ، لقد تناولت عشائي في لاتور . وَأضاف قائلا وهو يراقب غراندي ، أنا لست في حاجة لشيء ، لستُ متعبًا البتة .

– هل السيد قادمٌ من العاصمة؟ سألت السيدة دي غراسان .

حينَ وُجه إليه الكلام حينها ، حمَل السيد شارل ، ابن أخ السيد غراندي الباريسي ، نظارته المعَلقة بخيط حول رقبته وثبتها على عينه اليمنى حتى يتفحصَ ما يوجدُ على الطاولة وما يحيط

بهـا عن كـثب . وبَعـدَ أن رأى كل شيء ، اتجـه بنظره للسـيـدة دي غراسـان ، وقـال لهـا : أجل ، سـيـدتي . أنتُم تلعَبـون اللوتو ، أيتـهـا العمّة ، أرجوكم واصلوا اللعب ، فهي جد مسلية . . .

– كنتُ متـأكدة من أنه ابن العم ، فكرت السيدة دي غراسان وهي تلقي عليه نظرات فاحصة .

– أربَعة وسبعون ، صرخ القس قائلا ، هيّا سجلي ، مدام دي غراسان ، أوليسَ هذا رقمكِ؟

وضع السيـد دي غراسان فيشة على ورقة زوجته التي تملّكتها مشاعر كئيبة جَعلتها تتأمل أوجيني وابن عمها الواحد تلوَ الآخر ، دون أن تفكر في اللوتو . من حين لآخـر ، كـانت أوجـيني تلقي نظرات خاطفة على ابن عمّها تَمكنت المرأة من أن تنتبه لكونها تُعبر عن تزايد فضولها واندهاشها .

السيد شارل غراندي ، شاب وسيم في الثانية والعشرين من عـمره ، كـان يخلق في هذه اللحظات تضاربا بينه وبين أهل الريف الذين انشغلوا بداية بأساليبه الأرستقراطية التي كانوا يتفحصونها ويدرسونها ليسخَروا منه .

قبلَ أيام من هذه السـهرة ، حدّثه والدُه بضرورة زيارته وإقـامته بضـعـة أشـهر عند عـمّه في سـومـور . ربّمـا كـان السـيـد غـراندي الباريسي يفكّر بخصوص أوجيني . شارل الذي لم يسبق له أن حلّ ببلدة ريفـيـة من قـبل كـان يبـدو لنفسـه وكـأنه أسـمـى منهـم وقـد انعكسَ ذلك على مـلابسـه ، حـيث اعـتـقـد أنه سـيُـبـيـدهم بثرائه وأناقـتـه ، وأنه يواكب الموضـة ، كـمـا أحـضَـر لهم بعض الأدوات المستعملة في باريس . وأخيرا ، لنختصر الأمر في أنه أرادَ أن يُمضي وقتًا أطول في سومور وهو يقلّم أظافره ، أكثر من الوقت الذي يقضيه

في باريس . ولذلك ، أحضر شارل معه أكثر ثياب الصيد خاصته أناقة ، وأحسن بندقياته ، وأجمل سكاكينه . كما أحضر مجموعة صدّاراته الأكثر بهاءً . وجَلب مجموعة ربطات العنق الحديثة ، وملابسه الأكثر نعومة وأناقة ، وكذلك زينته الذهبية التي أهدتها إياه والدته . دون أن ننسى المحبرة التي أهدته إياها إحدى أروع النساء على ظهر الأرض ، على الأقل بالنسبة له ، وهي سيدة كبيرة تدعى آنيت ، وكانت قد سافرت مع زوجها على مضض إلى اسكتلندا ، لكونها ضحية بعض الشكوك التي دفعتها للتضحية بسعادتها مؤقتا ، ولذلك كانت قد أهدته المحبرة والأوراق الثمينة ليكتب لها مرة كل أسبوعين . وبذلك ، كانت مجرد حمولة سخيفة مليئة بتفاهات باريسية لا قيمة لها . كان شارل يتوقع أن يلتقي مئات الأشخاص عند عمّه ، وأن يصطادَ طويلا في غاباته ، باختصار : أن يعيش حيَاة القصور . لم يكن يعلم أنه يقطن بسومور حيث لم يسأل عنه إلا ليسأل عن الطريق المؤدية إلى فروافون ، ولكن لعلمه أنه بالمدينة ، كان يتصور أنه يسكُن فندقا كبيرا . وليبدأ الأمور بشكل جيد عند عمّه ، سواء بسومور أو بفروافون ، فكان قد وضع زينة السفر الأكثر أناقة . في تور ، جعّد له الحلاق شعره الأشقر الجميل من جديد ، وغيّر ثيابه ، ووضع ربطة عنق حريرية سوداء متناسقة مع طاقة مستديرة بطريقة جعلت وجهه الأبيض الضاحك يتضح أكثر للوجود . حوَّطَ نفسه بمعطف سفر نصف مزرر يُظهر قميص الكشمير الذي يرتدي تحته قميصا أبيض . أما ساعته المرمية عبثا في أحد جيوبه فقد كانت ملتصقة بسلسلة ذهبية قصيرة بإحدى عقده . سرواله الرمادي كان مزررا على الجوانب أين ظهرت زخارف من الحرير الأسود لتزين الخياطة . وكان يحمل عصا

ذات قمّة تبدو كتفاحة ذهبية . وكذلك قبعة تنم عن ذوقه الرفيع . فقط باريسي من الطبقات العليا كان بإمكانه أن يتأنق هكذا دون أن يكون محل السخرية ، حيث يبدو متناسقا رغم سذاجة الملابس في حد ذاتها .

والآن إذا أردتم أن تفهموا ردَة فعل القوم المجتمعين في هذه الصالة ونظرتهم للشاب الباريسي الذي انعكست أشعة أناقته على ظلال الغرفة الرمادية ، فلكم أن تتخيلوا الوجوه التي تشكل هذه اللوحة العائلية . فلتتخيلوا آل كروشو أولا . ثلاثتهم حاملين تبغهم ، هم الذين لم يفكروا منذ زمن بعيد في تفادي البقع السوداء التي زُرعت هنا وهناك على قمصانهم ، ولا في طَوق قمصانهم التي يلوح اصفرارها من بعيد . أمّا ربطات أعناقهم فكانت تلتف كحبل حول نفسها بمجرد أن يرتدوها حول رقابهم . كما وقد كانت كمية الملابس المعتبرة التي يملكونها تُمكنهم من ألا يغسلوا ملابسهم إلا مرة كل ستة أشهر ، إلا أن الطريقة التي يكدسونها بها في الخزائن جعلت الأيام تطبَع على الثياب آثارها الرمادية القديمة . كان الثلاثة يتفقون تماما في سوء نيتهم وخرف عقولهم . وجوههم الذابلة تماما مثل ملابسهم المبشورة ، والمطوية تماما كسراويلهم ، بدَت بالية ، وجامدة وعابسة . اللامبالاة التامة بالملابس ، التي كانت كلها غير كاملة ، خالية من الليونة والحداثة تماما كما هي أغلب زينة الريف حيث يصل سكانه لمرحلة لا يرتدي فيها أحد ملابسه ليبهر غيره ، وأينَ يحرص القوم على سعر القفازات التي يبتاعونها ، كان عدم الاهتمام هذا يشبه كثيرا لامبالاة آل كروشو . ولم يتفق آل كروشو وآل دي غراسان يومًا إلا على نقطة واحدة ألا وهي عداوتهم واحتقارهم لموضة الملابس . أما الباريسي فكان قد وضع نظاراته

وأخذ يتفحص المكان، متأملا الديكورات الفريدة التي تزين الصالة، العارضات الخشبية التي شكلت الأرضية، والنقاط التي خلّفَها الذباب على جدران وأثاث الصالة والتي كان عددها يكفي ليُنَقّطَ جميع حروف الموسوعة الميثودية. وبدورهم نسي لاعبوا اللوتو أمر اللعبة وأخذوا يحدقون فيه بفضول مماثل، وكأنهم كانوا يشاهدون زرافة. أما السيد دي غراسان وابنه المتعودان فلم يمنعهما تعودهما المسبَق على رؤية الباريسيين من أن ينضموا إلى الجمع ويظهروا تعَجبهم من الباريسي. وذلك إما أنهما تأثرا بالشعور الجماعي الذي غلب على الحضور، وإما لأنهما أحسّا فعليا بذلك وكأنهما يقولان لأهاليهم بسخرية: «أرأيتم كيفَ هم الباريسيون؟».

كان بإمكانهم جميعًا أن ينظروا إلى شارل كما يحلو لهم دون أن يزعجوا رب البيت فقد كان السيد غراندي منهمكا بقراءة الرسالة الطويلة تحت ضوء الشمعدان الموضوع على الطاولة، وكان بذلك منشغلا عن ضيوفه ولم يعِرهم أدنى انتباه. أمّا أوجيني التي لم يسبق لها أن رأت كمالا مماثلا أمامها فإنها أحسّت وكأنها تمثل أمام كائن نزلَ عليها من منطقة ملائكية ما. استنشقت بمتعة الروائح المنبعثة من ذلك الشعر المجعد البراق بطريقة خلابة. كان بودّها أن تلمس تلك البشرة الناصعة البياض لتلك القفازات الفاخرة. وكانت تحسد يدَي شارل، وبشرته، ولينَ ملامحه ولُطفها. وأخيرا، إذا كان بإمكان هذه الصورة تلخيص الانطباعات التي خلقتها رؤية هذا الشاب الأنيق في نفس فتاة جاهلة تشغل وقتها في رتق جواربها وفي رقع ملابس والدها، والتي جَرت حياتها في هذا المنزل البائس المنعزل حيث لا يكاد يمرّ بمنزلهم أكثر من مارّ واحد خلال ساعة من الدهر، فإن رؤيتها لابن عمها بثّت وأسالت

في قلبها رغبات رقيقة تشبه تلكَ التي تخلقها رؤية وجوه النساء الخلابة المرسومة فِي لوحات ويستل في نفس رجُل شاب ، تلكَ الرسومات التِي نُقشت من طرف آل فندن بدقة ومهارة شديدين لدرجة أن المرء يخشى إن هوَ نفخ قليلا من الهواء على البرشمان الذي رُسِمَت عليه أن تتطايرَ المخلوقات السماوية .

أخرجَ شارل من جيبه منديلا زَخْرَفَت حوافَهُ المرأَةُ التي تقطن اسكتلندا حاليا . ولمّا رأت أوجيني هذا العَمل الجميل المصنوع بحُبٍ خلال ساعات طويلة مُهدَرة من أجل الحب بقيت تراقب ابن عمها لترى إن كان سيستعمله فعليا . تحرُكات شارل وأساليبه ، والطريقة التي أمسكَ بها نظارته ، سفاهته المتكلفة ، واحتقاره الذي يكنه لتلك العلبة التي جعلت أوجيني منذ حين أسعد إنسانة على الأرض والتي كان يراها حتما علبة تافهة بلا أدنى قيمة ، في الحقيقة كلّ ما كان يصدم بشدة آل كروشو وآل دي غراسان كانَ محَط إعجابه هو ، وهو ما جعل أوجيني تفكر طويلا في ابن العمومة الفينيقي هذا قبلَ أن تخلد للنوم .

استمرت اللعبة ببطء شديد ، ثم توقف اللاعبون نهائيا . دَخلت نانو للصالة وقالت بصوت مرتفع : سيدتي ، عليكِ أن تعطيني الفراش والأغطية لأعدَ فراش هذا السيد .

تبعَت السيدة غراندي نانو خارج الغرفة . وقالت السيدة دي غراسان بصوت منخفض : فليحتفظ كل منا بنقوده ، ولندع اللوتو جانبا . فحمل كل منهم فلسيه من الطاولة . ثم تحرَك الجمع ككتلة واحدة واتجه ربع دورة نحو المدفأة .

- هل انتهيتم من اللعب؟ سأل السيد غراندي دون أن يُبعِدَ عينيه عن الرسالة التي يقرؤها .

- أجل ، أجل . . . رددت السيدة دي غراسان وهي تجلسُ بالقرب من شارل .

أما أوجيني التي دفعتها تلك الأفكار التي تحلّ بقلب الشابّات عندما تسكُن قلوبهن المشاعر لأول مرّة ، فقد تركَت الغرفة وذهبت لتساعد أمها ونانو . إذا ما سألها قسُ اعتراف ماهرٍ حينها عن ماهية النية التي دفعتها لذلك ، فستعترف أنها لم تكن تَفكر لا بأمها ولا بنانو ، وأن كل ما في الأمر هو أن بها رغبة مُلِحّة لتَفقُد الغرفة التي سيشغلها ابن عمها ، لتضع بها كل ما أمكنها وضعه ، كي تتفادى أي سهو أو هفوة أو نسيان ، ولتزودها بكل ما هو موجود بحيث تجعلها أنيقة ونظيفة قدر المستطاع . كانت أوجيني تعتقد أنها وحدَها القادرة على استيعاب أذواق وأفكار ابن عمها . وقد كان من حسن الحظ أنها ذهبت للتفقد ، حيث أنها أثبتت لأمها ولنانو اللتان اعتقدتا أنهما قد انتهتا من إعداد كل شيء أنه يجب إعادة تهيئة كل شيء من جديد . فقد اقترحت أن تبلل نانو الأغطية قليلا بجمرات النار ، وغطّت بنفسها الطاولة بسماط صغير مُؤكدة على نانو ضرورة تغييره كل صباح . كما أقنعت والدتها بضرورة إضرام نار صغيرة في المدفأة ، وجَعلت نانو تختلس بذلك كمية معتبرة من الحطب دون علم السيد غراندي . وركضت باحثة عن صينية من الورنيش القديم التي وُرِثَت عن السيد دي لا بيرتوليير ، ووضعت بها كأسا زجاجيا وملعقة صغيرة زال تذهيبها عنها ، وقنينة قديمة صغيرة مُكتنزة بنقوش الحب .

خلال ربع ساعة ، خلقت تلك المشاعر اللطيفة التي عجّ بها قلبها في ذهنها من الأفكار ما لم تُفكر به منذ جاءت للوجود .

- أمي ، لا أعتقد أن ابن عمي سيتحمّل رائحة شموعنا ، أظن أنه من الأجدر بنا أن نشتري له بوجيه (شمعة) ؟ . . . واتجهت

إلى غرفتها لتستخرج من حصالتها ما يقارب المائة فلس التي تحصلت عليها كمصروفها لهذا الشهر .

– خذي نانو ، اشتري واحدة وعودي بسرعة .

وعندما رأت السيدة غراندي ابنتها تحضر سُكرية قديمة أحضرها السيد غراندي من قصره بفروافون ، احتجت قائلة :

– ولكن ما الذي سيقوله والدك؟ ومن أين لكِ بالسكر؟ هل فقدت صوابك؟

– أمي ، ستشتري نانو السكر عندما تشتري البوجيه .

– ماذا عن والدك؟

– هل سيكون من اللائق ألا يكون في مقدور ابن أخيه أن يتحصل على ماء مسَكَّر؟ ثم إني أعتقد أنه لن يلاحظ ذلك .

– والدك يرى ويلاحظ كل شيء ، قالت السيدة غراندي وهي تهز رأسها .

تردَدت نانو حينئذ وذلك لمعرفتها بطبيعة وعادات سيدها .

– هيا ، فلتذهبي نانو ، بما أنه عيد مولدي!

ضحكت نانو بشدة وهي تسمع لأول مرة في حياتها سيدتها الصغيرة تمزَح بهذه الطريقة ، وأطاعتها .

وبينما كانت أوجيني ووالدتها مشغولتان بتزيين الغرفة التي خصصها السيد غراندي لاستقبال ابن أخيه قدر المستطاع ، كانت السيدة دي غراسان مشغولة بتفحص شارل .

– لابد وأنك شاب شجاع ، سيدي ، بما أنك تركت كل المتع التي تزخر بها العاصمة في الشتاء لتحل ضيفا على سومور . لكن ، إن لم نكن نُخيفك كثيرا ، فسترى أنه لا يزال بإمكاننا أن نستمتع ونقضي وقتا مرحا .

وحينها بَادرته بنظرة غرام ريفية بحق، أين تُكدّس النساء، عادة، الكثير من التحفظ والحذر في أعينهن لدرجة أنهن يُبلغن ويعبرن بذلك عن الشبق المحبّ الراغب الجامح، الذي غالبا ما تكتنز به أعين كهنة الكنيسة، الذين يَرون في كل شهوة أو متعة إما اختلاسًا أو إثمًا. شارل الذي أحس نفسه جد منعزلٍ في هذه الغرفة، بعيدًا عن كل التصورات وحياة الفخفخة التي كانَ يتخيل أن عمّه يعيشها، ارتأى عندما تفحص وجه السيدة دي غراسان، صورة شبه ممحية من الوجوه الباريسية. كان ردّه لطيفا على شبه الدعوة التي عرضتها عليه السيدة لتوها، ممّا جعله يدخل في حديث مع السيدة التي كانت تخفض صوتها تدريجيا ليتلاءم وطبيعة الأسرار التي تودعها إياه. ولذلك، بعدَ مدة من الحديث الذي يتخلله الكثير من الغنج والتدلل بالإضافة إلى الكثير من المزاح الجدّي، قالت الريفية البارعة دون أن تعلم أن الآخرين الذين كانوا يتحدثون عن مبيعات الخمور التي تشغل الآن كل فرد في سومور، سمعوها وهي تدعو شارل قائلة: سيدي، إن أردت أن تشرفنا بحضورك لرؤيتنا فسيسعد ذلك زوجي جتمًا تماما كما سيسعدني. فصالتنا هي الوحيدة في سومور التي تجمع أهم التجار والنبلاء: فنحن ننتمي لكلا الفريقين الذين يرفضان أن يلتقيا في مكان آخر غير بيتنا حيث يمكنهم أن يستمتعوا. كما يمكنني أن أقول بكل فخر أن زوجي ينتمي لكليهما، وبذلك سنحاول إنقاذ زيارتك هنا من أي ملل أو ضجر. ما الذي يمكن أن تصبحَ عليه إن أقمت كل هذه المدة عند السيد غراندي، يا إلهي! فعمك مجرد أقتر بخيل لا يفكر إلا في نقوده، وزوجته امرأة تقية ورعة لا يمكنها أن تخيط فكرتين لتصيغ جملة متسقة، وابنة عمك ليست سوى

بلهاء صغيرة بدون تعليم ، مجرد فتاة عادية ، بدون مهر ، تقضي كامل وقتها في رتق الملابس .

- يا لها من امرأة رائعة هذه السيدة ، فكّر شارل غراندي وهو يردّ على تغنج السيدة دي غراسان .

- يبدو لي يا زوجتي ، أنكِ تريدين أن تحتكري السيد لنفسك ، قال السيد دي غراسان وهو يضحك .

همهم السيد الموثق ورئيس المحكمة بضع كلمات خبيثة عند سماعهما لهذه الملاحظة ، أما السيد القس فرمقهما بنظرة نافذة البصيرة ، وقال وهو يقدم عارضا علبة السعوط على الحضور : ومن في سومور بإمكانه أن يعتني بطريقة مشرفة تليق بمقام السيد ، أفضل من السيدة؟

- آه ، أو تعني هذا فعليا سيدي القس؟ سأل السيد دي غراسان .

- أجل ، وذلك مع كامل اعتباري لكَ ، وللسيدة ، ولمدينة سومور ، وللسيد ، قال الداهية العجوز وهو يستدير نحو شارل .

دون أن يعير القس أي اهتمام للحديث الذي دار بين شارل والسيدة دي غراسان ، يبدو أنه كان قد تمكن من استيعاب فحواه .

- سيدي ، سأل آدولف شارل بنبرة أرادها متحررة من أي انفعال ، لا أدري إن كنت قد احتفظت في ذاكرتك بأي ذكرى عني ، لقد كان لي الشرف أن ألتقي بك من قبل خلال الحفل الراقص الذي نظمه البارون نوسينجين . . .

- تماما ، تمامًا ردّ شارل متفاجئا بكونه قد أصبح محط اهتمام الجميع الآن .

- هل السيد هو ابنكِ ، سيدتي؟ سأل شارل السيدة دي غراسان .

- أجل ، سيدي . قالت .

- لقد كنتَ شابًا إذن حين قَدمتَ إلى باريس؟ سأل شارل آدولف .

- وما الذي بإمكاننا فعله يا سيدي ، قال القس ، فنحن نرسلهم إلى بابيلون بمجرد أن يُفْطَموا .

- يتحتم عليكَ القدوم إلى الريف حتى تجد سيدات في الثلاثينات من عمرهن وهن لا يزلن يانعات مثل سيدتي . فرغم أنها قد أنجبت شابا سيتخرج قريبا من كلية الحقوق إلا أنها لا تزال تُحافظ على شبابها . إني لا أزال أذكر جيدًا الأيام التي تبدو قريبة وكأنها كانت البارحة حيث كان الشباب والشابات يتهافتون وهم يصعدون على الكراسي لرؤيتكِ ترقصين في الحفلات الراقصة ، سيدتي . قال القس وهو يستدير مجددا نحو منافسته الأنثى . بالنسبة لي ، نجاحاتك تبدو وكأنها بالأمس القريب . . .

- أوه ، الآثم العجوز! أوَ تمكّن من تخمين خطتي؟ تساءلت السيدة دي غراسان في نفسها .

- يبدو أنني سأحقق نجاحات مهمة في سومور ، فكر شارل وهو يفكك أزرار معطف سفره ، ويضع يده في جيب صَدّاره ، وهو يرمي نظره بعيدا وكأنه يقلد جلسَة اللورد بايرون التي رسمها شانتريه .

لم يكن للموثق والرئيس ألا ينتبها لعدم انتباه السيد غراندي ، أو بالأحرى انغماسه التام في قراءة الرسالة التي جاءته ، وحاولا أن يُخمنا مضمونها من خلال الانطباعات المنعكسة على وجه السيد غراندي الذي كان الشمعدان يضيئه حينها . فبالكاد كان البخيل يتماسك ليتظاهر بهدوئه المعتاد آنذاك . وبإمكان أي كان أن يتخيل

شكله وهو يقرأ تلكَ الرسالة العجيبة التي وصلته :

«أخي ، هاهي ذي ثلاث وعشرون سنة انقضت على آخر مرة تقابلنا فيها خلال حفل زواجي ، وقد افترقنا بعدَها وكلانا سعيد . بالطبع لم يكن باستطاعتي حينها أن أتخيل أو أتكهن بأنكَ يومًا ما ستكون سندي الوحيد المتبقي في العائلة . في الوقت الذي تُمسك فيه هذه الرسالة بينَ يديك ، لن يعود لي وُجودٌ . فنظرا للوضعية التي كنتُ أحظى بها ، أنا لا أريد أن أعيشَ عارَ الإفلاس . لقد تماسكت حتى آخر رمق ، حتى آخر لحظة ، متمنيًا أن أطفو على هذا الكابوس . لكن يتحتم عليّ الآن أن أتداعى وأسقط . الإفلاسات الخاصة بصرّافي ، وبموثقي روغان تنال من آخر مواردي ولا تترك لي شيئا . يؤلمني أن ديني يصل إلى حوالي أربعة ملايين دون أن أتمكن من دفع أكثر من خمسة وعشرين بالمائة من الأصول . كما وتُعاني خموري المخزنة من انخفاض مؤد إلى الإفلاس بسبب كثرة وجودَة خموركَ أنتَ . خلال ثلاثة أيام ، ستقول باريس : «السيد غراندي كان مخادعًا!» . سأنام أنا النزيه الصافي ، في كفَن من الخزي والعار . أنا أفكر بابني وباسمه الذي لطختُه ، وبثروة أمه . هوَ لا يعلم شيئا عن كلّ هذا ، ذاك الطفل التعيس الذي أعشقه حدّ العبادة . لقد وَدعنا بعضنا البعض بكل حنان وقد كان يجهل ، لحسن الحظ ، أن آخر موجات حياتي كانت تتدفق إليه خلال ذلك الوداع . ألن يلعنني يومًا ما؟ أخي ، يا أخي ، إن لعنة أطفالنا لنا ودعواتهم الشريرة علينا لأمر رهيب . غراندي ، أنت أخي الأكبر ، عليكَ أن تحميني : احرص على ألا يُلقي شارل أي كلمات مريرة على قبري! أخي ، حتى لو كتبتُ لكَ رسالَة بدمائي ودموعي ، فإنها لن تحملَ بينَ طيّاتها أسى وألما بقدر ما تحمله هذه

الرسالة بين يديك ، لأني سوف أبكي ، وسوف أنزف ، وسوف أموت ، ولن أتعذَب بعدَها ، لكني الآن أتعذب وأرى الموتَ بعين جافة مجردة . ها أنت ذا أبًا لشارل . فهو لا يَملك أي أقارب من جهة والدته ، أنتَ تعلم لماذا . لماذا لم أرضخ للأحكام الاجتماعية؟ لماذا استسلمتُ وانقدت للحب؟ لماذا تزوجت الابنة الطبيعية لسيد إقطاعي عظيم؟ لم تَعُد لشارل عائلة . أوه يا لابني التعيس! ابني! اسمعني غراندي ، أنا لم آتِ لأتضرع إليكَ من أجلي أنا ، كما أني لا أعرف إن كانت ممتلكاتك وأموالك قد تفي بالغرض لتغطي ضمانًا بقيمة ثلاثة ملايين تُمنح للدائنين . ولكن ، أنا أتضرعَ إليك من أجل ابني! فلتعلم جيدا يا أخي ، أن يدايَ اجتمعتا لتتوسلا إليك . غراندي ، أنا أعهَدُ إليكَ بشارل عندَ موتي . في الحقيقة ، أنا أشاهدُ مسدساتي دون ألم عندمَا أفكر أنكَ ستكون بمثابة أبيه . شارل كان يحبني كثيرا ، فقد كنت أعامله بطريقة حسنة ، ولم أكن أعارضه البتة ، وبالتالي هو لن يلعنني ولن يدعو عليَّ . علاوة على ذلك فسترى بنفسك كم هو حنون عطوف ، هو يستمد هذا من والدته ، ولن يتسبب لك بأي أسى أبدًا . يا للطفل المسكين! المعتاد على المُتع الغالية النفيسة ، هو لا يعرف أبدًا ذلك الحرمانَ الذي عانيتُ منه أنا وأنتَ في بداياتنا . وهاهو ذا مُفلسٌ ووحيد . أجل ، كل أصدقائه سيتهربون منه ، وسأكون أنا السبب وراء كل الذل الذي سيتعرض له . آه ، يا ليتني كنت أملكُ قبضة يد قوية بما يكفي لأضربه ضربة ترفعه بجوار أمّه الميتة في السماوات! يا للجنون! هاأنذا أعود لهمّي ، لهمّ شارل . لقد أرسلته إليكَ لتُعْلِمَه كما يجب عن موتي وعن مصيره المستقبلي . كُن أبًا له ، لكن احرص على أن تكون أبًا طيبا . لا تستأصله وتنتزعه بجفاء

وخشونة من الحياة التي اعتادها ، فسوف يقتله تغيير مفاجئ كهذا .
وأنا أطلب منه ، جاثيا على ركبتي متضرعا أن يتخلى عن المطالبة بحقوقه ضدي بصفته وريثا لثروة والدته . لكنها دعوَة سطحية لا جدوى منها ، فأنا أعلم أنه شريف كريم النفس ، وأنه سيعلمُ أنه من المخزي له أن ينضم إلى الدائنين . اجعله يتخلى عن تركاتي في الوقت المناسب . أعلِمهُ بظروف الحياة الصعبة التي أنا بصدد رميه إليها . وإن احتفظ بقليل من الحب والحنان لي ، فأخبره نيابة عني أنه لم يخسَر كل شيء . أجل ، فالعمَل الذي أنقذني أنا وأنتَ يا غراندي ، العمل الجاد والشاق يستطيع أن يعيد إليه ثروته التي أنا بصدد أخذها منه الآن . وإن أرادَ أن يأخذ برأي والده ، الذي يريد أن يخرج يومًا ما من قبره لأجله ، فليرحل ، فليذهب إلى الهند! أخي ، إن شارل شاب نزيه وشجاع : إن أنتَ أقرضته بعض المال ، فسوفَ يُفضل أن يموت على ألا يُرجع إليكَ أموالك التي أقرضته إياها ، أجل يا غراندي سوف تقرضه بعض المال! وإلا فسوْف تتسبب في حسرتي . آه ، إن لم يجد ابني عندَك العونَ والحنان ، فإني أسأل الرب أن ينتقم منكَ أبديا جزاء جفائك وخشونتك . إن كان بإمكاني أن أخبئ له أي شيء ذا قيمة ما ، لكنتُ قد تمكنت من إعطائه بعض الحقوق من تركات والدته ، إلا أنني اضطررت في آخر الشهر لتسديد مستحقات استنفذت كل مواردي .

لم أكن أريدُ أن أموتَ وأنا لستُ على يقين مما ينتظر طفلي ، كان بودي أن أستشعر عهودا مقدسة في يديك الدافئتين ، وكان ذلك ليدفئ قلبي ، لكن الوقت يُداهمني . فبينما يكون شارل مسافرا في طريقه إليك ، أكون أنا بصدد إعداد ميزانيتي . سأحرص على ألا يكونَ هناك أي شائبة أو خطأ . أليسَ هذا في حد ذاته

اهتمامًا مني بشارل؟ وداعًا ، أخي . فليباركك الربّ ببركاته أجمعَ جزاءَ هذه الوصاية الكريمة التي أعهدها إليك ، والتي سَتَقْبَلُها بدون شك . سيكون هناك دومًا صوتٌ يدعو لكَ في العالم الذي ينتهي بنا الأمر إليه جميعًا في نهاية المطاف ، وأينَ أوجدُ أنا الآن .

فيكتور أونج غيوم غراندي .

- أو تتحدثون إذن؟ سألَ السيد غراندي وهو يطوي الرسالة بشكل مطابق لطياتها السابقة ، واضعًا إياها في جيبِ صدّاره . وألقى على ابن أخيه نظرة ملؤها التواضع والخشية ، مخفيًا في أعماقها مشاعره وحساباته .

- آه ، إذن ، أينَ هنّ نساؤنا؟ سأل العمّ الذي نسيَ أن ابن أخيه سيقضي الليل عنده .

في تلكَ اللحظة ، دخلت أوجيني ووالدتها للصالة .

- هل كلّ شيء مرتب ومجهز فوق؟ سأل البخيل الذي استعاد هدوءه .

- أجل ، أبي .

- حسن إذن ، يا ابن أخي ، إن كنت مرهقا بإمكانك أن تطلب من نانو أن تصطحبك إلى غرفتك . ولكن عليك أن تعذر الكرّامين الفقراء الذين لا يملكون فلسًا أبدًا ، فالضرائب تبتلع نقودنا .

- نحن لا نرغب في أن نكون كالمتطفلين ، سيد غراندي ، سوف نتركُ لكَ المجال لتتحدث مع ابن أخيك في كامل راحتك ، نتمنى لكم جميعًا ليلة سعيدة ، نراكم غدًا .

وبهذا ، قام المجتمعون وألقى كل منهم تحيته حسبَ شخصيته . ذهب الموثق العجوز يبحث عن مصباحه تحت الباب ، وأوقدَه عارضًا

على آل دي غراسان أن يصطحبهم . لم تحسب السيدة دي غراسان حسابَ الحدث الذي خلطَ أوراقها في نهاية السهرة ، وبذلك لم يحضر خادمها .

- هلّا أردتِ أن تشرفيني وتتشبثي بذراعي سيدتي؟ اقترح القس على السيدة دي غراسان .

- شكرًا لك سيدي القس ، لديَ ابني ليصحبني . ردّت السيدة بجفاف .

- السيدات لا يخاطرن بأنفسهن أبدًا معي ، قال القس .

- هيا ، فلتتشبثي بذراعه ، قالَ لها زوجها .

قَاد القسُ السيدةَ الجميلة بخفة مستبقا القافلة النازلة ببضع خطوات .

- إنه لفتى رائع ، سيدتي ، هذا الشاب الذي حضر مساءَ اليوم . *وداعًا ، أيتها السلال ، فجني الثمار قد تم!* أعتقد أنه من الأجدر بك أن تودعي الآنسة غراندي ، فستكون من حظ الباريسي . إلا في حالة ما إذا كان مولهًا بباريسية ما . فالباريسي سيكون منافسًا صعب المراس بالنسبة لابنك آدولف . . .

- لا تقلق ، سيدي القس . فلن يمر زمن طويل حتى يرى الشاب أن أوجيني فتاة بلهاء ، وأنها غير ناعمة أو لطيفة . ألم تلاحظها هذا المساء؟ لقد كانت صفراء كحبة ليمون .

- أعتقد أنك أخبرته وشاركته ملاحظتك هذه؟

- ودون أن أخجل حتى من ذلك . . .

- يكفيك أن تكوني دومًا بجانب أوجيني ، سيدتي ، ولن تضطري لأن تهمسي أشياء شنيعة عنها في أذن ابن عمها ، فسيتكفل بنفسه بالمقارنة . . .

- هوَ أصلا كان قد وعَدني بأن يحل ضيفا علينا على العشاء بعد غد .

- آه ، إن أردت ، سيدتي ، قال القس .

- وما الذي تريدني أن أريدَ ، سيدي القس؟ هل تريد بذلك أن تعطيني نصائح فاسدة؟ أنا لم أبلغِ سنَ التاسعة والثلاثين بسُمعَة لم تمسسها شائبة ، والحمد للرب ، لكي أفسدها وأشوهها ، حتى ولو تعلق الأمر بعرش الإمبراطورية المغولية نفسها . لقد بلغنا من العمر ما يكفي ، أنا وأنت ، لنعي ما الذي يعنيه حديثك . وبالنسبة لرجل دين ، فإنكَ في الحقيقة تملك أفكارًا غير مناسبة البتة . تبًا .

أعقب القس ضاحكًا : لكنَك تعاملينني تماما وكأنني أحد شباب اليوم المنحرفين! كل ما أردته هو ببساطة أن . . .

- هل تجرؤ وتنكر أنكَ أردت أن تسدي لي نصائح خبيثة؟ أليسَ ذلك واضحًا كفاية؟ أعلم أنه بإمكاني أن أضمن مستقبل ابني إن أنا سمحت لهذا الشاب الرائع حقيقةَ ، أن يغويني ويستهويني ، وبذلك فإنه لن يفكر بابنة عمّه مجددًا . أعلَم أن العديد من الأمهات في باريس يُضحين بأنفسهن بهذه الطريقة من أجل مصالح أبنائهن : إلا أننا في الريف ، سيدي القس . فلا أنا ولا آدولف نُريدُ أن نحظى بمائة مليون فرنك مُقابلَ الثمن الباهظ الذي سندفعه . . .

- سيدتي ، أنا لم أذكر أبدًا المائة مليون ، ربّما كان الإغواء أعتى وأقوى من قوانَا ، كلانَا . إلا أنني ببساطة أعتقد أنه بإمكان امرأة صادقة مستقيمة أن تسمَح لنفسها ، بكلّ شرَف ، أن تتدلل وتُغوي إغواءات لن تكون لها نتائج كارثية ، وهذا يُعتبَر من واجباتها في المجتمع ، والتي . . .

– أوَ تعتقدُ ذلك؟

– أليسَ من واجبنا ، سيدتي ، أن نعملَ على أن نظهرَ بمظهر حسن وأن نكون لطفاء مع بعضنا البعض . . . اسمحي لي أن أمسح أنفي من المخاط . . . أؤكدُ لكِ سيدتي ، أنه كان ينظر إليكِ نظرة أكثر نُعومةً من تلك التي كانَ ينظر بها لي . إلا أني أعذرُه لَكونه فضّل واصطفى الجَمال على الشيخوخة . . .

– من الواضح ، كان رئيس المحكمة يقول بصوت خشن ، أن السيد غراندي الباريسي إنّما أرسلَ ابنه إلى سومور بنية الزواج . . .

– ولكن ، ما الذي دَفع الشاب بأن يحل على عمّه وكأنه قنبلة مباغتة قُذفت ببيته؟ ردّ الموثق .

– عزيزي ، دي غراسان ، لقد دَعوتُ الشابَ على العشاء . عليكَ أن تذهب لتدعو السيد والسيدة دي لارسونيير ، وآل هوتوي دون أن تنسى الآنسة هوتوي الحسناء طبعًا ، ليتها تتزين جيدًا ذاك المساءَ . إن أمها من شدة غيرتها منها لا تُلبسها إلا البالي من الثياب ، قالت السيدة دي غراسان . ثم أضافت بعد أن استدارت نحو آل كروشو : وأتمنى كذلك أيها السادةَ أن تشرفونا بحضوركم .

وبعد أن حيّا آل كروشو آل دي غراسان ، استداروا واتجهوا نحو منزلهم ، مستعينين بتلك الموهبة التحليلية التي يتملكها سُكان الريف وذلك ليدرسوا من جميع النواحي أحداث هذه الأمسية التي قلبت الموازين وغيّرت مراتب آل كروشو وآل دي غراسان . وقد أشْعَرهم دهاؤهم أنه باتَ من الضروري أن يوحّد هؤلاء الأعداء قواهم وذلك في سبيل الإطاحة بالعدوّ المشترك الدخيل . أولم يصبح من الواجب عليهم جميعا أن يحولوا دونَ أن تقع أوجيني في شراكِ حبّ ابن عمّها ، وأن يمنعوا ابن عمّها من التفكير بها؟ أوَ

سيتمكّن الباريسي من مقاومة التلميحات الغدّارة ، والنمائم الحلوة غير الشهية ، والغيبة المحفوفة بالثناء ، وبالتكذيبات الساذجة التي ستدور حوله بشكل دائم وتلتصق به تماما كما يَلفّ النحلُ الحَلزونَ الواقع في خليتهم بالشمع؟

وعندمَا انفرد الأقارِب الأربعة في الصالة أخيرًا ، قال السيد غراندي لابن أخيه : علينَا أن نذهب جميعنا للنوم ، فالوقت متأخر ولا يسمح لنا بمناقشة الأمور التي جاءت بكَ إلى هنا ، سنجدُ غدًا وقتًا مناسبًا لذلك . هنا نفطر على الثامنة صباحًا . وعند الظهيرة ، نتناول فاكهة ما ، قليلا من الخبز ، ونشرب كأسًا من النبيذ الأبيض ، ثم نتناول العشاء ، مثلَ الباريسيين على الخامسة مساءً . هذا هو النظام . إذا أردت أن تطّلع على الناس أو الطبيعة هنا ، فتأكد أنكَ حر في تحركاتكَ كالريح تمامًا . ستعذرني على عدم اصطحابكَ لأني غالبًا ما أكونُ مشغولا بأعمالي . ستَسمع أقاويل كثيرة هنا وهناك تترددُ عن كوني ثريًا . أنا أدعهُم يقولون ما يحلو لهم ، فأقاويلهم لا تؤذيني البتّة . لكني لا أملك تلك النقود التي يتحدثون عنها ، في عمري هذا أنا لا أزال أكد وأعمل تمامًا كمزارع شاب لا يملك إلا أرضا يزرعها ويدين قويتين . ربما سترى بنفسك عمّا قريب ما الذي يُكلّفك إياه فلس واحد من عرق جبينك . هيّا ، أين هي الشمعدانات يا نانو؟

– أتمنى يا ابن أخي أن تَجد هنا كلّ ما أنت في حاجة إليه ، قالت السيدة غراندي ، لكن إن نقصك شيء أو احتجت لأي شيء فبإمكانك أن تنادي نانو .

– عمّتي العزيزة ، لا أعتقد أني سأحتاج لأي شيء ، فقد أحضرت معي كما أعتقد كلّ ما أنا في حاجة إليه . فلتسمحي لي

بأن أتمنى لك ليلة طيبة ، لكِ ولابنة عمّي الشابة .

أخذ شارل من يدَي نانو البوجيه (نوع فاخر من الشمع) ولأن السيد غراندي كان أبعد ما يكون من أن يشك في وجوده في منزله ، لم ينتبه لهذا التفصيل . وتبعَ عمّه الذي اصطحبه لغرفته .

ذهبت نانو لتغلق الباب الكبير ، وحرّرَت الكلبَ من مخبئه . هذا الحيوان المعروفُ بوحشيته لم يكُن يعرفُ سوى نانو . بمجرد أن رأى شارل الجدران المصفرّة والمسودّة بالدخان ، وأحسّ بهزهزة السلالم تحت وقع أقدام عمّه ، فإن كلّ وهمه عن عمّه كان قد زال . بدا له الأمر وكأنه محبوس في خمّ دجاج . وحين استدار نحو عمّته وابنة عمه متسائلا باحثا في وجهيهما عن إجابة لكلّ ما يدور بخلده ، وجدَ أنهما كانتا معتادتين على هذه السلالم . ولأنهما لم تفهما المغزى من وراء نظرته الحائرة تلكَ ، فإنهما اكتفتا بابتسامة رقيقة مما جعله يشعر بالأسى . - ما الذي كان يفكر به أبي حين دفعني للقدوم إلى هذا المكان بحق الجحيم؟ تساءل في نفسه . عند وصولهم للطابق الأول ، رأى ثلاثة أبواب بدون أطُر ، أبواب تكادُ تُفقد تحت أكوام الغبار المتكدس على الجدران حولها . إحدى هذه الأبواب التي كانت أعلى الدرج والتي كانت تُفتح على غرفة متموضعة فوق المطبخ كانت في الحقيقة مُحَوّطة ، حيث لم يَكُن من الممكن الدخول إليها إلا عن طريق غرفة السيد غراندي ، الذي كان يعدّها بمثابة مكتب . وكان المنفذ الوحيد الذي يسمح بدخول ضوء الشمس لهذه الغرفة محوّطا ومغلقا بقضبان حديدية ضخمة . لم يكن يُسمَحُ لأحد بالدخول لهذه الغرفة ، حتى السيدة غراندي نفسها ، فالسيد غراندي كان يحبذ أن ينفرد بنفسه بها تمامًا كما ينفرد الخيميائي أمام فرنه . من دون شك كانت هذه الغرفة بمثابة

مخبأ مُخطط له بمهارة ، هنا كانت تخزن عقود الملكية ، وكانت تتراكم موازين الذهب ، هنا كانت تُعد الإيصالات والحسابات ليلا وفي سرية تامَة . هنا ، وبدون شك ، عندما كانت نانو تشخر في نومها بطريقة ترعد السلالم ، وحين كان الكلبُ يحرس خارجا في الفناء ، وبينما السيدة والآنسة غراندي تغطان في نوم عميق ، كان السيد غراندي يتسلل إلى مكتبه ، ليُدلّل ، وَيُدلّعَ ويُداعبَ قطعه الذهبية ، ويحيطها بعنايته . كانت جدران الغرفة غليظة سميكة . هو وحدَه من كان يملك مفاتيحها .

أمّا باب غرفة أوجيني فكان يقابل باب هذه الغرفة تمامًا . ثم ، وعندَ نهاية الرواق وُجد الباب الذي يؤدي إلى مسكن الزوجين والذي يغطي مساحة معتبرة من مقدمة البيت . فغرفة السيدة غراندي كانت متصلة بغرفة أوجيني بواسطة باب زجاجي . أما غرفة السيد فقد كانت منفصلة عن غرفة زوجته بواسطة حاجز فاصل ، وعن مكتبه بواسطة جدار ضخم . كان السيد غراندي قد خصص لابن أخيه غرفة في الطابق الثاني ، في السقيفة المتموضعة تماما فوق غرفته ، وذلك ليتمكن من سماع تحركاته إذا ما خطر بباله أن يتجول هنا وهناك . عندما وصلت أوجيني وأمها إلى منتصف الرواق ، قبلت إحداهما الأخرى قبلة المساء ، وبعدها ودعتا شارل بكلمات ربما بدت باردة على الشفاه ، إلا أنها كانت حارّة في قلب أوجيني .

– هاهي ذي غرفتك يا ابن أخي ، قال السيد غراندي لشارل وهو يفتح له الباب . إذا احتجت أن تخرج فما عليك إلا أن تنادي نانو ، لأنه من دون رفقتها ، فإن الكلب سينهش عظامك دون أن ينبس ببنت شفة . فلتنم جيدًا ، عمت مساءً .

وقف شارل متعجبا وسط أمتعته . وألقى نظرة على جدران هذه الغرفة ذات السقيفة المغلفة بورق أصفر مزركش بباقات الزهور وهو عادة ورق يكسو الحانات الريفية ، وعلى المدفأة الحجرية التي تنقل إليك إحساسا بالبرد بمجرد أن تقع عيناك عليها وجلسَ على السرير الذي بدت أعمدته وكأنها ترتجف لتسقط قريبا .

حينها نظر شارل بجدية إلى نانو وقال لها : يا إلهي! هل أنا فعلا في ضيافة السيد غراندي ، رئيس البلدية السابق لسومور ، وأخ السيد غراندي الباريسي؟

- نعم سيدي ، أنت في ضيافة رجُل مُحِب ، وعطوف ، ومثالي . هل عليّ أن أساعدَك في ترتيب متاعك؟

- خذي ، ابحثي لي عن الروب دو شامبر الخاصة بي في تلك الحقيبة ، هاهو المفتاح .

وقفت نانو باهتة حينما رأت الروب دو شامبر المصنوعة بالحرير الأخضر والمزينة بأزهار ذهبية .

- هل سترتدي هذا لتنام؟

-أجل .

- يا مريم العذراء! ولكن يا عزيزي السيد الوسيم ، فلتهدِ هذه للكنيسة ، فستنقذ روحك ، بينما لبسك إياها ستفقدك إياها . أوه ، كم أنك تبدو وسيما وجميلا هكذا ، سوف أنادي آنستي حتى تراكَ .

- هيّا نانو ، هلا صمتٍّ من فضلكِ؟ فلتدعيني أنام ، سوف أوضب حاجياتي في الغد ، وإذا كانت الروب دو شامبر قد أعجبتك لهذه الدرجة ، فسأتركها لكِ عندَ مغادرتي لأني مسيحي طيب لن أبخل عليكِ بها ، وبإمكانك حينها أن تفعلي بها ما يحلو لك .

وقفت نانو بلا حراكٍ ، تتأمل شارل ، غير مصدقة لما يقول .

- يُعطيني هذا الكنز الجميل ، قالت نانو وهي تخرج من الغرفة ، السيد الصغير بدأ يحلم ، عمت مساءً .

- عمتِ مساءً ، نانو .

- ما الذي أفعلُ هنا؟ قال شارل محدثا نفسه . والدي ليسَ أبلها ، لا بدّ وأن يكون هناك هدف يريد الوصول إليه من وراء سفري هذا . أف ، *فلنؤجّل التفكير في الأمور الجدية إلى الغد* ، كانت تقول إحدى الغبيات الإغريقيات التي لم أعد أذكرها حتى .

- يا للعذراء المقدسة! يا له من رجل لطيف ، ابن عمّي ، قالت أوجيني مقاطعَة صلواتها المسائية التي لم تُنهها هذا المساء .

بينما لم تفكر السيدة غراندي في شيء قبلَ أن تخلد للنوم سمعت من خلال الباب الذي يفصل غرفتها عن غرفة زوجها وقع خطوات البخيل وهو يتردد جيئة وذهابًا في غرفته . مثلها مثل جميع النساء الخجولات ، كانت قد درست شخصية سيدها . وتمامًا كطائر الزمّج الذي يتوقع حدوث إعصار ، كانت هي أيضا بفضل إشارات عدة غير محسوسة ، قد أحسّت بالزوابع التي تهزّ دواخل زوجها ، وكانت تدّعي الموت (النوم) .

كان غراندي ينظر للباب المُحصّن الذي يغلق مكتبه بقفلين داخليين ، ويقول في نفسه : أي فكرة غريبة خطرت ببال أخي حتى يعهد بابنه إليّ؟ إرث جميل! أنا لا أملك عشرين فلسًا أقدمها له . لكن ما هي عشرون فلسا بالنسبة لهذا الشاب المدلل؟

من الأرجح أن غراندي كان أكثر تألما وحسرة وارتباكًا ، وهو يفكر في نتائج هذه الوصية المؤلمة اللعينة ، من ارتباك وهلع أخيه وهو يخطها له .

- أوَ سأحظى بذاك الثوب الذهبي؟ كانت تتساءل نانو التي كانت ملفوفة بملابسها الرثة وهي تحلم بالزهور والإستبرق لأول مرة في حياتها تماما كما كانت أوجيني تحلم بالحبّ .

خلال الحياة الطاهرة الروتينية والمُضجرة للفتيات الشابات ، يحدث أن تصلَ ساعةٌ لذيذة تسطَع فيها أشعة الشمس على أرواحهنَ ، وتُعبّر لهنّ فيها الأزهار عن أفكار عذبة ، وتُحدّث حينها خفقاتُ القلبِ عقلَ الفتاة عن مدى خصوبة قلبها ، وتُذيبُ الأفكارَ وتصبّها في رغبة مُبهمَة . إنه يوم الأسى البريء والسعادة الشهية . عندما يرى الأطفال لأوّل مرة ، فإنهم يبتسمون ، وحين تُدركُ الفتاة الشُعور وتتلمّسه في الطبيعة ، تبتسمُ تماما كما كانت تبتسم في طفولتها الأولى . فإذا كانت أشعة الضوء هي أول حبّ لنا بالحياة ، أولا يُعَدّ الحبُ بمثابة نورٍ وضياء القلب؟ آن إذن لأوجيني أن ترى الأمور بشكل أوضح ، من هنا فصاعدًا .

وبما أنها فتاة تستيقظ باكرًا مثلها مثل جميع فتيات الريف ، فإنها استيقظت باكرا ، وتلت صلواتها ، وبدأت في تزيين نفسها ، وهي مهمّة سيكون لها معنى وهدف منذ ذلك الحين . بدأت أولا بفتل ضفائرها الذهبية الكبيرة فوقَ رأسها بكل عناية ، حريصة على أن تبقى كل شعرة في مكانها ، وخلقت توافقا في قصتها مما أظهر البراءة الخجولة التي تكسو ملامح وجهها . وبعدَ أن غسلت يديها عدّة مرات في الماء النقي الذي جعلَ بشرتها تحمرّ وتصبحُ أكثر صلابة ، نظرت إلى ذراعيها المستديرين وتساءلت عمّا يفعله ابن عمّها حتى يتحصل على بياض يديه الناصع ، وعلى أظافر مقلّمة مِثالية . وارتدت حينها جوارب جديدة ، وأحسن ما تملك من الأحذيةَ . ثم تحزّمت . وأخيرا ، تمنّت لأول مرة في حياتها أن تبدو

جميلة ، ولحسن حظها فإنها كانت تملك ثوبا جميلا ناعمًا متأنقا ، جعلها تبدو جذابة . وعندما انتهت من التزيين ، سمعت جرس ساعة الكنيسة يدق معلنا عن الساعة السابعة ، فتعجبت . حيث أن رغبتها في أن تحصل على متسع من الوقت للتزين جعلها تستيقظ باكرًا أكثر من اللازم ، وبذلك جلست مكتوفة الأيدي على حافة النافذة ، تتأمل الفناء ، والحديقة الضيقة التي تعتليها الشرفات من كل جانب ، وهي نظرة مأساوية ضيقة إلا أنها لم تكن تخلو من جمال غامض خاص بالأماكن المنفردة أو الطبيعة البور . بجانب المطبخ وُجدَ بئر مُحاط بالخرزات ، وبكرة مثبتة بغصن حديدي منحن ، يداعب شجرة الكرَم التي تتدلى عناقيدها الذابلة والمحمرة بسبب الفصل . من هنا كانت أوراقها وأغصانها المتشابكة تتسلقُ مغطية جدار المنزل لينتهي بها الأمر في مَحطبة المنزل ، أين رُصّ الحطب ورُتب بطريقة جد منظمة تمامًا كما يُرتب القارئ الشغوف كتبه في مكتبته . أما أرضية الفناء فقد كانت بها مسحات سوداء تكونت مع الزمن بسبب تحركات وانتشار الأشنة وبعض الحشائش . كل الجدران الضخمة كانت تستعرض ألبستها الخضراء المبقعة بتلك المسحات البنية . وأخيرا ، كانت الدرجات الثمانية المتموضعة في آخر الحديقة والمؤدية إلى بابها الكبير منفصلة ومدفونة تحت أكوام النباتات العالية تماما كمَا كان قبرُ الفارس المدفون من طرف أرملته زمنَ الحروب الصليبية . واعتلت المقاعد الحجرية المرصوصة حاجزًا خشبيًا مشبّكًا ، تهرأ نصفه وتزاوج نصفه الآخر مع نباتات متسلقة . على كل جانب من الباب ، كانت هناك شجرة تفاح نحيلة . ثلاث ممرات متوازية ، رملية ومنفصلة بواسطة مربعات من الأرض تُكوّن أرضية الحديقة التي

تنتهي ، في النهاية بمجموعة من أشجار الزيزفون ، على حافتها وُجدَت شجيرات توت العلّيق ، وشجرة جوز تدلّت أغصانها حتى مكتب السيد غراندي . كان يوما صافيا ، بشمس خريفية جميلة ، داعبت أشعتها الجدران والنباتات التي زينت هذه الحديقة وهذا الفناء . افتتنت أوجيني بالجانب الحي الجديد الذي وَجدته من خلال نظرتها الجديدة للأشياء التي كانت تبدو لها اعتيادية فيما سبق . في تلك الأحيان ، وُلدَت مئات الأفكار المضطربة في نفسها ، وتزايدت شيئا فشيئا بتزايُد أشعة الشمس في الخارج . وأخيرا رمقتها موجة من المتعة المبهمة التي تُحيط بالكينونة الفكرية تماما كما تفعل بالكينونة الجسدية . توافقت أفكارها حينها وانسجمت مع تفاصيل هذا المنظر الفريد ، وتجانست دقات قلبها معَ الطبيعة . حين لامست أشعة الشمس نهاية الحائط الذي امتدت على طوله الأوراق الخشنة للنبات المدعو بـ«شُعيرات فينوس» ذات الألوان المتغيرة تماما مثل حلق الحمام ، بدا الأمر وكأن أشعَة سماوية من الأمل أنارَت المستقبل من أجل أوجيني ، التي منذ ذلك الحين أصبحت تستمتع بمشاهدة نهاية الحائط تلكَ ، بأزهاره الشاحبة ، وجلاجله الزرقاء ، وأعشابه الذاوية ، والتي اختلطت بمُجمعها ذكرى لطيفة تمامًا كذكريات الطفولة . كلّ صوت كان يصدر عن إحدى الأوراق في هذا الفناء الجهوريّ وهي تنفصل عن غُصينها كانَ يُقدّم إجابات للتساؤلات السرية التي تدور في نفس أوجيني التي كانت لتبقى جالسة هناك طول اليوم دون أن تنتبه للسويعات المنفلتة من الزمن . ثم حان دورُ اهتزازات روحها الصاخبة . فنهضت من مكانها ذاك وجلست أمام المرآة مراقبة انعكاسها بها تماما كما يراقب كاتب نزيه عملَه حتى ينقد ذاته ، ويشتم نفسه بنفسه .

«أنا لستُ جميلة كفاية بالنسبة لشخص مثله» هكذا فكرت أوجيني أفكارًا متواضعة خصبة بالآلام . لم تكن الفتاة المسكينة محقة أو عادلة بحق نفسها ، إلا أن التواضع ، أو فلنسمي هذا بالخشية والخوف ، تُعدّ من أوائل فضائل الحب .

كان لأوجيني رأس كبير ، وجبهة ذكرية لكنها ناعمة تشبه جبهة جوبيتير دو فيدياس . وعينان رماديتان بصمَت عليهما حياتها العفيفة نورًا منبعثا . وجهها المستدير الذي كان فيما سبقَ ناعمًا ووردیا شوّه الزهري ملامحه : فبالرغم من أن كل آثاره قد زالت إلا أنه كان قد أفسد مخملية بشرتها التي لا تزال بالرغم من كل شيء ناعمة لدرجة أن قبلة أمها النقية على خدها تترُك عليها أثرا أحمرًا خفيفا . أنفها كان كبيرا نوعا ما لكنه كان يتناغم وفمها الصغير الأحمر كَرابع الأكسيد . رقبتها كانت مستديرة بطريقة مثالية . أما صدريتها فكانت منتفخة مقوسة ومحجوبة عن الأعين بعناية ، كانت تجذب الانتباه وتبعث تصورات لطيفة في المخيلة . أوجيني ضخمة وقوية البنية ، لم تكن تملك أية جماليات تُعجب الجموع ، لكنها كانت تحظى بذلك الجمال الذي يسهُل التعرف عليه ، والذي لا يولَه به إلا الفنانون .

ذلك الفنان الذي يبحَث عن جمال ملائكي مكتنز بالصفاء السماوي كالذي تحظى به مريم العذراء ، ولا يطلب من الطبيعة الأنثوية غير عينين فخورتين بتواضع كاللواتي يكتشفهن رافائيل ، أو تلك الخطوط العذراء التي تُهديها الطبيعة في البداية ووَحدها حياة مسيحية وعفيفة بإمكانها أن تحافظ على تلك المسحة أو تخلقها ، فنانٌ موله بموديل نادر كهذا ، كان ليجد غايته بمجرد أن تقع عيناه على أوجيني ، كان ليجد تلك النبالة الطبيعية التي تجهَلُ ذاتها ،

كان ليرى تحت جبينها جِدِّ الهادئِ عالمًا من الحب ، وفي قصّة وشكل عينيها شيئا ربانيًا لا يمكنُ إدراكه . كانت أوجيني حينها تقول وهي تنظر لانعكاسها في المرآة ، دون أن تعرف ما هو الحب : إني جد بشعة لدرجة أنه لن يلاحظني حتى .

ثم فتحت باب غرفتها الذي يؤدي إلى السلالم ، وأطلقت العنان لآذانها حتى تسمعَ ما يدور بالمنزل .

- أعتقد أنه لم يستيقظ بعد ، فكرت أوجيني وهي تسمع السعال الصباحي لنانو التي كانت تذهب وتجيء وتكنس غبار الصالة .

- نانو ، عزيزتي ، هلاّ أعددت كريمة من أجل قهوة ابن عمي؟

- ولكن آنستي ، كان من اللازم أن تخبريني البارحة كي أبدأ في إعدادها . قالت نانو وهي تضحك عاليا . أنا لا أستطيع أن أعد الكريمة . ابن عمك وسيم ، وسيم ، جدُ وسيم فعلا . أنت لم تريه ليلة أمس في الروب دو شومبر خاصته . أما أنا فقد رأيته . إنه يرتدي ملابس ناعمة كالرداء الكهنوتي الذي يرتديه سيدي القس .

- نانو ، هلاّ أعددت لنا فطيرة إذن؟

- ومن سيعطيني الحطب لإضرام نار الفرن ، وقليلا من الطحين والزبد؟ نانو كانت تتصرف أحيانا بمثابة نائب السيد غراندي حتى مع السيدة غراندي وأوجيني . أوَلا يتحتم علينا هكذا أن نسرقَ السيدَ غراندي حتى نُكرم ابن عمك ونحتفل بمجيئه؟ اطلبي من والدك قليلا من الزبد والطحين والحطب ، هوَ والدكِ ولن يرفض لكِ طلبا كهذا . آه ، هاهو ذا نازل ليتفقد المؤونة . . .

ركضت أوجيني لتختفي في الحديقة وهي ترتجف خوفا لمجرد

سماعها صوت أقدام والدها في السلالم . كانت تحسّ حينها بآثار تلكَ العفة العميقة وذلك الوعي الخاص بالسعادة الذي يجعلنا نعتقد ، لسبب أو لآخر ، بأن أفكارنا مطبوعة على جبيننا وأن نظرة واحدة من الآخر ستجعله يقرؤها ويعرفها . حينها لاحظت أوجيني السِنحة الباردة والإملاق الذي يكسو منزل والدها ، وأحست بنوع من الاستياء لعدم قدرتها على جعل المنزل يبدو أكثر توافقا وانسجامًا معَ أناقة ابن عمها . كانت تحسّ بحاجة ملحّة لأن تقوم بشيء ما من أجله ، لكن ماذا؟ لم تكن تدري . وبذلك تركت أوجيني الساذجَة نفسها لطبيعتها الملائكية دون أن تتحدى نفسها لا بانطباعاتها ولا بمشاعرها . فمظهر ابن عمّها وحده كان قادرًا على إيقاظ الميول الطبيعية للمرأة عندها والتي لابدَ وأنها تكورت بطريقة أكثر حيوية مع مُضي الزمن لتصل إلى الثالثة والعشرين من عمرها حيث كانت في أوج ذكائها وشهواتها . لأول مرة في حياتها ، أحست بخشية من والدها تتغلغل إلى قلبها ، ورأت فيه سيدًا لقدَرها ، وأحست بالذنب تجاهه لكونها كتَمت عنه بعض أفكارها وأخفتها . وبينما هي تبحث عن حيلة لتحصل بها على الفطيرة ، كان السيد غراندي ونانو يتشاجران وهوَ أمر نادر الحدوث . جاء السيد غراندي محملا بمفاتيحه حتى يزن ويُعدّ اللوازم الضرورية لإعداد الطعام يومها .

- ألم يبقَ خبز من البارحة؟ سأل غراندي نانو .

- لم يتبقَ حتى الفتات ، سيدي .

أخذ السيد غراندي قطعة خبز كبيرة مستديرة ، وكان سيقسمها إلى قطع عندما قالت نانو : نحن خمسة اليوم ، سيدي .

- أجل ، أعلم ذلك ، لكن الخبز الذي تعدينه يا نانو كبير بما

يكفي ليَكفينا جميعا ويتبقى . كما أنك سترين كيف أن شباب باريس لا يستهلكون الخبز .

- إذا سيستهلك الكثير من المحليات؟

- لا ، هم لا يستهلكون لا المحليات ولا الخبز ، هم لا يأكلون الكثير ، تماما كالفتيات المقبلات على الزواج .

وبعد أن قدّم لها لائحة الطعام لذلك اليوم ، والمستلزمات اللازمة لتحضيره ، وبعد أن أقفل الباب وكان يتجه خارجًا ، أوقفته نانو وقالت : - سيدي ، هلا أعطيتني قليلا من الطحين والزبد لأعدَ فطيرة للأطفال؟

- أو تنوين أن تفلسيني وتخربي بيتي بسبب ابن أخي؟

- أنا لا أفكر في ابن أخيك أكثر مما أفكر في كلبك ، أكثر مما تفكر فيهما أنتَ نفسك . كما أنَك لم تُعطني سوى ستة قطع من السكر ، وسيلزمنا ثمانية .

- آه ، هكذا إذن! لم أرك يومًا تتصرفين بهذه الطريقة . ما الذي جرى لك ، نانو؟ هل أنتِ السيدة هنا؟ لن تحصلي سوى على ستة قطع من السكر .

- وابن أخيك إذن؟ بمَ سيُحَلّي قهوته؟

- بقطعتين من السكر ، سأتخلى عن قطعتي السكر خاصتي .

- ستتخلى عن السكر ، في عمرك هذا! أفضل أن أشتري لك السكر بنقودي الخاصة على أن تتخلى عنه!

- لا تتدخلي فيما لا يعنيك .

وبما أن كل النساء ، حتى أكثرهن بلاهة ، يحسنون استعمال دهائهن وكيدهن ليصلوا إلى ما يصبون إليه ، فإن نانو تخلت عن النقاش المعني بالسكر في سبيل الحصول على الفطيرة .

– آنستي ، نادَت نانو ، ألا تريدين أن تتناولي فطيرة؟
– لا ، لا أريد ، ردّت أوجيني .
– هيا نانو ، قال غراندي وهو يسمع صوت ابنته ، خذي . وفتح العلبة التي يخزن بها الطحين ، وأعطاها مكيالا منها ، وأضاف لها بضع أوقيات من الزبد .
– سيلزمنا بعض الحطب كذلك من أجل الفرن ، قالت نانو .
– حسنا إذن ، خذي ما يلزمك لذلك ، قال السيد غراندي بأسى . ولكن ، جهزي لنا إذن كعكة فواكه ، واحرصي على طبخ كل العشاء في الفرن ، وبهذا لن تضطري لإضرام النار في مكانين مختلفين .
– أوه سيدي أنتَ لست في حاجة لأن تذكرني بهذا .
وبهذا ألقى السيد البخيل على وزيرته الوفيّة نظرة تكاد تكون أبوية .
– آنستي ، نادت نانو ، سوفَ نُحضر الفطيرة!
عادَ السيد غراندي محملا بالفواكه ، ووضعها في طبق على طاولة المطبخ .
– بالمناسبة ، سيدي ، فيما يخص الأحذية الجميلة التي يرتديها ابن أخيك ، هي مصنوعة من الجلد الفاخر ، بماذا يمكنني أن أنظفها له؟ هل أستعمل ورنيش الأحذية الخاص بك؟
– نانو ، أعتقد أن البيض الذي أستعمله لتنظيف أحذيتي قد يُفسدُ جلد الأحذية خاصته . أخبريه أنك لا تعرفين شيئا عن تلميع الأحذية ، وبذلك سيذهب بنفسه إلى سومور ليشتري لك منها ما تحتاجينه لتلميعها . لقد سمعت من قبل أنهم يخلطون السكر بالورنيش حتى يجعلوا الأحذية تلمع هكذا .

- آه ، إذن فالحذاء صالح للأكل ولذيذ ، قالت الخادمة وهي تشتم رائحته . آه يا إلهي ، تصدر منه رائحة عطر السيدة! إن هذا عجيب .

- عجيب ، إنه فعلا لأمر عجيب أن نخصص للحذاء مبالغ مالية تتعدى قيمتها قيمة الشخص الذي يرتديها .

- سيدي ، قالت نانو ، ألن نُعدّ مرة أو مرتين خلال الأسبوع مرق اللحم والخضار؟ وذلك بمناسبة مجيء ابن أخيك . . . .

- بلى .

- سيتوجب علي أن أذهب عند الجزار إذن .

- لا إطلاقا ، ستعدين لنا حساءً من لحم الطيور ، وسيحضر لك المزارعون ما تحتاجينه . سأطلب من كورنوايي أن يصطاد لنا بعض الغربان ، فالحساء الذي يعد من هذه الطرائد هو أفضل ما يمكن للمرء أن يأكله .

- هل من الصحيح أن الغربان تأكل الأموات؟ سألت نانو .

- يا لك من غبية ، نانو! إنهم يأكلون كالجميع ممّا يجدونه! أوَلا نتغذى نحن البشر كذلك على الأموات؟ ما هي المواريث والتركات إذن؟

وأخرج السيد غراندي ساعته من جيبه حينها ، وبما أنه قد تبقت له نصف ساعة قبل الفطور ، فقد حمل قبعته ، وقبّلَ ابنته ، وقال لها : - هل تريدين أن تتجولي على حافة النهر في مروجي؟ لدي بعض الأمور لأقوم بها .

وضعت أوجيني قبعة القش خاصتها والتي يحيط بها شريط وردي ، ثم خرج الأب وابنته واتجها عبر الطريق الوعرة في المنحدر ليصلوا إلى الموقع المراد .

- إلى أين أنتم ذاهبان في هذا الصباح الباكر، سأل الموثق كروشو السيد غراندي عندما التقاه.

- لأقضي أمرا. ردّ السيد غراندي دون أن يفصح عن تفاصيل أكثر لصديقه.

إلا أن السيد الموثق يعرف صديقه كفاية ليفهم أن البخيل كلما ذهب «ليقضي أمرا» فإن الأمر يتعلق حتمًا بجني الأموال. ولذلك فقد اصطحبه.

- أتأتي معنا، كروشو؟ سأل غراندي الموثق. أنتَ أحد أصدقائي، سأريكَ الحماقة التي تنتج عن زرع شجر الحَوْر في أراض خصبة وجيدة...

- ألم تحسب الستين ألف فرنك التي استلمتها مقابل مروجك في لا لوار؟ سأل السيد كروشو وهو يفتح عينيه ببلاهة. هل حالفك الحظ؟... أن تقطع أشجارك في الوقت الذي تنقص فيه الأشجار كثيرا في نانت، وتبيعها بثلاثين فرنكا!

أوجيني التي كانت تشاهد النهر الخلاب المنساب أمام ناظرها دون أن تصغي إلى حسابات والدها العجيبة وأحاديثه، أطلقت العنان لسمعها حينَ سمعت السيد كروشو يتحدث قائلا: آه، لقد أحضرتَ صهرًا لكَ من باريسَ، والجميعُ في سومور يتحدثون عن هذا الأمر. سوفَ يكون عليّ أن أجهّز عقدًا جديدًا إذن.

- هل... هل... هل خر... خر... خرجت باكرا... كي... كي... كي... تقول لي هذا الكلام؟ قال السيد غراندي، يا صديقي العزيز، سأكون صريحًا معك، وسأخبرُكَ عمّا تبحث عنه. أنا، شخصيًا، أفضل أن أر... أر... أرمي ابنتي في... في... في نهر لا لوار على أن أز... أز... أزوجها

لابن عمها! بإمكانك أن تُعلنَ هذا لمن تشاء، لكن لا، دَع الناس تثرثر بما تشاء.

تسببت هذه الإجابة بصدمة لأوجيني. فآمالها البعيدة ومشاعرها التي بدأت تتكتل وتتكور وتزهر في قلبها بشكل جميل، تبدّدت وكأنها دُعسَت أو اقتُطِعَت. فمنذ ليلة البارحة وقلبها يتعلق بشارل عن طريق كل الروابط الإنسانية والروحية الممكنة... لكن المعاناة ستتزايدُ وتتكاثر باستمرار في قلبها منذ ذلك الحين. أوَليس من القدَر النبيل للنساء أن تمسسهن التعاسَة ومآسيهَا أكثر مما تُداعبهن محاسن الحظ؟ كيفَ أمكَن لمشاعر الأبوة أن تنطفىء بهذه الطريقة في أعماق قلب والدها؟ وما كان الذنب الذي ارتكبه شارل؟ أسئلة غامضة! الآن، حتى حُبّها حديث الولادة، ذلك اللغز العميق، أصبح ملفوفا محفوفا بالغموض. كانت ساقاها ترتجفان عندما عادت عبر الطريق القديمة المُظلمة التي كانت سابقا سعيدة بمرآها، هاهي ذي بائسة، وتبعث من رئتيها نسيما مكتنزا بالمآسي التي طبعها الزمن والأحداث فيها. لم يكُن ينقصها حينها أيُّ درس في الحب. على بُعد بضعة أقدام من المنزل، ابتعدت عن والدها بخطوات وانتظرته أمام الباب بعدَ أن طرقته. إلا أن السيد غراندي لمحَ جريدة في يد الموثق وسأله: كيفَ حال الاستثمارات؟

- إنها لا تنبئ بالخير الكثير، غراندي، اشتري واحدة منها سريعا، لا تزال هناك عشرون بالمائة لتُربَح خلال سنتين، بالإضافة إلى الفوائد المجنية بأسعار خيالية. خمسة آلاف جنيه للريع من أجل ثمانين ألف فرنك.

- سنرى بهذا الشأن لاحقا، قال غراندي وهو يحك جبينه.

- يا إلهي! صرخ الموثق.

- ما الخطب؟ صرخ غراندي في الوقت الذي وضع له كروشو الجريدة في وجهه : اقرأ هذا المقال!

السيد غراندي ، أحد كبار التجار المقدرين في باريس ، أطلق الرصاص على نفسه البارحة بعد أن ذهب إلى سوق البورصة . وكان قد قدّم استقالته لرئيس مجلس النواب ، كما استقال من منصبه كقاض في محكمة التجارة . إفلاس السيدين روغان ، سمساره ، والسيد سوشي ، موثقه ، تسبب في إفلاسه . وقد كان من الممكن للسيد غراندي بفضل الاعتبار والثقة الكبيرين اللذين يحظى بهما أن يتحصّل على المساعدة في باريس . إنه لمن المؤسف أن هذا الرجل الشريف استسلم للشعور باليأس الذي استولى عليه . . .

- أنا أعلمُ ذلك ، قال البخيل للموثق .

تجمّد السيد كروشو عندئذ ، وذلك رغمًا عن فتوره وبرودة قلبه المعتاد بطبيعة عمله ككاتب عدل ، وصُدمَ لمّا فكّر أنه من الممكن جدًا أن السيد غراندي الباريسي قَد تضرّع لأخيه ، من دون جدوى ، ليقرضَه بضعة ملايين من ماله .

- وابنه الذي بدَا جدّ سعيد البارحة . . .

- إنه لا يعلَم بعد بما جرى ، ردّ السيد غراندي بالهدوء ذاته .

- وداعًا ، سيد غراندي . قال السيد كروشو الذي فهم كلّ شيء وذهبَ ليُطمئنَ الرئيس دو بونفون .

عندمَا دخل السيد غراندي وجدَ الفطور جاهزًا . السيدة غراندي كانت جالسة في مقعدها تحيك ردَاءً شتويا ، واتجهت أوجيني عندَ مرآها لتُقبلها على رقبتها ، مُحمّلة بنزيف قلبها .

- بإمكانكم أن تأكلوا ، قالت نانو وهي تنزل السلالم ، فذلك

الطفل الوديع غارق في النوم . كم يبدو لطيفا بعينيه المغمضتين . لقد حاولت إيقاظه بأن ناديته لكنه يغط في نوم عميق .

- دعيه ينام ، فأيّا كان الوقت الذي سيستيقظ فيه ، سيكون ذلكَ مبكرًا ليَعلم بالخبر السيء .

- ما الذي حصَل؟ سألت أوجيني وهي تضع قطعتين من السكر تزنان غرامات لا يدري أحد عددها ، فالبخيل كان يحرص على تقطيعها بنفسه خلال وقت فراغه . أما السيدة غراندي التي لم تجرؤ على طرح السؤال ، فاكتفت بالنظر إلى زوجها .

- لقَد انتحر والده .

- عمي . . .؟ قالت أوجيني .

- يا للشاب المسكين! صَرخت السيدة غراندي .

- أجل ، مسكين ، وفقير ضائع ، فهو لا يملك فلسًا واحدًا الآن . علّق البخيل .

- آه ، المسكين نائم الآن وكأنه ملكُ الأرض برُمتها . قالت نانو بنبرة حنونة .

توقفت أوجيني عن الأكل . انقبض قلبها ، تمامًا كما يحدث في أول مرة تمتزج فيها الشفقة المتولّدة عن تعاسة المحبوب بحبّه ، لتنتشر في كامل جسد المرأة . وذرفت حينها دموعها رغما عنها .

- أنتِ لم تكوني تعرفين عمّك ، علامَ تبكين الآن؟ سألها والدها وهو يلقي عليها نظرة النمر الجائع التي كان يلقيها حتما على أكوام الذهب المتكدسة لديه .

- ولكن يا سيدي ، قالت نانو ، من ذا الذي لن يشعر بالأسى حيال ذلك الشاب المسكين الذي يغط في النوم دون أن يعلم بمصيره الآن .

- أنا لم أتحدث إليك ، نانو ، أمسكي لسانك عني . قال غراندي .

في تلكَ اللحظة تعلّمت أوجيني أنه يتوجّب على المرأة المُحبّة أن تُخفي مشاعرها ، دومًا لذا لم تردّ على والدها .

- لا تُحدثوه عمّا جرى حتى أعود . قال السيد غراندي وهو ينظر إلى زوجته . يتوجّب عليّ الآن أن أذهب لأقضي بعض أموري . سأعود عند الزوال لأتناول إفطاري الثاني ، وسأتحدث حينها مع ابن أخي بهذا الخصوص . أما أنت ، أوجيني ، فإذا كنت تذرفين دموعك على هذا الأبله ، فدعكِ من ذلك يا ابنتي . فسيذهب قريبًا إلى الهند ، ولن تريه بعدَها أبدًا . . .

حمل الوالد قفازاته من على قبعته ، وارتداها بهدوئه المعتاد ، ثم خرجَ .

- آه ، أمي إني أختنق! صرخت أوجيني عندما اختلت بأمها . لم أعاني من قبل مثلما أعانيه الآن .

ردة الفعل المتوترة هذه الذي ظهرت عندَ فتاة لطالما بدَت ، ولو ظاهريا ، هادئة وباردة ، أثرت في السيدة غراندي ، التي نظرت إلى ابنتها بتفحص وأيقنت بتلك البداهة التي تحظى بها الأمهات حين يتعلق الأمر بفلذات أكبادهن ، وأدركت كل ما يجول بخاطر ابنتها .

- طفلتي المسكينة! قالت الأم وهي تضم ابنتها إلى صدرها .

حدّقت الفتاة عميقا في عيني أمّها ، وكأنها تبحث عن تفسير ، ولمّا تيقنت أن أمها أدركت مكنونات قلبها ، بادرتها بالسؤال :

- لماذا سيرسله إلى الهند؟ إذا كان تعيسًا ، أليس من الأفضل له أن يبقى معنا ، أوَ ليسَ أقربَ أقاربنا؟

- أجل يا طفلتي ، سيكون من الطبيعي أن يبقى ، لكن لوالدك أسبابه التي تدفعه لاتخاذ قرار مماثل ، وعلينا أن نحترم هذا .

جلست الأم وابنتها بعدها في مواضعهما المعتادة ، في صمت ، وعادتا للحياكة . ولتُعبّر أوجيني لأمها عن امتنانها العميق لتفهّم قلبها ومشاعرها ، لثمت أوجيني يد أمها وقالت لها : كمْ أنك رائعة ، أمي العزيزة .

وأشعّ الوجه العجوز لأمها حينها بسعادة ضئيلة ، بعدَ أن كانَ ذابلا بحكم سنوات من الآلام .

- كيف ترينه يا أمي ، أتعتقدين أنه جيّد؟ سألت أوجيني أمها بخصوص شارل .

لم تردَ السيدة غراندي بادئ الأمر ، واكتفت بابتسامة ، ثم وبعد برهة من الصمت ، أعقبت قائلة :

- أوَ تحبينَه من الآن؟ هذا ليسَ جيدا .

- لمَ قد يكون هذا سيئا؟ أوَلم يحظى بإعجابكِ أنتِ وبإعجابِ نانو؟ لمَ لن يُعجبني أنا إذن؟ على فكرة ، هلاّ جهزَنا له طاولة الإفطار؟ ووضعت ما كانت تحيكه جانبًا . علّقت أمها قائلة : إنك لمجنونة! ثم شاركت ابنتها في جنونها بأن قامت لتساعدها .

نادت أوجيني نانو حينها .

- ما الذي تريدنه أيضا ، آنستي؟

- نانو ، أعتقد أنه سيكون بإمكانك تحضير الكريمة لنتناولها عند الزوال .

- آه ، نعم سيكون هناك متسع من الوقت لتكون جاهزة عند الزوال ، ردت الخادمة العجوز .

- واحرصي على أن تكون قهوته ثقيلة ، لقد سمعت السيد

دي غراسان يقول أن الباريسيين يفضلونها ثقيلة ، أضيفي له الكثير من القهوة .

- وأنّا لي بها؟

- اشتريها!

- وإذا حدَث وقابلت سيدي صدفة؟

- لن تقابليه ، فسيكون في مروجه .

- سأركض للحصول عليها . لكن السيد فيسار البائع قد انتبه للأمر البارحة وسألني إن كان المجوسيون الثلاثة قد حلوا ضيوفا علينا كي أشتري البوجيه . كل المدينة تراقبنا وستلاحظ هذه التغييرات .

- إن انتبه والدك للأمر ، يا ابنتي ، فقد يُعَنفنا . . . قالت الوالدة بقلق .

- فليُعنفنا ، وليضربنا ، وماذا في ذلك؟

لم تجد الوالدة ما ترد به على ابنتها غير أنها رفعت عينيها للسماء . بينما خرجت أوجيني ، وذهبت للحديقة بحثا عن عناقيد العنب ، وحرصت على أن تتمشى بهدوء في الرواق حتى لا توقظ ابن عمها ، بل ومرّت بغرفته لتتصنت على زفيره المتسلل من بين شفتيه . - الأسى يسهَر متربصا إياه ، بينما هو يغط في نومه!قالت لنفسها .

اختارت أوراق الكرمة الأكثر اخضرارا وصفت العنب بعناية كبيرة في الصحن ، ثم رتبت الإجاص على شكل هرم بين الأوراق ، ووضعتهما على الطاولة . كانت تقفز وتتمايل ذهابا وإيابا . كانت تتمنى لو تمكنت من عرض وتقديم كل ما يوجد في منزل والدها لابن عمّها ، لكن الأب غراندي كان يملك المفاتيح التي تغلق على كل شيء .

عادت نانو محملة ببيضتين طازجتين، جعلتا أوجيني ترغب في احتضانها عندما رأتهما :

- كانتا في إحدى سلال المُزارع الذي أرادَ أن يتودد إلي بأن أعطاني إياهما بمجرد أن طلبتهما منه، ياله من رجل لطيف!

وبعدَ ساعتين من الإعداد، تركت خلالهما أوجيني مقعدها عشرين مرة لتتحقق من استواء البيض، ولتتصنت على الصوت الصادر عن ابن عمها النائم، نجحت نهاية الأمر في إعداد إفطار بسيط جدا وغير مكلف بالمرّة، لكنه تمرّدَ على كلّ عادات المنزل المقدسة. عندما رأت أوجيني الطاولة مرصوصة بجانب المدفأة، مع صحنين مليئين بالفواكه، قارورة النبيذ الأبيض، الخبز والسكر المرصوص في السكرية، ارتجفت لمجرد تخيلها لردة فعل والدها وانطباعه حين يرى كل هذا العرض إذا ما دخل حينها. ولذلك فقد كانت تراقب الساعة، وهي تحسب الوقت لترى إن كان بإمكان ابن عمها أن ينزل ليفطر معهم قبل أن يصل والدها.

- لا تتقلقي أوجيني، إذا ما جاء والدك فسأتحمل كامل المسؤولية والذنب، قالت والدتها محاولة التهدئة من روعها.

وحينها لم تستطع أوجيني أن تمنع دمعتها من الانسياب قائلة :

آه أمي العزيزة، لا أعتقد أنني أحببتك كما ينبغي لي أن أُحبك، لم أحبك كفاية أبدًا!

وبعدَ أن دار شارل مائة دورة في غرفته وهو يغني، نزل أخيرا.

لحسن الحظ، كانت الساعة حينها الحادية عشرة. الباريسي اللعين! كان قد تجَهز وتزين كما لو كان في قصر السيدة النبيلة التي كانت الآن في إسكتلندا. دَخل إلى الصالة وعلامات السعادة بادية على محياه، مما بعَث في أوجيني سعادةً تعيسة.

وتوجه لزوجة عمه بالسؤال ، بسعادة بدت وكأنها تسخر من قدَره المجهول الذي كان قد سلبَه من دون علمه قصوره بأنجيه : كيفَ كانت ليلتك ، عمّتي العزيزة؟ ماذا عنكِ ابنة عمي؟

– لا بأس بها ، قالت السيدة غراندي ، ماذا عنكَ؟

– كانت مثالية .

– لا بدَ وأنك جائع ، ابن عمي ، هلاّ تبعتني إلى الطاولة؟

– عادةً لا أفطر أبدًا قبل الزوال ، وهو موعد استيقاظي المعتاد ، ردّ قائلا ، لكني وبعدَ هذا السفر الشاق سأسمح لنفسي بهذا الاستثناء . ثم سحبَ أجمل ساعة كان بروغيت قد أعدّها ، ونظر إليها قائلا : آه إنها الحادية عشرة ، لقد استيقظت مبكرًا اليوم!

– مبكرا؟ تساءلت السيدة غراندي متعجبة .

– أجل ، لكني كنت أريد أن أوضب متاعي . آه ، بإمكاني أن أتناول أي شيء ، أي شيء من الدواجن أو الحجل .

– يا مريم العذراء! صرخت نانو وهي تسمع كلامه .

– حجل ، رددت أوجيني في نفسها هي التي كانت تريد أن تبتاع له حجلا بأي ثمن .

تداعى الشاب على الكنبة ، تماما كما تتوَضع عليه سيدة جميلة . وجلست أوجيني ووالدتها قبالته على الكراسي أمام المدفأة .

– أتعيشون طول العام هنا؟ سأل شارل الذي اتضح له أن الصالة أكثر بشاعة ورداءة في ضوء النهار مما بدت عليه ليلة البارحة .

– دائما ، ردّت أوجيني ، إلا في موسم الحصاد ، أين نذهب لنساعد نانو ونقطن جميعا في دير نوايي .

- ألا تتجولون أبدًا؟

- أحيانا ، في أيام الأحد حين يكون الجوّ جميلا نذهب للجسر أو لرؤية القش بعد اقتطاع العشب .

- هل يوجدُ مسرحٌ هنا؟

- نذهب لرؤية عرض كوميدي ما! صرخت السيدة غراندي ، ولكن ألا تعرف يا سيدي أن هذا ذنب قبيح للغاية!

- تفضل سيدي العزيز ، قالت نانو وهي تحضر له البيض ، هاهي الدواجن التي تريدها ، إلا أنها لا تزال في قشورها!

- أوه ، البيض الطازج ، قال شارل الذي بحكم اعتياده على حياة الرفاهية تناسى تماما أمر الدواجن . كم سيكون هذا لذيذا إن كان هناك زبدة!

- آه ، الزبدة! لكنكم بهذا لن تحصلوا على الفطائر ، قالت الخادمة .

- فلتعطه الزبدة نانو! صرخت أوجيني .

تفحصت أوجيني بنظراتها ابن عمها وهو يتفنن في تناول بيضه ، واستمتعت بمنظره تماما كما يستمتع باريسي برؤيته لعرض ميلودرامي تنتصر فيه البراءة . في الحقيقة ، كان شارل متأثرا بتربية والدته النبيلة ، وبعادات السيدة المعاصرة التي يصاحبها ، ويظهر ذلك جليا في حركات التدلل الأنيقة التي تصدر عنه ، والتي تشبه عادات آنسة صغيرة .

إن عاطفة وحنان شابة صغيرة تملك تأثيرا مغناطيسيا جذابا هائلا . حيث أن شارل ، لمّا رأى نفسه محطّ اهتمام ابنة عمه ووالدتها ، لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يتأثر بفائض المشاعر التي أغرقتاه بها . وألقى على ابنة عمه نظرة ملؤها الطيبة والمداعبات ،

نظرة بدَت وكأنها تبتسم . انتبه عندما شاهدَ أوجيني لانسجام ملامح وجهها الطاهر ، وتصرفاتها البريئة ، وبالوضوح السحري لعينيها اللتين تلمع بهما أفكار جديدة وليدة الحب ، وأين كانت الرغبة بهما لا تزال تجهل الشهوة .

- يا إلهي ، صدقيني يا ابنة عمي العزيزة ، لو أنك كنتِ فعلا في الأوبرا ، بزينة متكاملة تتناسب وإياها ، أؤكد لكِ حينها أن عمتي ستكون على حق ، وأنك ستتسببين حينها في معاصٍ وآثام كثيرة ، بسبب إثارة رغبة الرجال بك ، وغيرة النساء منك!

داعب هذا المدح قلبَ أوجيني ، وجعله يرتجف فرحًا ، رغم أنها لم تفهم حتى ما أراد قوله .

- أوه ابن عمي ، أوَ تريد أن تسخر من فتاة ريفية مسكينة مثلي!

- لو كنت تعرفينني جيدا ، يا ابنة عمي ، لكنت عرفتِ كم أنني أمقت السخرية والتهكم ، فهما يُذبلان القلب ، ويهينان جميعَ المشاعر . وتناول بعدها بيضه المدهون بالزبدة ، ثم أضاف : لا ، أعتقد أنني لا أملك الجرأة الكافية لأسخر من غيري ، وهذا العيب سبب لي مشاكل عدة . ففي باريس ، بإمكانك أن تقتل رجلا حين تقول عنه أنه طيب القلب . فهذه العبارة تعني أن : هذا الفتى الصغير ساذج مثله مثل كركدنّ . ولكن ، بما أني غني ، ومعروف بقدرتي على إصابة أية دمية منذ أول تصويب لي عليها ومن على بعد ثلاثين قدما مستعملا أي نوع من المسدسات ، مباشرة ، فإن التهكم يحترمني .

- ما قلته للتو ، يا ابن أخي ، يعكس طيبة قلبك . علقت السيدة غراندي .

- إنك تملك خاتمًا جميلا ، هلا سمحتَ لي بأن أراه عن كثب؟

مدّ شارل لها يده بعد أن نزع خاتمه ، واحمرّت أوجيني خجلا حينما لامست أناملها أطراف أظافر ابن عمها .

- انظري أمي ، كم هو جميل .

دخلت نانو محملة بالقهوة .

- ما هذا الذي أتيتنا به؟ سأل شارل وهو يضحك .

قال ذلك وهو يشير إلى إناء مستطيل ، مصنوع من الطين ، مليء بالخزف من الداخل ومحاط بالرماد ، وقد تموضعت في قعره القهوة التي تصاعدت إلى أعلاه وهي تغلي .

- إنها قهوة مغلية ، قالت نانو .

- آه عمتي ، أعتقد أنه يتوجب علي أن أعلمكم بعض الأمور النافعة قبل أن أعود إلى الديار . إنكم لمتخلّفون! سوف أعلمكم كيف تُعدون قهوة في إبريق قهوة لاشابتال .

وحاوَل أن يشرح لهنَ كيفية عمل الإبريق .

- أوه ، لمَ الأمر بهذا التعقيد ، وكأنني سأستغرق حياتي لمجرد إعداد القهوة . لن أعد القهوة بهذه الطريقة أبدا . ومن ذا الذي سيقدم العشب لبقرتنا بينمَا أنا أعد القهوة .

- أنا سأفعل ذلك ، قالت أوجيني .

- يا طفلة . قالت السيدة غراندي وهي تنظر لابنتها .

وبهذه الكلمة ، التي ذكرتهن بالأسى الذي سَوف يُحطّم هذا الشاب التعيس إلى شتات خلال زمن قصير ، صمتت النسوة الثلاث بطريقة رهيبة جعلته ينتبه للأمر .

- ما الخطب يا ابنة عمي؟

– اخرسي! قالت السيدة غراندي لمّا همّت أوجيني بالشرح . أنتِ تعلمين يا ابنتي أن والدَك سوف يتحدث بنفسه إلى السيد . . .

– اسمي شارل ، قال الشاب غراندي .

– آه ، اسمكَ شارل؟ يا له من اسم جميل ، صرخت أوجيني .

إن بداهتنا وحِسّنا وإحساسنا بالأسى حين يقترب لا تخطئ أبدًا . ففي تلك اللحظات التي كانت كل من نانو ، أوجيني والسيدة غراندي ترتجفن لمجرد التفكير في عودة السيد غراندي ، سُمِعَ طرق معروف على الباب ، وتيقنّ من أنه هو .

– ها قد جاء أبي . قالت أوجيني .

نزعت أوجيني السكرية بعد أن تركت بضع قطع على المائدة ، أما نانو فحملت صحن البيض بسرعة ، وانتصبت السيدة غراندي من مكانها كظبية مفزوعة . كانت حالة من الهلع قد عمّت المكان واسترعت اهتمام شارل الذي أخذ يصيح بتعجب : لكن ، ها! ما خطبكنّ ما الذي جرى؟

– أوَ لا ترى أن أبي قد عاد؟

– وماذا في ذلك؟

دخل السيد غراندي وألقى نظرة شاملة على الطاولة ، وعلى شارل ، ورأى كل شيء .

– آهااا! أقمتم حفلة إذن على شرف ابن أخي ، هذا جيد ، جيد جدا ، هذا رائع في الحقيقة! قال السيد غراندي دون أن يتلعثم . فبينما يركض القط على السطوح ، ترقص الفئران في الأرضية .

- حفلة؟ تساءل شارل الذي لم يكُن بإمكانه أن يتخيل طبيعة النظام والأخلاقيات التي تُسير هذا المنزل .

- هلا أعطيتني كأسي ، نانو؟ قال السيد .

أحضرت أوجيني الكأس . أخرج السيد غراندي سكينا حادة من جيبه ، قص بها قطعة من الخبز ، ودهنَ عليها قليلا من الزبدة بعناية ، وأكلها واقفا . بينما كان شارل يضع السكر في قهوته . لاحظ السيد غراندي قطع السكر ، وألقى نظرة فاحصة على زوجته التي شَحُبَ لونها ، فاقترب بثلاث خطوات من المرأة العجوز ، وأمسكها من أذنها قائلا : من أين لكم بكل هذا السكر؟

-لقد ذهبت نانو عند فيسار لتشتري لنا قليلا ، حيث لم يكن عندنا منه .

من المستحيل تخيلِ أهمية هذا المشهد الصامت المعروض على النسوة الثلاث : نانو تركَت مطبخها وجاءت للصالة لترى ما الذي سيحدث . شارل الذي وجدَ قهوته جد مُرّة حينما ذاقها ، بحثَ عن السكر ، إلا أن عمّه كان قد سَبقَ وأخذه .

- ما الذي تريده يا ابن أخي؟

- السكر .

- أضف لها القليل من الحليب ، ستصبح قهوتك أقل مرارة . ردّ ربّ البيت .

حمَلت أوجيني السُكرية التي سبقَ وأخذها والدها ، وأعادت وضعها على الطاولة وهي تنظر لوالدها بكل هدوء . إن الشجاعة التي أظهرتها أوجيني بفعلتها تلك تضاهي الشجاعة التي تتحلى بها الباريسية إذ هي تساعد حبيبها على الهرب بأن تسندَ بذراعيها الضعيفين سُلّمًا حريريا . في حالة الباريسية ، فإن حبيبها سيكافئها

حين تُريه ذراعَها الجميلَ المُنهَك الخائر ، بأن يُغرقَ كل عرق ذابل فيه بدموعه وبقبلاته ، وسيشفى ذراعها بفضل المتع التي سيدلعها بها ، بينما شارل لم يكن ليعرف أبدًا التضحية الجسيمة التي قامت بها أوجيني للتو من أجله ، ولم يكُن ليدرك ارتجاف قلبها المنقبض حينها تحت وقع نظرة العجوز البخيل .

- ألن تأكلي شيئا ، زوجتي؟

اقتربت المسكينة بحذر ، وأخذت قطعة خبز ، وإجاصة . أما أوجيني فعرضت على والدها عنقودًا من العنب وقالت له :

فلتتذوق إذن يا أبي هذا العنب اللذيذ الذي قطفته صباح اليوم! ماذا عنك يا ابن عمي ، ستتناول بضعًا منه ، أليس كذلك؟ لقد ذهبت بحثا عن هذه العناقيد خصيصًا من أجلك .

- آه ، أرأيت؟ إن لم نوقفهن فإنهن سيختلسن كل ما في سومور من أجلكَ يا ابن أخي . عندمَا تنتهي من تناول طعامك سنذهب لنتجول في الحديقة ، فلديّ أشياء أقولها لك ، وأخشى أنها لن تكون «مُسكّرَة» وحلوة .

ألقت حينها أوجيني وأمها نظرة على شارل عرف الشاب من خلالها أن أمرًا جللًا قد حدث .

- ما الذي تعنيه بقولك هذا يا عمي؟ فمنذ وفاة والدتي المسكينة (وعند قوله هذا ، تغيرت نبرة صوته) لم يعد هناك من مصيبة أو أسى يمكن أن يمسّني . . .

- يا ابن أخي ، من ذا الذي بإمكانه أن يعلم بالابتلاءات التي يُعدّها الربّ لنا؟ قالت السيدة غراندي .

- تا! تا! تا! تا! هاهي الحماقات قد بدأت . إنه ليشق عليّ أن أرى يديك الناعمتين الجميلتين يا ابن أخي . (ثم أراه يدا أطراف

الحروف اللتان خصته الطبيعة بهما) : هاهي ذي الأيادي التي خُلقت من أجل تحصيل النقود! لقد تمّت تربيتك بطريقة تجعلك تدعس على الجلد الذي تُصنع منه الحافظات التي نجمع فيها النقود والتي نحصلها نحن بعناء. هذا سيء، سيء!

- ما الذي تودُّ قوله يا عمّاه، أقسم لك بحياتي أني لم أفهم كلمة مما تقول!

- تعالَ، قال السيد غراندي وهو يشرب ما تبقى من نبيذه الأبيض، ثم قام وفتح الباب.

- فلتتحل بالصبر والشجاعة يا ابن عمي!

جمّدت نبرة صوت الفتاة شارل الذي تبع عمّه الرهيب مرتعد الفرائص وهو فريسة قلق جلل. اتجهت أوجيني وأمها ونانو إلى المطبخ مدفوعات بفضول ورغبة لتتبع الممثلين الذين سيمثلان مشهدا مسرحيا فريدا في الحديقة حيث تمشّى العمّ في بادئ الأمر صامتا بجانب ابن أخيه. لم يكُن السيد غراندي مُحرجًا أو منزعجا من إخبار ابن أخيه بوفاة والده، إلا أنه شعر بنوع من العطف والشفقة تجاهه لما تذكر أنه لا يملك فلسًا الآن، وحاولَ أن يختار كلماته بعناية ليُلطف عليه هذه الحقيقة البشعة المتوحشة. لقد فقدت والدك! لم يكن هناك الكثير ليقوله عن هذا، الأولياء يموتون غالبا قبل أبنائهم. لكن أن يقول له: أنتَ فقدت ثروتكَ برمّتها! كل مآسي الأرض كانت مجتمعة في هذه العبارة.

وبينما كان السيد غراندي حائرًا، لفّ الشاب الحديقة ثلاث مرات. ففي الظروف الملتوية الكبيرة في حياة الإنسان، وفي تلك اللحظات العصيبة، تتعلق أرواحنا بالأماكن التي وقعت فيها المآسي والمُتَع على رؤوسنا. ولذا كان شارل يتفحص بانتباه شديد

تفاصيل الحديقة وأشجارها ، الأوراق الشاحبة التي تتساقط ، تجرّد الجدران ، كلها تفاصيل ستُطبع في ذاكرته وتُخلطُ للأبد مع هذه الساعة العظيمة بفضل خاصية الذاكرة المتعلقة بالعواطف .

- الجو حار وجميل ، قال السيد غراندي وهو يستنشق الهواء عميقا .

- أجل ، عمّاه ، لكن لماذا . . .

- حسنا يا بنيّ ، عندي أخبار سيئة أقولها لك . فوالدك في الحقيقة قد . . .

- لماذا أنا هنا؟ صرخ شارل ، نانو ، ألا توجد أحصنة؟ سأستأجر عربة في الجوار تأخذني من هنا ، قال وهو يستدير نحوَ عمّه .

- لن يكون هناك من داع لإحضار الأحصنة والعربة ، ردّ غراندي . توقف شارل بلا حراك ، وشحُب وجهه ، وتثبتت عيناه على عمّه ، - أجل يا بنّي المسكين ، بإمكانك أن تخمن أنه ميت . لكن هذا ليسَ كل ما في الأمر ، هناك شيء أكثر من هذا ، فقد انتحر . . .

- والدي؟

- أجل . لكن هذا ليسَ كل شيء . الجرائد تتحدث عن الأمر بكل حرية ، تعال ، انظر .

وضع العمّ المقال العصيب من الجريدة التي استعارها من كروشو تحت ناظري ابن أخيه . عندئذ انهمرت وديان من الدموع من عيني الفتى الشاب الذي لا يزال كطفل يتعامل مع مشاعره بكل سذاجة .

- هيا ، دعكَ من البكاء الآن . هذا ليسَ كل شيء ، يا ابن

أخي المسكين ، المصيبة أكبر من ذلك ، قال السيد غراندي بصوت عال عسى شارل يسمعه ، صدقني المشكلة لا تكمن هنا ، فأنتَ ستتعافى من موته ، لكن . . .

– أبدًا! أبدًا! إنه والدي! والدي!

– لقد تسببَ والدكَ في إفلاسكَ ، أنتَ الآن بلا نقود!

– وما الذي يعنيه لي هذا؟ أين أبي ، أنا أريد أبي!

انتشر صدى عويل شارل وبكائه بين أنحاء الجدران بطريقة رهيبة كئيبة داعبت شفقة النسوَة الثلاثة اللواتي لم يتمكنّ من حبس دموعهن . فالدموع مُعدية وتتناقل من شخص لآخر تماما كما تفعَل الضحكات . ومن دون أن يستمع لما كان عمّه يقوله ، فرّ شارل راكضًا من كلماته السخيفة ، وذهب إلى غرفته ، وألقى بنفسه في أحضان سريره أين أخفى وجهه في الأغطية ليتسنى له البكاء براحته بعيدًا عن أقاربه .

– علينا أن ندَع العاصفة الأولى تمرّ ، قال السيد غراندي وهو يدخل للصالة ، أينَ كانت أوجيني ووالدتها قد عادتا بسرعة لكراسيهما وتظاهرتا بالانشغال بالحياكة بعدَ أن كفكفتا دموعهما . ثم أضاف : لكنه لا يصلُح لشيء ، هذا الغبي ، إنه يهتم بموت أبيه أكثر من اهتمامه بالثروة التي فقدها!

ارتجفت أوجيني لسماع كلمات والدها الوقحة التي أهانَت إحدى آلام الإنسان الأكثر قداسة . ومنذ تلكَ اللحظة ، بدأت في إصدار أحكام على والدها .

أما شارل ، فرغم أن نواحه كان بعيدًا ومستترا ، إلا أن صداه كان ينتشر في أنحاء المنزل الجهوري ، ولم يتوقف جرحه العميق عن النزيف حتى بدت بوادر المساء ، وذلك بعدَ أن خفّت تدريجيا .

– يا للفتى المسكين ، رددت السيدة غراندي .

خطأ فظيع يا سيدة غراندي ، ما كانَ يجب عليها أن تتحدث . فحينها ، نظر السيد غراندي إليها ، ثم إلى أوجيني ، ثم للسكرية ، وتذكر أحداث الفطور العظيم الذي جُهز على شرف قريبهم التعيس .

– بالمناسبة ، قال البخيل بهدوئه المعتاد وهو يتجه للسيدة غراندي ، أتمنى أنكم لن تواصلوا استنزافكم وإسرافكم مع ابن أخي . أنا لا أعطيكُم *أموالي* لكي تُبذّرنها في شراء السكر لذلك المعتوه .

– الخطأ ليسَ خطأ أمي ، قالت أوجيني ، فأنا التي . . .

– أوَ لأنك أصبحتِ بالغة وكبيرة ، قال غراندي مقاطعًا ابنته ، أصبحت تريدين أن تعارضيني؟ فكري ، أوجيني . . .

– والدي ، ابن أخيك ضيف لديك ، ومن المفروض ألا ينقصه شيئا عندَك . . .

– تا! تا! تا! تا! قال صانع البراميل . ابن أخي هنا ، ابن أخي هناك . هلا كففتم عن هذا؟ شارل لا يعني لنا شيئا ، هو لا يملك أدنى فلس ، والده قد أفلس ، وعندما ينتهي هذا السخيف من البكاء ، سوف يخرج من منزلي ، لا أريده أن يشعل فتيل التمرّد وشرارته في بيتي .

– ماذا يعني أن يُفلسَ المرء ، أبتي؟

– أن يُفلس المرء معناها أنه ارتكب أشنع وأبشع ذنب من بين كل الأفعال الشنيعة التي يمكن أن تُطيحَ بشرف المرء .

– لابدّ وأن هذا إثم كبير ، قالت السيدة غراندي ، وأخونا سيكون ملعونًا!

- كُفي عن هذه الأحاديث الدينية! قال غراندي لزوجته ثم أردف قائلا لابنته :

- الإفلاس ، هو سرقة يَحميها القانون للأسف . هذا يعني أن هناك أشخاصا قد أعطوا مبيعاتهم ومنتجاتهم للسيد غيوم غراندي وذلك ثقَةٌ منهم في سمعته وشرفه واستقامته ، لكنه أخذ كل شيء ، ولم يترُك لهم سوى أعينهم ليذرفوا الدموع على ما فقدوه . من الأفضل للمرء أن يسرق الناس في الشوارع على أن يعجز عن الدفع : فاللص الأول يهاجمك ، وبإمكانك حينها أن تدافع عن نفسك ، فهو بذلك يخاطر بنفسه ، أما الثاني . . . على كل ، لقد فقد شارل شرفه بهذا .

كان لهذه الكلمات وقع مهول على قلب الفتاة المسكينة ، فأثقلت كاهلها .

كانت أوجيني مستقيمة تماما كزهرة وُلدت في الغابة ، وكانت تجهل مبادئ العالم الأساسية وأفكاره المخادعة ، ولم تكن تعرف عن السفسطائيين أمثال أبيها شيئا ، وبذلك فقد تقبّلت تفسيره البغيض للإفلاس ، والذي لم يشرح لها ما الفرق بين الإفلاس المتعمّد المحسوب ، والإفلاس غير الاختياري .

- أوه ، أوَلم يكن بإمكانك يا والدي أن تمنع هذا الحدث الشنيع من الوقوع؟

- لم يستشرني أخي في الموضوع ، كما أنه مُدان في أربعة ملايين .

- ما معنى المليون يا أبي؟ سألت أوجيني بسذاجة طفل يعتقد أنه سيتمكن من إيجاد ما يرغب فيه مباشرة .

- مليونان؟ هما مليوني قطعة ذات عشرين فلسا ، وعلى المرء

أن يجمع خمسة قطع من فئة عشرين فلسا ليشكل خمس فرنكات .

- يا إلهي ، يا إلهي ، كيف أمكن لعمّي أن يحصل لنفسه وحده على أربعة ملايين؟ أيوجد شخص آخر في فرنسا بإمكانه أن يجمع هذا القدر الكبير من المال؟ (داعب السيد غراندي ذقنه مبتسما ، حينها) ـ ولكن ، ما الذي سيحصل لابن عمي شارل الآن؟

- سوف يذهب إلى الهند ، أينَ ، بحسبَ رغبة والده ، سيَعمل جاهدًا على تحقيق الثروة .

- ولكن هل يملك ما يكفي من المال ليذهب إلى الهند؟

- سوف أدفع له تكاليف السفر . . . حتى ، نعم . . . حتى نانت .

قفزت أوجيني إلى حضن أبيها .

- آه ، أبي ، كم أنتَ طيب!

وقبّلته كثيرا ، حتى أن البخيل كادَ أن يشعر بالخجل والعار ، هوَ الذي بدأ ضميره في إزعاجه قليلا .

- هل يتطلب تجميع مليون الكثير من الوقت؟

- الكثير الكثير ، قال البخيل ، أتعرفين ما هو النابليون؟ حسنا ، على المرء تجميع خمسين ألف نابليون ليجمع مليونا .

- أمي ، سوفَ نصلي من أجله .

- كنتُ أفكر في الأمر ، قالت الأم .

- هذا ما كان ينقص! أن تنفقن مزيدا من المال عليه! صرخ الأب . أوَ تعتقدن أني أجد مئات وآلاف القطع النقدية مرمية في الشارع لتحصيلها؟

في تلكَ اللحظة ، سمعوا آهة من تأوهات شارل الحزينة ، أكثر مرارة وقسوة مّما قبلها ، وكان صداها قد انتشر في كلّ مكان ، مُجمّدا كلا من أوجيني وأمها في مكانيهما من الحزن .

- نانو ، فلتذهبي لتري إن كان هذا الغبي يحاول الانتحار . ثم استدار نحو زوجته وابنته اللتان تسمّرتا شاحبتين في مكانيهما من شدة الهلع : لا أريد مزيدا من المشاغبات ، أنتما الاثنتان . سوف أترككما الآن ، وأذهب لرؤية التجار الهولنديين الذين يسافرون اليوم ، ثمّ سأذهب عند كروشو لأتحدث معه عن كل هذا .

وذهب غراندي . واستعادت الأم وابنتها أنفاسهما بمجرد أن أغلق الباب خلفه . لم يسبق للبنت ، قبل هذا اليوم ، أن أحست بالامتعاض والإكراه في حضور والدها ، لكنها ومنذ سويعات قليلة ، أصبحت ، وفي كل حين ، عرضة لتغيّرات مهولة في أحاسيسها وأفكارها .

- أمي ، كم لويسا سنربح إذا ما بِعنا قارورة خمر؟

- يبيع والدك خمره مقابل ما بين مائة ومائة وخمسين فرنكا ، وسمعتُ كذلك أن بعضها يصل للمائتين .

- فإذا ما تحصّل على أربع عشرة مائة قارورة خمر . . .

- يا إلهي ، يا طفلتي ، لا أعلم ما الذي سيتغير إن علمنا هذا ، والدُك لم يحدثني يوما عن أشغاله .

- ولكن من المفروض أن أبي غنيّ .

- ربما ، لكن السيد كروشو أخبرني أنه قد اشترى فروافون منذ سنتين ، مما قد سبب له معضلات مادية .

أوجيني ، لم تفهم شيئا بخصوص ثروة والدها ، وتوقفت حساباتها عند ذلك الحدّ .

– لم يكد حتى يراني ، ذاك الوسيم ، قالت نانو بعد أن عادت من عند شارل . إنه مرمي كعجل على سريره ، ويبكي تماما كمادلين . يا له من أسى يتعرض له هذا الشاب الطيب!

– هيا ، فلنذهب لنهدئ من روعه قليلا ، أمي ، وإن لم يرد ، سنعود من جديد .

لم تكن السيدة غراندي لتعارض أي عرض من أوجيني . أوجيني غدت جميلة ، إنها امرأة . صعدت الاثنتان ، بقلبين مرتجفين ، إلى غرفة شارل . كان الباب مفتوحا . لم يكن الشاب يسمع أو يرى أي شيء . غارقا في دموعه ، كان يُصدر تأوهات وشكاوي غير مفهومة .

– لا بدّ وأنه يحب والده كثيرا! قالت أوجيني بصوت منخفض .

كان من المستحيل ألا ينتبه المرء لوقع آثار آمال قلب أوجيني على نبرة صوتها المتحدثة والتي تعكس قلبًا مُحبًا وجاهلاً بحبّه . وبذلك نظرت السيدة غراندي لابنتها نظرة ملؤها عاطفة الأمومة ثم همست لها بصوت منخفض : احذري ، سوفَ تقعين في حبه .

– أن أُحبَّه؟ آه لو سمعت ما الذي قاله والدي!

انتبه شارل لوجود زوجة عمّه وابنته ، فاستدار نحوهما قائلا :

– لقد فقدت أبي ، أبي المسكين . لو أنه فقط أسرّ إليّ بالمعضلة التي تشغل باله ، لعملنا كلانا على حلّها . ربّاه! والدي المسكين ، لقد كنتُ جدّ موقن من رؤيته مجدداً لدرجة أني ، أعتقد ، قد قبلته بطريقة باردة .

وقطعَ نواحُه كلامَه .

– سوف نصلي وندعو من أجله ، قالت السيدة غراندي ، استسلم لإرادة الربّ يا بني .

- تشجّع يا ابن عمي ، أعلم أن خسارتك وما فقدته لا يُصلّح ، ولا يمكن استعادته ، لذا فالأجدر بكَ الآن أن تفكر في إنقاذ شرفك . . .

وبفطرتها ، تلكَ الخصلة التي تتحلى بها المرأة التي تُحسن التعامل بها مع كل شيء ، حتى وهي تهدئ من روع أحدهم ، أرادت أوجيني أن تخفف من آلامه بأن تشغله بذاته أولا .

- شرفي؟ . . . صرخ الشاب وهو يبعد خصلات شعره بحركة سريعة ، ثم جلس على السرير وقال : آه صحيح ، لقد قال عمّي أن والدي قد أفلس . وحينها ، صرخ صرخة مدوية وأخفى وجهه بين يديه : اتركيني يا ابنة عمي ، اتركيني ، يا إلهي ، يا إلهي ، فلتغفر لوالدي! لا بدّ وأنه عانى كثيرا!

كان هناك شيء يجذب الانتباه في التعبير عن هذا الألم اليافع ، الحقيقي ،العفوي والخالي من أي حسابات . كانَ ذلكَ ألمًا طاهرا نقيا ، تفهّمه قلبا أوجيني ووالدتها عندمَا طلب منهما شارل أن يتركاه وحيدًا . نزلتا السلالم وعادتا إلى شغلهما ، وعملتا لساعة من الزمن دون أن تنبسا ببنت شفة . لم يخطر يومًا ببال هاتين المخلوقتين المنشغلتين بصمت ووحدة بلا انقطاع في عملهما أنه سيصل يوم تشهدان فيه حدثا مروعا ومأساويا كهذا .

- أمي ، هل سنعد حدادًا لعمّي؟

- سيقرّر والدك بخصوص هذا الشأن ، قالت السيدة غراندي .

ثم غرقتا من جديد في صمتهما .

أوّل رغبة شعرت بها أوجيني كانت رغبتها في مشاركة ابن عمها مصابه ، من خلال إعداد مراسيم الجنازة .

على الساعة الرابعة ، دق الباب دقات أفجعت قلب السيدة

غراندي فسألت ابنتها : ما خطبُ والدك؟

دخلَ البخيل وعلامات السعادة بادية على محياه . بعد أن نزع قفازاته ، وفركَ يديه بحماسة تجول في الصالة مراقبا الوقت . ثم انسلّ منه السرّ الذي كان يحاول إخفاءه .

- زوجتي ، قال السيد غراندي دون تلعثم ، لقد أمسكتهم جميعًا . لقد بعتُ خمرنا! كنت أعلم أن الهولنديين والبلجيكيين سيرحلون هذا الصباح ، فتجولت بالجوار ، بالقرب من الفندق ، متداعيا الحماقة . ثم جاءتني الفكرة . إن جميع ملّاك أشجار الكرم يخبئون محاصيلهم ويريدون أن ينتظروا ، وأنا لن أمنعهم من ذلك ، فليخبئوا وينتظروا كما يشاءُون . إلا أني حين رأيت البلجيكي وقد بدت عليه أمارات اليأس استغللت الأمر لصالحي ، وبِعتُه محاصيلنا بمائتي فرنك للقارورة ، ودفع لي نصف المبلغ نقدًا على الفور . سيدفع لي الثمن ذهبا . وقد جهّزنا السندات ، خذي هاهي ستة لويسات لك . وخلال ثلاثة أشهر ستنخفض أثمان الخمور!

قال السيد غراندي هذه الكلمات الأخيرة بطريقة هادئة لكنها جد متهكّمة لدرجة أنه لو اجتمع جميع سكان سومور في تلك اللحظة أمامه وهو يُعلن خبر البيع هذا لارتجفوا من هول ما سمعوا . ولكان هلعهم ذاك قد خفض أسعار الخمر إلى خمسين بالمائة .

- هل تملك ألف قارورة هذا العام ، والدي؟

- أجل ، بنوتتي .

كان استعمال هذه الكلمة دليلا قاطعا على سعادته المفرطة .

- أوَ يجعل هذا أرباحك تصل إلى مائتي ألف قطعة ذات عشرين فلسًا؟

- أجل آنسة غراندي .

- آه ، وبهذا إذن ، يا والدي ، ستتمكن من مساعدة شارل!

إن دهشة ، وغضب ، وتعجب بلشاصر عندَ رؤيته للكتابات المقدسة على الحائط لم تكن لتضاهي البرود والجفاء الذي اعتلى غراندي في تلك اللحظة ، هوَ الذي لم يعد يفكر في ابن أخيه المقيم في داره ، هاهو ذا يجده مقيما في عقر قلب ابنته وفي حساباتها .

- أه ، هكذا إذن . منذ أن وضع ذلك الأبله قدميه في بيتي انقلب كل شيء رأسا على عقب . أنا لا أريد كل هذا . في سني هذا ، أعتقد أنني أعرف بما فيه الكفاية كيف أتصرف . كما أنني لا أتلقى دروسا لا من ابنتي ولا من أي شخص آخر . سأقوم تجاه ابن أخي بما أعتقد أنه من اللائق فعله ، ولا تحشرا أنفيكما بالأمر . . . أمّا أنتِ أوجيني ، قال وهو يتجه إليها ، لا تحدثيني من هنا ولا حقا عنه ، وإلّا فسأرسلك إلى دير دي نوايي مع نانو ، ولن أتأخر في فعل ذلك . أينَ هو إذن ذلك الفتى ، ألم ينزل؟

- لا ، لم ينزل بعد ، ردّت السيدة غراندي .

- وما الذي يفعله إذن؟

- إنه يبكي أباه ، ردّت أوجيني .

نظر السيد غراندي إلى ابنته دون أن يجد ما يقوله لها . فهو يحمل بداخله ، رغم كل شيء ، قليلا من معالم الأبوة . وبعدَ أن دارَ دورة أو اثنتين في الصالة ، اتجه بسرعة إلى مكتبه ليتأمل أمواله : ألفي فدّان من الغابات التي تحصّل بفضل حطبها على ستمائة ألف فرنك ، بالإضافة إلى محاصيل أشجار الحَور ، ودَخل العام الماضي والسنة الحالية ، علاوة على المائتي ألف فرنك المُحصّلة من الخمور التي باعها لتوه ، وبذلك كوّن كومة من تسعمائة ألف

فرنك. كانت العشرون بالمائة التي يمكن أن يكسبها بفضل الريع الذي وصل لثمانين فرنكا، تغويه. قام بحساب فرضياته على الجريدة ذاتها التي كُتبَ عليها إعلان وفاة أخيه، وهو يسمع بدون انتباه وتركيز، تأوهات ابن أخيه. دقّت نانو على الحائط لتدعو السيد غراندي إلى العشاء. في آخر درجة من درجات السلّم فكّر قائلا: بما أني سأكسب فوائدي لاحقا، سأتدخل في هذه الصفقة. في سنتين، سأحصل مجدداً على الخمسة عشر مائة ألف (مليون ونصف) فرنك، وسأسحبها من باريس على هيئة قطع ذهبية.

- أينَ هو ابن أخي؟

- لقد قال أنه لا يريد أن يأكل الآن، قالت نانو. وهذا غير جيد لصحته.

- لكنه اقتصادي وجيّد بالنسبة لجيبي، ردّ السيد. ثم إنه لن يُمضي حياته في البكاء، فالجوع يُخرجُ الذئب من غابته.

عمّ صمتٌ مريب بعدها على طاولة العشاء. وبعدَ أن انتهوا، ووضبوا كل شيء من جديد، سألت السيدة غراندي: يا رفيقي، ألا تعتقد أنه يتوجب علينا الآن أن نُعدَّ لجنازة أخيك؟

- في الحقيقة، مدام غراندي، أنتِ لا تفلحين إلا في خلق سُبُلٍ جديدة للمصاريف. فالحدَاد يحمله المرء في قلبه ولا ضرورة لأن يجسده بعاداته.

- لكن حداد أخيك أمر ضروري، والكنيسة تأمرُنا...

- بإمكانكِ أن تشتري حدادك بالستة لويسات التي أعطيتك إياها منذ قليل.

رفعت أوجيني عينيها للسماء دون أن تنبس بكلمة. لأول مرة في حياتها، استيقظت فجأة ميولها النائمة، المكبوسة، التي كانت

مُهانة في كل وقت . كانت هذه الليلة تشبه ، ظاهريا ، آلاف الليالي من حياتهم الروتينية المملة ، لكنها كانت حتمًا ، أكثرها هولا . عملت أوجيني بجدّ ، بجانب أمها ، دون أن ترفع رأسها عمّا تحيكه . أما السيد غراندي فكان مشغولا بحساباته التي ستُبهرُ في يوم الغد جميع سكان سومور . لم يأتِ يومها أحدهم لزيارة العائلة الصغيرة . في تلك الأثناء ، كانت المدينة بأكملها تتحدث عن السيد غراندي ، وإفلاس أخيه ، ومجيء ابن أخيه للإقامة عنده . ولكي يستجيب مُلاّك الخمور وأشجار الكرم لحاجتهم في الثرثرة عن مصالحهم المشتركة اجتمعوا لدى السيد دي غراسان ، ليدعوا على السيد غراندي بالشر مجتمعين بعدَ أن أهلكَ حساباتهم ونكث عهودهم .

– هيا فلنذهب للنوم ، سأذهب لأتمنى لابن أخي ليلة سعيدة نيابة عنكم ، وسأرى إن كان في حاجة لشيء ما .

وقفت السيدة غراندي على عتبة الطابق الأول لتسترق السمع على المحادثة التي جرت بين شارل وزوجها . أمّا أوجيني التي غدت أكثر جرأة من أمها ، فتخطتها وتقدّمت بدرجتين على السلم .

– آه يا ابن أخي ، أعلم أن قلبك يتآكل أسى . أجل فلتبكِ ، هذا طبيعي . فالأب يبقى أبًا . لكن على المرء أن يصبر على آلامه . أنا أهتم بك وبأمورك بينما أنتَ مشغول ببكائك . ألا ترى أني قريبٌ طيّب؟ هيا ، تحلى بقليل من الشجاعة . هل تريد أن تحتسي كأسا من الخمر؟ لا يُكلف الخمر شيئا في سومور ، فنحن نُقدمه كما يُقدّم الشاي في الهند . لكن المكان مظلم هنا ، هذا ليسَ جيدا ، فعلينا أن نرى جيدا ما الذي نحن بصدد فعله ، دائما . (اتجه غراندي إلى المدفأة) ما الذي أراه! من أينَ لهم بهذا البوجيه

بحق الجحيم! تكاد النذلات أن تنتزعن أرضية منزلي فقط ليُعددن بيضا لهذا الفتى .

عند سماعهن لهذه الكلمات ، هرولت أوجيني ووالدتها نحو غرفهن ، وحَشَون أنفسهن بين أغطية أسرتهن ، تمامًا كما تركض الفئران بهلع لتختفي في جحورها .

- هل لديكِ كنز ما ، مدام غراندي؟ سأل الرجل وهو يدخل غرفة زوجته .

- يا رفيقي ، أنا أدعو وأصلي ، هلا انتظرت حتى أنتهي؟

- فلتذهب صلواتك إلى الجحيم ، قال السيد غراندي بجفاء .

لا يؤمن البخلاء أبدًا بحياة قادمة بعدَ الموت ، فكلّ ما يفكرون به هو الحاضر . توضح هذه الفكرة الكثير مما يحدث في الفترة الحالية ، حيث يُسيطر المال على القوانين ، والسياسة والأخلاق أكثر من أي وقت مضى . كل المؤسسات والكتب والرجال والعقائد تتآمر لتنشر الإيمان بحياة مستقبلية ارتكز عليها البناء الاجتماعي منذ ثمانية عشر قرنا . ففي أيامنا هذه ، لم يعد التابوت تحَوّلا يُخشى . أما المستقبل الذي كان ينتظرنا بعد الموت ، فقد انتقل إلى حاضرنا . غايتنا الآن هي أن نصلَ بجميع الوسائل الشرعية وغير الشرعية إلى الجنة الأرضية المكتنزة بالرفاهية والمتع المترفعة ، أن نُحجّر قلوبنا وَنُشبع أجسادنا بالِملكيات العابرة ، كما كنا نعاني سابقا من عذاب الحياة العظيم ، حيث كانت الفكرة السائدة تُعنى بالممتلكات الخالدة وتحرص على جمعها . وهي في الحقيقة فكرة مكتوبة في كل مكان ، حتى في القوانين التي تسألُ المُشرّعَ : ما الذي تدفعه؟ بدل أن تسأله : ما الذي تُفكر به؟ فعندما تنتقل هذه الفكرة من البرجوازية إلى عامة الشعب ، كيف سيغدو حال البلد؟

- سيدة غراندي ، هل انتهيت؟ سأل البخيل .
- يا رفيقي ، أنا أدعو لكَ .
- حسن إذن ، عمتِ مساء . سنتحدث غدًا صباحًا .

وغرقت المرأة المسكَينة في نوم عميق تمامًا كما ينام ذلك التلميذ الذي لم يحفظ دروسه ولم يحضر واجباته ، فينام وهو يخشى أن يستيقظ على وجه معلّمه الغاضب . وفي الوقت الذي انتبهت ولفت نفسها جيدا في أغطيتها حتى لا تسمع شيئا ، اندست أوجيني بجانبها في السرير بقدمين حافيتين وقميص نومها ، وقبّلت جبينها .

- أوه ، أمي العزيزة ، لا تقلقي ، سأخبره أنني أنا من فعلت ذلك .

-لا ، وإلا فسيرسلك إلى نوايي . دعيني أتحمل مسؤولية ذلك ، فهو لن يأكلني أنا .

- هل تسمعين يا أماه؟
-ماذا؟
- إنه لا يزال يبكي . . .
- اذهبي لتنامي ، يا ابنتي . وإلا فسينهش البرد قدميك .

وهكذا مر ذلك اليومُ الجلل الذي سيترك بصمة معتبرة على حياة الوريثة الغنية الفقيرة التي لم يَعُد نومها من يومها مكتملا أو هانئا صافيا كما كان من قبل .

يحدث كثيرًا أن تبدو أحداث حياة الإنسان غير قابلة للتصديق مع أنها حقيقية . ولكن أوَ ليس من عاداتنا أننا نغفل عن إلقاء بعض النور النفسي على مشاعرنا العفوية حيث أننا غالبا ما لا نبحث حتى عن تفاسير للأسباب الغامضة التي جعلت تلك

المشاعر تبدو بهذه الأهمية؟ ربّما كان من المفترض أن تُحلل أوجيني هذه العاطفة العميقة، التي غدت، كما سيقول بعض المتهكمين، مرضًا سيؤثر على وجودها بأكمله. يُفضل الكثير من الناس أن يُنكروا حبكَة أحداث حياتهم على أن يقيسوا ويُقيّموا قوة الروابط والعُقد والصِلات التي تربطُ بإحكام حدثا بآخر، بترتيب عقلاني. وبهذا، سيبدو ماضي أوجيني، بالنسبة لملاحظي الطبيعة الإنسانية، كدليل على سذاجتها وغياب تفكيرها وانسياب روحها المفاجئ والسريع. فكلّما كانت حياة المرأة هادئة كلّما تفشت في روحها تلكَ الشفقة الأنثوية التي تعد أكثر أحاسيس المرأة ذكاء ومهارة.

ولذا، فإن أوجيني التي عكّرت أحداث اليوم صفاء ذهنها، استيقظت عدة مرات في الليل، لتطمئن على الأصوات الصادرة عن غرفة ابن عمها، معتقدة أنها تسمَع زفيره وتنهداته التي يرن صداها في قلبها منذ ليلة البارحة. أحسّت أنه بزفيره يطرُد بعض الأسى من ذاته، ورأته فيما يرى النائم ميتا بسبب الجوع. وبذلك، مع حلول الصباح، اعتقدت أنها سمعت حتمًا نداءً مهولا. فأسرعت بارتداء ملابسها وهرولت إلى غرفة ابن عمها لتتفقده. وجدت بابه مفتوحًا، وشمعته منطفئة بعد أن احترقت برمتها. أما شارل، فإن طبيعته الإنسانية غلبته، وهاهو ذا ملقى على الكنبة، ورأسه متموضع على السرير، كان يحلم تلكَ الأحلام التي تنال من أصحاب المعدات الفارغة. استطاعت أوجيني حينها أن تبكي براحتها، وتمكنت من تأمل ابن عمها ذو الوجه الجميل الذي نَحتَ عليه الأسى آثاره، عيناه المنتفختان بسبب الدموع التي بدت وكأنها لاتزال تنساب منهما رغم أنهما انغلقتا مستسلمتين للنوم.

أحسّ شارل بوجود ابنة عمه ، ففتح عينيه ، ورأى نظرتها الحنون :

- أعتذر ، ابنة عمي ، قالها من دون وعي منه لا بمكانه ولا بالوقت .

- هناكَ قلوب تصغي إليكَ ، يا ابن عمي ، ونحن نعتقد أنك في حاجة لشيء ما . عليكَ أن تنام ، ستتعب نفسك إن بقيت هكذا .

- هذا صحيح .

- حسنا إذن ، وداعًا .

وبذلك ، تسللت أوجيني خارج الغرفة ، وهي سعيدة وخجولة لكونها قدمت إليها . وَحدها البراءة من تتجرأ على خلق جسارة مماثلة في النفوس . فإذا ما علّمناها ، سيكون بإمكان الفضيلة أن تقوم بحسابات مثلها مثل الرذيلة .

أوجيني التي لم ترتجف أمام ابن عمها ، بالكاد كانت تتمالك نفسها على قدميها عندما عادت إلى غرفتها . حيث أن حياة الجهل والركود التي كانت غارقة فيها توقفت فجأة ، وانهالت عليها مائة فكرة وتأنيب . أي انطباع سيحمله عني؟ سيعتقد أنني أحبه! وكان ذلك بالضبط أكثر ما كانت ترغب فيه . فالحب الصريح الجليّ يملك بصائر تجعله يعي أن الحب يُثير الحب ويستجلبه . وبدا حدث دخولها وحدها وبدون إنذار لغرفة شاب أمرًا مهولا بالنسبة لفتاة وحيدة عفيفة مثلها . أوَلا ينطوي الحب على أفكار وأفعال تضاهي عندَ بعض النفوس خطوبة مقدسة!

بعدَها بساعة من الزمن ، اتجهت عندَ أمها وساعدتها على ارتداء ثيابها كما جرت العادة . ثم اتجهتا معًا إلى مكانهما المعتاد

بجانب النافذة ، وانتظرتا قدوم غراندي بذلك الانقباض الذي يُجمّد القلب أوَ يُدفّئه ، يقبضه أو يمدده ، كل بحسب شخصيته ، وذلك حين ينتظر المرء بخشية حدثا مريرًا أو عقوبة ما . . . وهو إحساس جد طبيعي لدرجة أن الحيوانات الأليفة تشاركنا إياه ، وتستشعره حيث أنها تصرخ طويلا عند معاقبتها ولو عقوبة صغيرة ، وتسكت متجاهلة الألم إن هي جرحت نفسها بنفسها بسبب غفلتها أو سهوها .

نزل البخيل إليهما ، وتحدث بطريقة سطحية إلى زوجته ، وقبّل أوجيني ، من دون أن يبدو عليه أنه يفكر في تهديدات ليلة البارحة .

– كيفَ أصبح حال ابن أخي؟ يبدو أنه لا يزعجنا بأنينه الآن .

– إنه نائم سيدي ، ردّت نانو .

– هذا أفضل ، الآن هو ليسَ بحاجة إلى»بوجيه» . قال غراندي بنبرة ساخرة .

لم تمرّ هذه الرحمة غير المعتادة ، وهذه السعادة المُرّة دون أن تنتبه لها السيدة غراندي ، التي نظرت إلى زوجها متفحصة إياه بتمعن . حمل السيد غراندي قفازاته ، وقبعته ، وقال :

– سوف أذهب للقاء آل كروشو .

علّقت بعدها زوجته قائلة : أوجيني ، لابدّ وأن والدك يخطط لشيء ما .

فعلا ، لم يكن غراندي ينام كثيرا ، بل كان يخصص معظم لياليه للحسابات الممهدة لنظرياته ، وملاحظاته ، ومخططاته التي تنطوي على دقة تضمن نجاحه الدائم الذي دائما ما أبهر سكان سومور .

كل قـوة أو قـدرة أو سلطة بشـرية ترتكز على الصبـر والوقت . فالشخصيات القوية العظيمة ترغَب وتسهَر . وحياة البخيل هي تمرين مستمر للقدرة البشرية التي وُظفت لصالح الشخصية . وهي لا ترتكز إلا على شعـورين اثنين : حبّ الذات ، والمصلحـة ، لكن باعتبار أن المصلحة جزء صلد من حب الذات ، فإنّ حب الذات والمصلحة هما جزءان من شيء واحد متكامل : الأنانية . فمن هنا ينبع كل الفضول المدهش الذي يثيره البخلاء . كل يُمسك بزمام خيط إحدى الشخصيات التي تُهاجم كل المشاعر الإنسانية ، مختصرة إياها كلها . أينَ الإنسان معدوم الرغبة ، وأي رغبة اجتماعية يمكن حلّها من دون مال؟ ففعلا ، كما تكهنت زوجته ، كان غراندي يخطط لشيء . كان يحمل في أعماقه ، مثله مثل بقية البخلاء ، حاجة ملحة ليلعب بالآخرين ، محاولا تحصيل نقودهم بطريقة شرعية .

أن نفرض أنفسنا على الآخرين ، أوَ ليس هذا فعلا يعكس السلطة؟ أن نعطي باستمرار لأنفسنا الحق في احتقار من هم أضعف منا ، والذين يتركون أنفسهم محلّ نهب وافتراس من غيرهم؟ أوه ، من ذا الذي استوعب ذلك الحمل النائم بسلام عند أقدام الرب ، إنه لأكثر شعارٍ شجيّ مثير للعاطفة معبر عن جميع ضحايا الأرض ، وعن مستقبلهم ، باختصار ، عن معاناتهم وضعفهم المعظمين؟ هذا الحمل ، لو وقع بين يدي بخيل ، لكان قد سمّنه حتى يكتنز لحمًا وشحما ، ولحبسه في الحظيرة ، ولقتله وطهاه ، ولتناوله محتقرًا إياه . فعَلف البخلاء يتكون من المال والتحقير .

خلال الليلة المنقضية ، اتخذت أفكار السيد مسارا آخرا : وهذا

يفسّر رأفته ورحمته على الطاولة في الصباح . فلقد أعدّ خطة محكمَة ليهزأ بالباريسيين ، ليعصرهم ويُديرهم ويَعجنهم وليجعلهم ينتقلون جيئة وذهابا ، ليمدّد آمالهم ، ويستمتع باستغلالهم ، هو صانع البراميل العجوز ، في قلب صالته الرمادية . كان ابن أخيه قد شغله ، فقد كان يريد إنقاذ شرف أخيه الميت من دون أن يكلفه ذلك لا هو ولا ابن أخيه أي فلس . سَوف تنتقل أمواله من مخازنه مؤقتا لمدة ثلاث سنوات ، حينها لن يكون عليه سوى أن يُدير أملاكه ، وبذلك كان يلزمه غذاء لنشاطه الخبيث هذا ، وقد وجد غايته في إفلاس أخيه . وبما أنه لا شيء لديه ليضغطه ، فقد أراد أن يفتت الباريسيين لحساب ابن أخيه ، ولكي يظهر في الصورة بمظهر الأخ الفاضل . لم يكن شرف العائلة يهمّه فعليا لدرجة أن عزيمته يمكن تشبيهها بالحاجة التي يُبديها اللاعبون برؤية إحدى الفرَق التي لا تعنيهم في الرهان تُحسنُ اللعب . وكان هو في حاجة لآل كروشو الآن ، إلا أنه لم يكن يرغب في الذهاب بحثا عنهم ليبدأ في تمثيل الكوميديا التي انتهى للتو من صياغة حبكتها ليكون في الغد ، من دون أن يكلف نفسه فلسا ، موضع إعجاب مدينته بأسرها .

خلال غياب والدها ، استمتعت أوجيني بقدرتها على رعاية محبوبها بحرية ، وذلك بأن تُفضي عليه ، من دون خشية ، مكنونات شفقتها ورحمتها به ، ويعد هذا من أسمى فضائل المرأة ، وهي الفضيلة الوحيدة التي تريدُ أن تجعله يحسّ بها ، والوحيدة التي تسامحه على أخذه إياها منها . كانت أوجيني تذهب لتتفقد تنفس ابن عمها من ثلاث إلى أربع مرات ، لترى إن كان ينام ، أو إذا ما كان مستيقظا ، ثم كانت تحضر له لفطورهِ ، عند استيقاظه ،

الكريمة والقهوة والبيض ، والفواكه والأطباق والكأس ، وهي أشياء كانت تعني لها الكثير . كانت تصعد الدرج القديم بخفة لتتنصت على الأصوات الصادرة من خلف باب ابن عمها : أو كان يغير ملابسه؟ أو لا يزال يبكي؟

- ابن عمي؟

- نعم يا ابنة العم .

- أو تريد أن تتناول فطورك في الصالة أو في غرفتك؟

- حيثما تريدين .

- كيف تحسّ نفسكَ الآن؟

- ابنة عمي العزيزة ، أشعر بالخجل من كوني جائعا .

بالنسبة لأوجيني ، فإن هذه المحادثة الصغيرة من خلف الباب كانت بمثابة فصل من رواية ما .

- حسنا إذن ، سوف نحضر لك إفطارك إلى غرفتك ، وذلك حتى لا نزعج والدي . . .

- نانو ، هلا ذهبت لتوضبي غرفته؟

أما هذه السلالم التي كانت تمشي عليها صعودا ونزولا محاولة جاهدة ألا تصدر بها أية حركة مشوشة تُسبب ضجيجا ، فقد فقدت لحتها القديمة البالية وبدت منيرة لأوجيني ، السلالم بدَت لها وكأنها تتحدث ، وكأنها شابّة يافعة ، تماما كَحبّها الذي كانت تخدمه .

أما والدتها ، والدتها المتسامحة الطيبة ، فكانت تريد أن تشاركها جنون حبها ، وبعدما كانت غرفة شارل جاهزة ومرتبة ، كانت تتجه هي وابنتها إليها حتى ترافقانه في حزنه ووحدته . أوَ لم يأمرهما الإحسان المسيحي بأن تطيبَا من خاطره؟ بحثت المرأتان

عميقا في الدين لتجتثا منه مغالطات تبرر لهن انحرافاتهن مع شارل . وبذلك أحس شارل غراندي نفسه محطَّ العناية الأكثر حنانًا وعاطفية . واستشعر قلبه المتألم بحيوية وفعالية لطف هذه الصداقة الناعمة والتعاطف الرائع الذي عبّرت عنه هاتان الروحان المقيّدتان بمجرد أن وجدتا حريتهما في المعاناة ، والتي تعد منطقة اللعب التي اعتادتا عليها . سعدَت أوجيني بحصولها على إذن والدتها في ترتيب وتوضيب ملابس ابن عمها وأدوات زينته التي أحضرها معه ، وبذلك تمكنت من أن تستمتع بكل تفصيل مما وقعت عليه يداها ، و كانت تمسك كل أدواته مطولا مُدعية أنها تتفحصها . لم يكن ذلك ليمر على شارل دون أن يداعبَ اهتمام ابنة عمّه العميق به مشاعره ، ويُحنّنَ قلبه ، فقد كان يعرف المجتمع الباريسي كفاية ليستنتج أنه لو كانَ بينهم الآن ، لكانت كلّ القلوب متحجرة باردة ناحيته . بدت أوجيني له في أوج جمالها المنفرد ، وأُعجب كثيرا حينها ببراءتها وأخلاقها التي كان يسخر منها قبل أيام . ولذلك ، فإنها حين حملت بكل براءة من يدي نانو إبريق القهوة الطيني خاصتهم ، حتى تسكب له القهوة بالكريمة ، وهي تلقي عليه نظرة حنونا طيبة ، فإن عينيه اغرورقتا بالدموع ، فأمسك يدها بلطف ولثمها .

- حسنا ، ما خطبك الآن؟ سألته أوجيني .

- إنها دموع الشكر والعرفان ، قال شارل .

عندمَا نظرت إلى ابن عمها ، كانت لا تزال محمرة خجلا ، لكن ، على الأقل ، كانت تحاول أن تخفي تلكَ الفرحة العامرة التي غمرت قلبها ، إلا أن عينيهما عبّرتا وتبادلتا نفس الشعور ، تمامًا مثلما ذابت روحاهما في فكرة واحدة : كان المستقبل بين أيديهما .

استلذ شارل هذه العاطفة اللطيفة بطريقة أعمق لكونه غارقا في حزنه العظيم ، خاصة وأنه لم يَكن يتوقعها .

أيقظ الطرق على الباب المرأتين ، وأعادهما إلى مكانيهما . لحسن الحظ ، تمكنتا من الوصول في الوقت المناسب ، لأنه لو حدث ولحهما السيد غراندي في السلالم ، لراودته الشكوك . بعد الإفطار ، وصَل من فروافون الحارس الذي لم يُقدم له السيد غراندي تعويضه الذي وعده إياه بعد ، وأحضر في يده أرنبة ، وحجلتين اصطادهما في الحديقة ، بالإضافة لعدد من أسماك الإنكليس .

- إه إه ، كورنوايي ، لقد جاءَ في الوقت المناسب تمامًا . هل هذه الطرائد صالحة للأكل؟

- بلى ، سيدي العزيز الكريم ، لقد اصطدتها منذ يومين .

- هيا نانو ، خذي كل هذا من يد السيد وحضريه لنا ، سوفَ أدعو اثنين من آل كروشو على العشاء .

فتحت نانو عينيها مندهشة ، ونظرت إلى الجميع ، متسائلة :

- حسنا ، ومن أينَ لي بلحم الخنزير المقدد وبالتوابل؟

- زوجتي العزيزة ، هلّا أعطيتِ الفرنكات الستة لنانو؟ وذكّريني من فضلك أن أستخرج بعض النبيذ الجيد من القبو .

- حسنا إذن ، سيد غراندي . . . قال الحارس الذي حضّر خطبته مسبقا في ذهنه حتى يُحاول المطالبة برواتبه من السيد .

- تا ، تا ، تا ، تا ، قال السيد غراندي ، أنا أعلم ما الذي تريد قوله ، سنرى في هذا الشأن لاحقا . . . زوجتي العزيزة ، هلاّ أعطيته مائة فلس ، قال متجها للسيدة غراندي .

كانت السيدة غراندي جدّ سعيدة بقدرتها على تحقيق السلام بفضل إحدى عشر فرنكا . كانت تعلم أن غراندي لن يتحدث

مجددا عن النقود لمدة خمسة عشر يومًا ، بعدَ أن جرّدها من النقود التي أعطاها إياها ، قطعة بعدَ قطعة .

- تفضل ، كورنوايي ، قالت السيدة غراندي وهي تضع عشرة فرنكات بين يديه ، سوف ندفع لكَ البقية في الأيام المقبلة .

لم يستطع كورنوايي أن يقول شيئا ، فغادر .

- سيدتي ، قالت نانو وهي تحمل قفتها ، لن أحتاج سوى لثلاث فرنكات ، بإمكانك أن تحتفظي بالبقية .

- حضري عشاءً جيدا نانو ، فسينزل ابن عمي لاحقًا . قالت أوجيني .

- لا بدّ وأن هناك أمرًا جللا سيحدث ، قالت السيدة غراندي ، فمنذ زواجنا ، هذه المرة الثالثة التي يدعو فيها والدكِ أشخاصا على العشاء .

عندَ حوالي الساعة الرابعة ، وبعد أن انتهت أوجيني ووالدتها من فرش الطاولة التي زينها بعدها السيد غراندي ببضع قارورات من النبيذ الفاخر التي يحتفظ بها الريفيون بشغف ، نزل شارل ودخل للصالة . كان الشاب شاحبًا وكانت نظراته وحركاته ، وصوته تنم عن حزن دفين لبق . لم يكن يتلاعب أو يتظاهر بالألم ، فقد كان يُعاني فعليا ، وقد طفا على ملامح وجهه حجاب من الوجَع ، أعطاه تلك اللمحة التي تُعجب النساء كثيرا . أحبّته أوجيني لذلك أكثر فأكثر . فلربّما كان الأسى هو ما قرّبهما من بعضيهما . شارل لم يعد ذلك الشاب الغني الوسيم المتقوقع على نفسه في هالة وفي مركز لا يمكنها أن تصل إليهما ، وإنما غدا قريبًا غارقا في بؤس شديد . البؤس يولّد المساواة . كان شارل وأوجيني يتحدثان ويسمعان بعضهما البعض بواسطة أعينهما وحسب . فالغندور

اليتيم الذي تجرّد من كل ماله ، جلس في ركن ، هادئا وفخورا ، إلا أن نظرات أوجيني الحنونة كانت تداعبه من حين لآخر محاولة إبعاده عن أفكاره الحزينة ليرافقها في حقول الأمل والمستقبل التي تحلم بها . في ذلك الحين ، كانت المدينة أجمع منشغلة بالعشاء الذي يعده غراندي على شرف كروشو أكثر مما انشغلت به الليلة المنقضية بأمر مبيعات الخمور التي تعدُ بمثابة جريمةٍ في حق زرع الكرْم .

أمّا آل دي غراسان ، فإنهم علموا بموت والد شارل وبإفلاسه ، فقرروا أن يتجهوا ذلك المساء لتعزية صديقهم في مُصابِه ، وليعلموه عن خالص نياتهم في صداقته ، وليستفسروا في آن واحد عن الأسباب التي قد جعلت آل غراندي يدعون آل كروشو إلى العشاء .

على الساعة الخامسة تماما ، وصلَ السيد س . دو بونفون وعمّه كاتب العدل مرتدين أجمل ثيابهما . جلس المدعوان وشرعَا في تناول ما وضع أمامهما . جلس السيد غراندي بوقار ورزانة ، وكان شارل صامتًا تماما مثل أوجيني ، لدرجة أن هذا العشاء كان عشاءً جنائزيا بامتياز . عندمَا انتهوا من تناول الطعام ، قال شارل للسيد والسيدة غراندي : اسمحا لي أن أنسحب إلى غرفتي ، فأمامي رسائل طويلة وأليمة يتوجّب عليّ كتابتها .

– لكَ ذلك يا ابن أخي .

وبعدمَا تأكد السيد غراندي من أن شارل ذهب فعليا ، وأنه لم يعد في إمكانه سماعه لكونه غارقا في كتاباته ، نظر السيد إلى زوجته نظرة خبيثة ماكرة وقال :

– مدام غراندي ، تأكدي من أن الأحاديث التي عليّ أن

أخوض فيها مع السادَة هنا ستبدو لك وكأنها تناقش بلغة لاتينية لا يمكنك استيعابها . كما أن الوقت تأخّر ، أعتقد أنه من الأفضل لك أن تلتفي في دفء أغطية سريرك لتنامي . ليلة سعيدة ، بنيتي .

قال هذا وقبّل أوجيني ، وغادرت بذلك المرأتان . وهنا بدأ المشهد الذي استعمل خلاله السيد غراندي ، أكثر من أي وقت مضى في حياته ، كل الدهاء والحيل التي تعلّمها بفضل انغماسه في عالم الرجال ، والتي كلفته أوزار التسمية التي أطلقها عليه أولئك الذين آذاهم وافترسَ حيواتهم بطريقة بشعة ووحشية ، فكانوا يدعونه *بالكلب العجوز* .

لو أن رئيس البلدية السابق ، السيد غراندي ، قد رفع سقف طموحه ، لو أن ظروفا سعيدة مهّدت له الطريق ليصل إلى طبقات ومنازل أعلى في المجتمع ، لو أنه بُعثَ إلى المجالس التي تناقش على مستواها قضايا الدول ، لو أنه وظف ذكاءه الباهر ودهاءه فيها ، فمن المؤكد أن فرنسا كانت لتستفيد كثيرًا منه . إلا أنه من الممكن أيضا أنه كانَ ليبدو مضمحل الذكاء ، ولفقد كل حيلته ، لو أنه تعامل مع غيره بعيدا عن سومور .

فلَربما تكون أرواح البشر مثل تلكَ الحيوانات التي لا تتوالدُ إن هي نُقلت إلى غير مناطقها حيث المناخ التي ترعرعت فيه ، واعتادت عليه .

- سسسسسسي . . . ييييييي . . . سسسسسسسييييدي ، الرررررر . . . الررررررئيس ، لقـقـقـقـقـقـقق . . . لقـقـقـقـقـقـد قـل . . قل . . .قل . . . قللللللت أ . . . أ . . . أن . . . الإف . . . الإف . . . الإفلاااااااس . . .

إن التمتمة التي يتكلّف السيد غراندي جاهدًا في استعمالها

والتي أصبحت تبدو طبيعية فيه ، مثلها مثل الطَرش الذي كان يدّعيه في الأيام الممطرة ، أصبحت في هذا الظرف جد مُتعبة بالنسبة للسيدين كروشو ، حيث كانا يعبسان من دون علم منهما بينما هو يتحدث ، وكانا يبذلان جهدًا وكأنهما يريدان أن يكملا بدلَه الكلمات التي كان يستمتع بذبذبتها . ربّما هنا يتوجب علينا أن نشرح تفاصيل القصة وراءَ تأتأته وصمَمه .

ففي الحقيقة ، لم يَكن في نواحي أنجيه من له سمع ثاقب يضاهي سمع السيد غراندي ، ولا شخص بمثل فصاحة لسانه في نطق فرنسيته بإحكام . إلا أنه في السابق ، ورغم كل البراعة التي يتحلّى بها غراندي ، فإن إسرائيليا ما خدعه ، وذلك بأنه كان يضع يده على أذنه كبوق بينما هو يتحدث ، متذرعا بذلك بأنه يحاول أن يسمع غراندي بشكل أفضل ، وكان يتمتم بطريقة بارعة وهو يبحث عن كلماته ، حتى أن غراندي وقع فريسة إنسانيته حينها ، واعتقد أنه من الواجب عليه أن يقترح على هذا اليهودي الماكر الكلمات والأفكار التي بدَا اليهودي وكأنه يبحث عنها ، مُتمّما بذلك استخلاصات هذا الأخير ، وبذلك ، انتهى به الأمر بأن انتحل شخص اليهودي وعبّرَ عن أفكار اليهودي وذاته بدل أن يعبّر عن أفكاره وعن شخصه . وهكذا ، خرج السيد غراندي من هذا العراك الغريب بعد أن عقد حينها الصفقة الخاسرة الوحيدة في حياته التجارية . ولكن ، حتى وإن خسر أمواله حينها فإنه قد تعلّمَ درسًا وجنا ثماره على مرّ السنوات . فانتهى به الأمر بأن بارَك اليهودي الذي علّمه فنّ الإطالة على نظيره التجاري بحيث يشغله بالتفكير في فكرته هو بدَل أن يفكر بالفكرة الأصلية ، وبذلك فإنه يُفقده فكرته الأصلية ويُبدّدها عن نظره .

ولذا ، وبما أن هذه القضية التي يُعنى بها الآن أهمّ من أي قضية سبق له أن اهتم بها ، فإنها تستلزم استعماله لمهاراته في الطرش والتمتمة ، والالتواءات غير المفهومة التي كان غراندي يطوّق فيها أفكاره . في البداية لم يكن يريد أن يتحمل مسؤولية أفكاره ، إلا أنه سرعان ما غيّر رأيه وأراد أن يبقى سيّد أقواله ، وذلك ليجعلهم يُشككون في نياته الحقيقية .

- سيد دو . . . بو . . .بو . . . بونفون ، (للمرة الثانية منذ ثلاث سنوات ، استعمل غراندي اسم «دو بونفون» وهو يحدث ابن أخ الموثق . وفي تلكَ اللحظة ، اعتقد السيد دو بونفون أن غراندي قد اختاره كصهر مستقبلي له) . . . أن . . . أن . . . أنتَ تق . . . تقو . . . تقول إذن . . . أن الإفلاسات . . . تس . . . تس . . . تست . . . تستطيع ، في . . . في . . . في بعض الحا . . . الح . . . الحالات أنه يمكن . . . مَن . . . من . . . منعها من الوقوع . . . عن . . . عن . . . عن طريق . . .

- عن طريق المحاكم التجارية في حد ذاتها . هذا أمر يحدث يوميا ، قال رئيس المحكمة الذي اعتقد أنه خمّن فكرة السيد غراندي وأراد بذلك أن يشرحها له . هل أستهل شرحي للأمر؟

- أنا . . . أنا . . . أنا في الاستماع . . . قال السيد غراندي بوقار وتواضع ، وهوَ يخفي بدهاء تلك الضحكة التي ترن وتُصدي في أعماقه ، مثله مثل التلميذ الذي يُخفي ضحكته عن أستاذه ويبدي له اهتمامه الشديد بما يقول .

- عندما تتعلق القضية برجل عظيم معروف وقدير ، مثلَما هو الأمر في حالة السيد المرحوم أخيك في باريس . . .

- أخ . . . أخ . . . أخي ، أجل .

– عندما يصبح الإفلاس وشيكا ، فإن المحكمة التجارية التي تقاضيه (تابعني جيدًا) ، تملك الحق ، في إصدار حكم ، لتُعيّنَ ، لمنزل التجارة الخاص بها ، مصفيين . أن تصفي لا يعني أنك أفلست ، أتفهم ذلك؟ فعندما يفلس المرء فإنه يفقد شرفه بذلك ، لكن إن هو صفّى فإنه يحافظ على شرفه .

– آه ، هذاااااا مختلفففففف تماما ، إن لم لم لم يكن هذاااااا يكلللللف كثيراااااا ، قال غراندي .

– لكن بإمكانك أن تنقذ الموقف عن طريق التصفية ، حتى وإن كان ذلك من دون تدخل ومساعدة محكمة التجارة . لأ نه ، على كل حال ، كيفَ يتم إعلان الإفلاس؟

– أجللللل . . . أجل . . . لم لم لم أفكككك . . . أفكككر بهذا من قبل . ردّ غراندي .

– أولا ، قال الرئيس ، عن طريق وديعة الميزانية في المحكمة ، والتي يُعدها التاجر بنفسه أو وكيله المسجل . ثانيا ، بخصوص عريضة الدائنين . لكنِ إذا لم يقدم التاجر الميزانية ، وإذا لم يطالب أحد الدائنينَ المحكمةَ بحكم يُعلن عن إفلاس التاجر المذكور آنفا ، ما الذي سيحدث؟

– أجل . . . أججججل؟

– حينها ، تُصفي عائلة المرحوم ، أو ممثلوه ، أو وريثه ، أو التاجر في حد ذاته إذا لم يتوفّ ، أو أصدقاؤه . هل تريد أن تصفي قضايا أخيك ، سيدي؟ سأل الرئيس .

– آه ، غراندي! قال كاتب العدل ، سيكون هذا رائعا . فالشرف لا يزال محفوظًا في أعماق ريفنا . إذا أنقذت اسمكَ ، لأن الأمر يتعلق باسمك هنا ، فستكون رجلا . . .

- ساميًا رفيعا ، قاطعه رئيس المحكمة قائلا .

- بالتأكيد ، ردّ البخيل . أخ . . . أخ . . . أخي . . . ك . . . ك . . . كان . . . يُد . . . يُد . . . يُدعى غراندي مث . . . مث . . . مثلي تمامًا . . . من المؤ . . . المؤ . . . المؤكد أني سأفعل . لا . . . لا . . . لا . . . يسس . . . يسعني أن . . . أقو . . . أقول . . . لا . و . . . في . . . في . . . في . . . ججججج . . . جميع الأح . . . الأح . . .الأحوال . . . س . . . س . . . ستكون . . . هذه التص . . . التص . . . التصف . . . التصفية في . . . صالح . . . صالح . . . ابن . . . ابن . . . أخي . . . الذي . . . أح . . . أح . . . أحب . . . أحبــــه . ولك . . . ولك . . . ولكن ، لاح . . . لاح . . . لاحظ معيييييي ، أنا . . . لا . . . أع . . . أع . . . أعرف ده . . . دهاة باريس! أنا . . . قض . . . قضيت معظم . . . حي . . . حيا . . . حياتي في سو . . . سومور . . . أتعي ذ . . . ذلك؟ وأراضضضضضي هنا ، وصف . . .صف . . .صفقاتي . . . كما . . . كما أني لم أعد . . . السند . . . السندات يوما ، ماهو السسسسند على كل؟ لقد . . . لقد سبق و ووصل . . . وصلت . . . وصلتني الكثير . . . من السند . . . السندات . . . لكني . لم . . . لم . . . لم أمض أيًا . . . م . . . من . . . منها . . . إنها . . . تلمس . . . وتختصم . هذا . . . كل . . . كل ما أعرف . كما . . . سم . . . سم . . . سمعت أنه . . . بإمكاننا . . . إعادة . . . ش . . . شر . . . شراء السندات . . .

- أجل ، قال الرئيس ، بإمكاننا الحصول على السندات من هناك ، مقابل نسبة مئوية معينة . أتعي ذلك؟

وضع غراندي يده على أذنيه ، مدعيًا عدم قدرته على سماع ما

قاله السيد ، فأعاد الرئيس شرحه عليه .

- أه ، هنااااك إذذذذن فـــا . . . فـــا . . .فـــوائد يمكن تح . . . تحص . . . تحـصـيلهـا من كل هذا . . . لك . . . لك . . .لكني بت شيخا هرمًا . . . ولم أ . . . أعععععد أعرف شيء . . . شيئا عن كل ه . . . ه . . . هذا في سن . . .سنـي هذه . . . علـيّ أ . . .أ . . . أن أبقى هنا ، لأسهر وأحرسسسس الحبوب ، فالحبوب تتجمع ، ولن أت . . . أتم . . . اتمكن من الدفع إلا عن طريق تحـصـيل حب . . . حب . . .حـبوبي . فقبل كل شي . . .شيء عليّ أن أحـرص على الح . . . الحص . . .الحصاد . . . ولديّ صف . . .صفق . . .صفقاتي المه . . . المهـمـة في فـروافـون . لا أس . . . أست . . . أسـتطيع أن أت . . . أترك منززززلي من أجل هذه البل . . . البلب . . . البلبلة الشيطانية ، التي لا أف . . . أف . . . أفهم فيها شيئا . أنتَ تق . . . تق . . . تقـول أنه يتـوجب عليّ أن أك . . . أكـون في باريس حـتى أوقف إعـلان الإف . . . الإفـلاس . . . لا يمكنني أن أكـون هنا وهناك ، في مكاااانين مخ . . . مـخـتلفين في آن الوقت إلا إذا مـا كنت طائرًا صغ . . . صغ . . . صغيرًا .

- أنا أفهمك يا صديقي العزيز ، تأكد من أنَ لديك أصدقاءً ، أصدقاءً قدامى ، بإمكانهم أن يبذلوا النفس والنفيس من أجلك ، قال الموثق .

حدّث البخيل نفسه حينها : هيا إذن ، هيا ، قرّر بنفسك الآن واعرض عليّ الذهاب .

- وإذا مـا ذهب أحـدهم إلى باريس ، بحـثـا عن أكـبـر دائني أخيك غيوم ، ليقول له . . .

- لح . . .لح . . .لحظة هنا ، قال السيد غراندي ، ما الذي يقول

له؟ شي . . . شيئا من هذ . . . هذا القب . . . القبيل : السيد غراندي من سومور ، السيد غرا . . . غراندي . . . يحب أخاه ، ويحب ابن أخ . . . أخيه . . . غراندي قر . . . قريب جيد وله ني . . .نيات حسنة . لقد باع . . . محص . . . محصوله . . . لا تُعلنوا الإف . . . الإف . . . الإفلاس . . . اجمعوا أنف . . . أنفسكم وعيّنوا المصفيين . . . وحينها سيرى غراندي في الأم . . . الأمر . . . ستربحون في الصف . . . الصفق . . .الصفقة أكثر إن أنتم صفيتم بدَلا من أن تتركوا رج . . . رجال المحكمة يحش . . . يحشرون أنوفهم في الأمر . . . أليس كذلك؟

– هذا صحيح ، قال الرئيس .

– لأنه ، كما ترى يا سيد بو . . . بون . . . بو .بونفون ، على المرء أن يرى جيدا قبل أن يق . . . يقر . . . يقرر . الذي لا . . . لا . . . لايستطيع . . . لا . . . لا . . . يستطيع . في كل قض . . . قض . . . قضية مكلّفة ، حتى لا . . . نتسبب في الخراب . . . علينا أن نعرف الموارد والتكاليف . أليس كذلك؟

– طبعا ، قال الرئيس . أعتقد أنه خلال بضعة أشهر ، سيكون بإمكاننا أن نعيد شراء الديون مقابل قيمة معينة ، وأن ندفع بالكامل عن طريق الترتيب والتدابير . آه ، فكما تعرف ، يمكننا أن نقود الكلاب بعيدًا إن نحنُ طمّعناها بقطعة لحم مقددا! عندما لا يتم الإعلان عن الإفلاس ، وعندما تملك أنتَ سندات الديون ، فستصبح حينها صافيا أبيضًا كالثلج .

– كالث . . .كالثل . . .كالثلج . . . كرّر السيد غراندي وهو يضع يده على أذنه ، أنا لا أفهم .

– حسنا ، حسنا قال الرئيس وهو يرفع صوته ، اسمعني إذن .

- كلي آذان صاغية .

- السند هو عبارة عن سلعة يُمكن أن ترتفع قيمتها أو تنخفض . وهذا استخلاص لمبدأ جيريمي بينثام عن الربا . هذا الخبير في القانون الدولي أثبتَ أن الحكم المسبَق بالاستنكار على المرابين هو حماقة .

- أجل ، قال البخيل .

- فالمبدأ ينص ، حسب بينثام ، على أن المال سلعة ، وأن كلَّ ما يمثّل المال يصبح بذلك سلعة ، قال الرئيس ، وبما أنه من المعروف أنها تخضع لتغييرات اعتيادية تحكم في الأمور التجارية ، فإن السلعة- السند ، الحاملة لإمضاء ما ، باعتبارها سلعة أو أخرى ، تكثر أو تنقص لدرجة الاحتياج ، تصبح غنية أو تنحطّ قيمتها إلى اللاشيء ، فالمحكمة تأمر . . . (آه ، يا لي من غبي ، اعذرني) ، أعتقد أنه بإمكانك أن تعيد شراء أخيك في السوق مقابل خمسة وعشرين بالمائة .

- أسميتَ ذلك العالم . . . جي . . .جي . . .جيريمي . . . بين . . .

- بينثام ، وهو إنجليزي .

- جيريمي هذا سيساعدنا على تفادي الكثير من المشاكل في قضايانا ، قال الموثق .

- أحيانا ، يحدث أن يخرج هؤلاء الإنجليز بأف . . .بأفكار عقلانية جميلة . وبهذا حسب بين . . . بين . . . بين . . . بينثام هذا ، فإن سندات أخي لها . . . لها . . . لها . . . ليست لها قيمة . أليس كذلك؟ هذا يبدو لي واضحا ، سيكون الدائنون . . . أو . لن . . . لن . . . لن يكونوا . . .

- دعني أوضح لك الأمر ، قال الرئيس . قانونيا ، إذا كنت تملك سندات جميع الديون التي يستلزم على آل غراندي دفعها ، فإن أخاكَ وورثته ، ليسَ عليهم دين اتجاه أي كان .

- حسن ، قال غراندي .

- إذا تمّت مفاوضة سندات أخيك ، (التفاوض ، أتسمع هذه الكلمة جيدا؟) مقابل نسبة مئوية معينة من الخسارة ، إذا ما مرّ أحد أصدقائك من هنا ، وأعاد شراءها ، وإن لم يُجبر أحد الدائنين بأي طريقة على إعطائها ، فإن وريث السيد غراندي الباريسي سيتخلص من الديون .

- هذا صحيح ، فالصفق . . .الصفقات هي الصفقات ، قال بائع الخمور . ورغم ذلك ، فإنه من الصع . . .الصعب . . . عليّ أن أفعل ذلك . . . فأنا لا أم . . . أمل . . . أملك لا الوووووقت ، ولا المال . . .

- أجل ، حسنا إذن ، لن يكون عليكَ أن تُزعجَ نفسك ، أنا أعرضُ عليكَ أن أذهب إلى باريس ، (لكن عليكَ أن تتكفل بتكاليف ذلك ، سيدي) وسأقابل الدائنين ، وسأتحدث إليهم ، وأعتقد أنه سيسهل ترتيب كل شيء إن دفعت مبلغا إضافيا تزيده على مبالغ التصفية ، وذلك لتدخل ضمن سندات الديون .

- سووو . . . سوف نرى بخصوص هذا الش . . .الشأ . . . الشأن . فأنا لا . . . لا . . . لا أريد أن أقحم نفسي . . . بدون . . . بدون . . . أن . . . الذي . . . لا . . . لا . . . لا . . . لا يستطيع . . . أتفهم ذلك؟

- هذا صحيح .

- رأسي . . . يؤ . . .يؤلمني من كلّ ما حدث . . . حدّثتني عنه

الآن . . . هاهي أول مرة في حياتي اضططططططر فيها للتف . . . للتفكير في . . .

– أجل ، أنتَ لستَ عالم حقوق .

– أنا لستُ سوى زارع كَرْم مسكين ، ولا أعرف شي . . . شي . . . شيئا عمّا ذكرته لي توا . . . عليّ أن أد . . . أد . . . أدرس هذا .

– حسن ، حسن . ردّ الرئيس وكأنه يغلق باب الحوار .

– ابن أخي؟ قال الموثق بنبرة موبخة لابن أخيه . علينا أن ندَع السيد غراندي يشرحُ لنا نيّاته . فالأمر يتعلّق هنا بقضية في غاية الأهمية ، فعلى صديقنا العزيز أن . . .

أعلنت طرقات على الباب وصول عائلة دي غراسان ، ومنعت أصوات ولوجهم وتحياتهم السيد الموثق من إتمام جملته . سَعدَ الموثق بهذا الانقطاع ، فالسيد غراندي كان ينظر إليه باحتقار وتهكم ، وكان بريق عينيه المنعكس على النظارات يُعلن عن عاصفة داخلية به ، إلا أن الموثق الحذر لم يكن يرى أنه من المناسب أن يذهب رئيسُ محكمةِ ابتدائية إلى باريس ليذعن للدائنين ويساهم في التواءات تتلاعب بالقوانين التي تُعنى بالنزاهة ، كما أنه كان يرتجف خوفا على ابن أخيه من هذه القضية لكون السيد غراندي لم يفصح بعد عن أية نية في دفع أي مبلغ مالي . فاستغل بذلك لحظة دخول آل دي غراسان حتى يأخذ ابن أخيه من يده ، ويدفعه نحو فتحة النافذة .

– لقد أظهرت نفسكَ بما فيه الكفاية ، يا ابن أخي ، لكن هذا يكفي . إن رغبتك في الحصول على تلك الفتاة تُعميكَ . يا للشيطان! لا يجبُ أن تتصرف بحماسة زائدة غبية . دَعني أنا الآن

أقود القارب، ساعدني فقط في المناورات. هل يشمل دورُك أن تخاطر بكرامتك كقاض في...

ولم يكمل كلامه، إذ أنه سمع صوت السيد دي غراسان يقول للبخيل العجوز، وهو يمدّ له يده: غراندي، لقد وصلني خبر مُصابك الجلل الذي حلّ بعائلتك، بما في ذلك الكارثة التي أصابت منزل غيوم غراندي، ووفاة أخيكَ، لقد جئنا لنعبّر لكَ عن مواساتنا لك بمناسبة هذا الحدث البائس.

- في الحقيقة، قال الموثق وهو يقاطع حديث المصرفي، ليس هناك سوى حدث بائس واحد ألا وهو وفاة السيد غراندي الأصغر، والذي ما كان ليكون مضطرا للانتحار لو أنه طلب المساعدة من أخيه. فصديقنا القديم والذي يكتنز شرفًا حتى أطراف أظافره قرر أن يُصفي ديون منزل غراندي الباريسي. ولكي يتفادى كل الإزعاج الذي قد ينجم عن هذه القضية القضائية، فقد اقترح عليه ابن أخي أن يتجه إلى باريس فورًا، حتى يبحث عن الدائنين ويرضيهم.

فاجأت هذه الأقوال التي أكدتها تصرفات السيد غراندي الذي داعب ذقنه، آل دي غراسان الثلاثة الذين اتهموا السيد غراندي، وهم في طريقهم إلى منزله، بالبخل الذي تسبب في مقتل أخيه.

- آه، كنت متأكدا من هذا! صرخ المصرفي وهو ينظر إلى زوجته، ألم أخبرك ونحن في طريقنا إلى هنا أن السيد غراندي لن يقبل أن يمس اسمه ولو بشعرة، وأن الشرف يتقاطر منه؟ فالمال من دون شرف ما هو إلا داء خبيث(*). لا يزال الشرف قائما في

(*) قُلبَ هذا البيت الشعري الذي كتبه راسين في مسرحيته، المتخاصمون، والذي كان في الأصل: «ولكن من دون مال، فالشرف ليسَ إلا مرض عضال».

أريافنا . هذا جيد ، بل هذا رائع يا غراندي . أنا عسكري قديم ، ولا أعرف كيفَ أُزيّن أفكاري ، لذا سأقولها لك بتجرد تام : ما فعلته أمر رائع .

– هذا رررررائع ، لكنه . . . لكنه مكلّف ج . . . ج . . . جدًا . . . قال السيد غراندي وهو يصافح يد المصرفي بحرارة .

– لكن ، يا عزيزي غراندي الشجاع ، ودون أن أقصد أي إهانة للسيد الرئيس ، ألا تعتقد أن هذه قضية تجارية بحتة ، وأنها تتطلب متفاوضا خبيرا في المجال؟ أوَ ليس من المفروض أن هذا يتطلب حسابات للمبالغ المدفوعة والفوائد والموارد؟ على كل ، أنا كنتُ متجها إلى باريس بحلول نهاية هذا الأسبوع ، وسيكون بإمكاني أن أتكفل بشأن . . .

– سنرى . . . سنرى بخصوص هذا . . . سوف نحححححاول أن نر . . . نر . . . نرتب كل هذا . . . كـــلانا . . . ومن د . . . دون إقحامي في ش . . . شؤ . . . شؤون لا رغبة لي في التدخل بها . . .قال غراندي وهو يتمتم ، ثم أضاف : فكما ترى ، فالسيد الرئيس طالبني بتكلفة السفر . . .

قال البخيل جملته الأخيرة هذه من دون تمتمة .

– آه ، لكن من الممتع أن يذهب المرء إلى باريس ، كنت لأدفع كل ما في وسعي مقابل الذهاب إليها . قالت السيدة دي غراسان وهي تشير إلى زوجها حتى يؤكد أقاويلها ، ويغيظ منافسيهم مهما كلفهم الأمر ، ثم ألقت نظرة متهكمة على آل كروشو ، والذين بدَوَا مثيرَين للشفقة . وحينها سحَب غراندي المصرفيَ إلى ركن من الغرفة .

– أنا أثق بك أكثر بكثير ممّا أثق في الرئيس ، قال غراندي ،

كما أن هناكَ الكثير من الأمور الخفية ، فأنا أريد أن أساهم في الريع ، أملك بضعة آلاف فرنكات وأودّ أن أبيعها ، ولا أريد أن أوظف إلا ثمانين فرنكا . هذه الآلية تنخفض كما قيل لي ، بحلول نهاية الشهر . أنتَ خبير بمثل هذه الأمور ، أليسَ كذلك؟

– طبعًا! بهذا ، سيكون عليّ أن أرفع عنكَ بضعة آلاف جنيهات من الريع؟

– هي ليست بالأمر المهول لتبدأ . أريدُ أن ألعب هذه اللعبة من دون أن يدرك أحدهم الأمر . سوفَ تعقد لي صفقة بحلول نهاية هذا الشهر ، لكن لا تُخبر أحدًا من آل كروشو ، فسوف يغيظهم هذا . وبما أنك متجه إلى باريس ، سوفَ نرى بخصوص شأن ابن أخي .

– اتفقنا إذن ، سوفَ أذهب غدًا إلى مركز البريد ، قال السيد دي غراسان بصوت مرتفع ، وسوف آتي لرؤيتك ولأخذ آخر التوجيهات منكَ . . . في أي ساعة؟

– في الساعة الخامسة ، قبلَ العشاء ، قال البخيل وهو يفرك يديه بحماسة .

بقي الفريقان برهة من الزمن ، ثم قطع السيد دي غراسان بعدها الصمت المخيم مربتا على كتف السيد غراندي وهو يقول : من الجميل أن يكون للمرء أقرباء طيبون أمثالك . . .

– أجل ، أجل ، فمن غير أن يبدو ذلك عليّ لأول وهلة ، فأنا قر . . .قريب جيد . . . لطالما أحببتُ أخي ، ولقد كنتُ لأثبت هذا لو لم يكن ذلك يكلفني . . .

وقبل أن يُكمل جملته ، قاطعه المصرفي قائلا : أخشى أنه علينَا أن نذهبَ الآن . فإذا كان عليّ أن أعجّل سفري ، فسيتحتّم عليّ إعداد بعض الأمور .

- حسن، حسن، حتى أنا . . . بخص . . . بخصوص الشأن الذي تع . . . تعـرفـه . . . سـوفَ أنزو . . . أنزوي في غـر . . . غرف . . . غرفتي . . . غرفة المداولات كمَا يحب الرئيس كروشو أن يُطلقَ عليها .

- تبًا، ها هو ذا لم يَعُد يناديني بالسيد دو بونفون مجددًا، فكّر الرئيس حزينًا وقد بدت ملامح الملل على مُحياه .

خرجَ رؤساء الفريقين المتنافسين معًا . ولم يعُد أي منهما يفكر بالخيانة التي ارتكبها السيد غراندي هذا الصباح في حق كلّ تجار ومزارعي الخمر والكرْم، بل انشغل تفكير كل منهم بالنوايا الحقيقية التي تدفع السيد غراندي قدما في هذه القضية الجديدة .

- حسنًا يا عمّاه، صرخ الرئيس بعمّه بعدَ أن تأكد أنه لم يعد بإمكان آل دي غراسان سماعه، لقد بدأتُ الجلسة وأنا أُدعَى بالسيد دو بونفون، وانتهى الأمر بأن غدوتُ كما كنت، السيد كروشو فقط .

- لقد لاحظت أن هذا قد أزعجكَ، لكن الرياح جاءت بما تشتهيه سفُن آل دي غراسان . ثمّ هل أنتَ غبي لهذه الدرجة رغم ذكائك الخارق الذي لطالما أثبتته . دعهم يركبون سفن ال» سنرى لاحقا» التي يُعدّها لهم غراندي . وتحلّى بالهدوء، فستكون الفتاة من نصيبك في النهاية .

خلال لحظات قليلة، انتشر الخبر المعنيّ بنيّة غراندي في تصفية ديون أخيه في ثلاثة منازل، وارتكز حديث المدينة بأجمعها على هذا الإخلاص الأخوي . وبذلك غفر الجميع لغراندي خديعته الصباحية التي نكلت العهود التي عقدها المُلاك فيما بينهم، وتعجّبوا من شرفه مادحين كرمه الذي كانوا يجهلونَ كونه

من خصاله . وإنه لمن خصائص الفرنسيين أن يتحمسوا ، ويغضبوا ، ويُحبوا الظاهرة السائدة في ذلك الحين وألواح الأخبار الطافية . هل تُعتبر بذلك الشعوب والأفراد الجماعية بلا ذاكرة؟

عندمَا أغلق السيد غراندي بابه ، نادى نانو .

– لا تطلقي الكلب ، ولا تنامي ، لدينا الكثير لنعدّه ونعملَ عليه معًا . أخبري كورنوايي أني أريدُه عند بابي على الساعة الحادية عشرة ، اطلبي منه أن يحضر العربة الموجودة بفروافون . وانتظريه عند الباب واسمعي صوت خطواته حتى تمنعيه من طرق الباب ، وأخبريه أن يدخل بهدوء . فقوانين الشرطة تمنع الصخب الليلي . كما أنني لا أريدُ أن يعرف أحدهم أنني مسافر .

وبعدها ، اتجه غراندي نحو مخبره ، أينَ سمعته نانو يتحرّكُ ، وينقّب ، جيئة وذهابًا ، لكن بحذر شديد . من الواضح أنه لم يكُن يريد إيقاظ زوجته أو ابنته ، ولا حتى أن يحرّكَ فضول أو انتباه ابن أخيه الذي كان يلعنه لأنه كان لا يزال مستيقظا يستهلك شموعه الثمينة .

في منتصف الليل استيقظت أوجيني التي انشغل بالها بابن عمّها معتقدة أنها سمعت تأوهات شخص يحتضر ، وأن هذا الشخص ما هو إلا شارل : المسكين ، كانت قد تركته شاحبا وبائسًا! ربّما كان قد قرّر أن ينتحر . وفجأة ، التحفت بغطاء رأس واتجهت خارج الغرفة . في البداية ، هلعت لمّا لمحت النور الخافت الذي يتسرب إلى غرفتها من تحت الباب معتقدة بذلك أن حريقا قد شبّ في المنزل ، لكنها سرعان ما هدّأت من روعها عندما سمعت صوت خطوات نانو وصوتها المختلط بصهيل عدة أحصنة .

– هل سيختطف والدي ابنَ عمي؟ تساءلت وهي تفتح الباب

بحذر بطريقة لا تصدر أية ضجة ، ولكنها تضمن لها رؤية ما يجري في الرواق .

وفجأة وقعت عينها على عين والدها الذي رمقها بنظرة ملتبسة ولا مبالية ، جمّدتها من الفجع . كان السيدُ وخادمته يحملان عصًا طويلة ارتكز طرفاها على كتفيْ كلّ منهما ، وعُلّق على العصا حبل طويل يحملُ صندوقا يشبه تلكَ الصناديق التي كان السيد غراندي يستمتع بصنعها في أوقات فراغه .

– يا للعذراء! إنه ثقيل! قالت نانو بصوت منخفض .

– من سوء حظنا أنها أموال كثيرة . احذري ، كدتِ أن توقعي الشمعدان .

كان هذا المشهدُ مُنارًا بشمعدان واحد .

– كورنوايي ، قال غراندي ، هل تحمل معك مسدساتك؟

– لا يا سيدي ، تبًا! ما الذي يُمكننا أن نخشاه على نقودك على أي حال؟

– آه ، لا شيء ، لا شيء ، قال السيد غراندي .

– كمَا أننا سنذهب مسرعين ، ردَّ الحارس ، فلقد اختار لكَ مزارعوكَ أحسن خيولك .

– حسن ، حسن ، أتمنى أنكَ لم تخبرهم إلى أين أنا متجه .

– لم أكن أدري ، حتى .

– جيد ، هل العربة في حال جيدة؟

– لتحمل هذا؟ أعتقد أنها ستحمل ثلاثة آلاف ، كم تزن فلوسك سيدي؟

– آه ، أعتقد أنها حوالي ثمانية عشر مائة .

– هلّا صمتّي ، نانو؟ عليك أن تخبري زوجتي في الصباح أني

ذهبت إلى المزرعة ، وسأعود على العشاء . هيا تحرك كورنوايي ، عليّ أن أكون في أنجيه قبلَ الساعة التاسعة .

انطلقت العربة . وأغلقت نانو الباب الكبير ، وأطلقت سراح الكلب ، ونامت بكتف مهروس . ولم يكتشف أحدهم في الحيّ لا رحيل السيد غراندي ، ولا الغاية من سفره . كان الرجل متكتما تمامًا . ففي هذا المنزل المكتنز بالقطع الذهبية ، لم يحدث أن رأى أحد من أهل البيت قطعة ذهبية .

فبعد أن تناهت إلى مسامعه في الصباح أخبار من أحاديث الميناء مفادها أن أسعار الذهب قد تضاعفت نتيجة لعدّة عمليات تسليح في نانت ، وأن المضاربين وصلوا إلى أنجيه ليشتروا . وبذلك ، وعن طريق استعارة خيول من عند مزارعيه فقط ، اتجه غراندي إلى أنجيه ليبيع الذهب خاصته ، ليضيف الثمن المتحصل عليه إلى الثمن اللازم لشراء الريع .

- لقد ذهب والدي . قالت أوجيني التي سمعت كل شيء من أعلى الدرج . عادَ الصمت ليخيّم على المنزل ، وتناقص صوت عجلات العربة المبتعدة تدريجيا ، إلى أن اختفى في سومور النائمة . في هذا الوقت ، سمعت أوجيني بقلبها قبل أن تدركه مسامعها ، صوت أنين قادم من غرفة ابن عمها . كان خط الضوء المنبعث من تحت بابه يلوح حادًا كسيف .

- إنه يُعاني ، المسكين ، فكّرت أوجيني وهي تصعد الدّرج . كان الباب بالكاد مفتوحا ، فدفعته ، ورأت شارل متكئا ورأسه للخلف على الكنبة ، أما يدُه فكانت مرتخية تكاد تلامس الأرض وقد أفلتت أنامله الريشة التي كان يكتب بها ووقعت أرضا . وهلعت أوجيني وهي تسمع تنفسه المتقطع .

- لا بد وأنه متعب ، فكّرت أوجيني وهي ترى حزم الرسائل المجهزة في الأظرف التي خُطّت عليها العناوين : إلى السيدين فيري بريلمان ، وسي كاروسيي ، إلى السيد الخيّاط : بويسون . لا بدَ وأنه قد أعدّ كل شيءٍ حتى يتمكن من مغادرة فرنسا في أقرب الآجال ، فكّرَت . ثم وقعت عيناها على كلمات خطّت بداية رسالة : «حبيبتي آنيت» ، وهو ما تسبّب لها في فجع شديد . ارتجف قلبها وبالكاد حملتها سيقانها . حبيبته آنيت ، إذن فهو يُحبُ ، إذن هوَ محبوُب . لا مجال للأمل! ما الذي يُخبرها عنه؟ جالت هذه الأفكار بخاطرها وقلبها . قرأت كلماته بسرعة . - هل سأتخلى عنه الآن؟ لا ، لن أقرأ هذه الرسالة ، عليّ أن أذهب . وماذا لو قرأتها؟ نظرت إلى شارل ، ثم حملت رأسه بلطف ، وأعادت وضعه على ظهر الكرسي ، وتركها هو تفعل ذلك باسترخاء طفل صغير تمكّن من التعرّف على أمّه على الرغم من انغماسه في نوم عميق ، وتلقّى عنايتها من دون أن يستيقظ . تمامًا كوالدة حنون ، حملت أوجيني يده الواقعة أرضًا ، وقبّلت شعراته بحنان . حبيبتي آنيت! كان هناك شيطان يصرخ لها بضراوة هذه الكلمات في أذنيها . - أعلمُ أن تصرفي خطأ ، لكنني سأقرأ الرسالة .

لكنها سرعان ما ولّت رأسها لأن استقامتها وخلقها الحسن منعاها . لأول مرة في حياتها ، تصارع الخير والشر بين ثنايا قلبها . فقبل هذا ، لم ترتكب يومًا أي فعلة تخجل منها ، أو تحمر وجنتاها عند تذكرها . لكن الشغف والفضول نالا منها . ومع كلّ جملة ، انتفخ قلبها أكثر وأكثر ، وجعلتها الحماسة اللاسعة التي تملّكتها أثناء قراءتها للرسالة أكثر غرامًا بشغف الحب الأول .

«حبيبتي آنيت ،

لم يكن هناكَ شيء ليفرق بيننا لو لا ذلك البلاء الذي حلّ بي الآن والذي لم يكن بإمكان أية حيطة إنسانية أن تتكهن بحدوثه . لقد انتحر والدي ، ولقد فقدَ ثروته وثروتي تمامًا .ها أنذا تيتّمت وأنا في سنّ أكاد أعدّ فيه طفلًا نظرا لطريقة تنشئتي . إلا أنه يتحتّم عليّ الآن أن أنهض كرجل من الحطام الذي وقعت فيه . لقد استغليّت هذه الليلة حتى أنتهي من حساباتي . فإذا أردت أن أرحل عن فرنسا كرجل شريف ، من دون شك ، فإني لا أملك حتى مائة فرنك كي أذهب لأصارع قدري في الهند أو في أمريكا . أجل ، حبيبتي آنا ، سوف أذهب بحثا عن الثروة وسأكدّ وأعمل تحت وطأة مناخات قاتلة . فتحت تلك السماوات ، تكون الثروة سريعة وأكيدة ، كما قيل لي . أمّا عن بقائي بباريس ، فإني لا أعلم . لا أعتقد أني أملك الوجه والروح اللذان سيمكنانني من مواجهة البرود والاحتقار والإهانات التي تنتظر رجلا مفلسًا ، ابن مفلس . يا إلهي ، الديون تقدّر بمليونين . سوفَ أموت خلال أول مواجهة لي . ولذلك فلن أعود إلى باريس البتة . حتّى حُبّك الذي هو من أنبل وأحنّ وأخلص ما يُمكن لرجل أن يحمل بينَ ثنايا قلبه ، لن يستطيع أن يحملني على العودَة إلى باريس . للأسف ، يا محبوبتي ، لا أملك ما يكفي من المال لأقدم حيثُ أنت ، لأعطيك وأتلقى منك قبلةَ أخيرة ، قبلة أجتثُ منها القوة التي أَحتاجها لأقوى على ما أنا مقدم عليه .»

- شارل المسكين ، لقد فعلتُ حسنًا حين قرأتُ الرسالة ، أنا أملكُ ذهبًا وسوف أعطيه منه ، قالت أوجيني .

ثمّ أكملت قراءتها بعد أن كفكفت دموعها .

«لم أكن قد فكّرت من قبل في مآسي المعاناة . فحتى لو أنني أملك المائة لويس الضرورية لسفري ، فلن يكون في حوزتي فلس واحد حتى أشتري سلعة ما . لكن لا ، لن يكون لي لا مائة لويس ولا غيرها ، فلن أتمكن من معرفة ما في حوزتي من نقود إلا بعدَ أن تنتهي تسوية ديوني في باريس . إذا لم يتبق لي شيء ، فسأذهب إلى نانت لأنطلق ، وسأبدأ تماما كالرجال الذين بدأوا بنشاط من الصفر من دون أن يملكوا فلسا ، ثم عادوا من الهند أثرياء . فمنذ صباح اليوم ، فكرت بجدية وبرود في مستقبلي . إنه مريع بالنسبة لي أكثر من أي شخص غيري ، أنا الذي أنشئتُ مدللا على يدي والدتي التي كانت تحبني ، ومحبوبا من خيرة الآباء ، وأنا الذي في بداية مسيرتي في الحياة ، التقيت بحبّي لكِ . لم أعرف خلال حياتي التي عشتها لحد الآن سوى الأزهار التي يمكن للحياة أن تمنحها إيانا ، ولم يكن بإمكان كل تلكَ السعادة أن تدوم . إلا أني يا عزيزتي آنيت أملك من الشجاعة أكثر مما كان بإمكان شخص آخر نشأ مثلي أن يملك ، خاصة بالنسبة لشاب معتاد على الدلال الذي تتحصل عليه أكثر امرأة شهية في باريس ، مترعرعا في وسط عائلي سعيد حيث كان الكلّ يبتسم لي فيه ، وحيث كانت رغباتي أوامر وقوانين بالنسبة لوالدي . . . أوه ، والدي ، آنيت ، لقد مات . . . حسن ، لقد فكرت جيدًا في وضعيتي ، وفكرت في وضعيتك كذلك . لقد شختُ وكبرتُ خلال أربع وعشرين ساعة ، عزيزتي آنا ، إذا كان سيتحتّم عليك أن تضحي بكلّ متع الرخاء وزينتك ، وحجرتك في الأوبرا ، فقط لتحافظي عليّ بجانبك في باريس ، فإننا لن نصل حتى إلى الأرقام التي توازي المصاريف الضرورية لحياتي المتسربة ، ثم إنني لن أتّمكن من قبول تضحيات

مماثلة . ولذلك فإننا سنفترق اليومَ ، وإلى الأبد .»

– آه ، إنه يتركها! حمداً لك أيتها العذراء! يا للسعادة!

قفزت أوجيني من الفرحة ، وتسبب ذلك في حركة شارل ، مما جعلها تتجمد من الخوف ، لكن ، ولحسن حظها ، لم يكن شارل قد استيقظ . فواصلت قراءتها :

«متى سأعود؟ أنا لا أعلم . المناخ الهندي يتسبب في شيخوخة الأوروبي منّا على نحو سريع ، خاصة إذا ما كان الأوروبي يعمل . فلنتخيل أحوالنا بعد عشر سنوات من الآن . خلال عشر سنوات ، ستغدو ابنتك في الثامنة عشرة من عمرها ، ستكون رفيقتك ، والجاسوسة التي تتفقدك . بالنسبة لك ، سيكون العالم متوحشا حينها ، وستكون ابنتك أكثر توحشا منه . لقد سبق ورأينا من قبل هذا النوع من الأحكام العامّة وجحود الفتيات الشابات . فلتحملي في أعماق روحك ذكرى هذه السنوات الأربع السعيدة ، فلتبقي وفية ، إن استطعت ، لصديقك المسكين . إلا أنني لن أستطيع أن أُطالِبَك بذلك ، لأني وكما ترين يا عزيزتي آنا ، يتوجب عليّ أن ألائم وضعيتي ، وأن أرى الحياة ببرجوازية ، وأن أُعدّها بالأرقام بالطريقة الأصحّ .

لذلك سيتوجّب عليّ أن أتزوج ، وهو أمر غدا ضرورة بالنسبة لنمط حياتي الجديد ، وسأعترف لك أنني وجدتُ هنا ، في سومور ، في منزل عمّي ، ابنة عمّ كانت لتُعجبكِ أساليبها ، وملامحها ، وروحها وكذا قلبها ، والتي علاوة على ذلك ، يبدو أنها تملك . . .»

–لابد وأنه كان متعبا ، المسكين ، لذلك توقف عن الكتابة . . .

قالت أوجيني في نفسها وهي ترى أن الرسالة توقفت عندَ منتصف هذه الجملة .

أجل ، كانت تبحث له عن ذرائع . أوَ لا يبدو أنه من المستحيل أنها لم تلحظ اللمسة الباردة التي طغت على هذه الرسالة؟ لكن بالنسبة للشابات اللواتي أنشئن بطريقة دينية ، جاهلات وطاهرات ، فإن كلّ شيء يغدو في نظرهن حبًا بمجرد أن يخطون في عوالم الحب . إنهن يتمشين فيها محاطات بالنور السماوي الذي تعكسه أرواحهن ، والذي يسطع على شكل أشعة تكسو محبوبهن ، إنهن يُلونّه بما يحلو لهن من نيران الشعور الذي يحرّكهن ، ويخصصن له أجمل أفكارهن . إن أغلبَ أخطاء المرأة تنجم عن إيمانها بالخير ، أو ثقتها بالحقيقة . بالنسبة لأوجيني ، فإن صدى هذه الكلمات : «حبيبتي آنيت» و«محبوبتي» كان يصدع في قلبها كأحلى لغة للحبّ ، وكان يداعب روحها ، مثلما كانت تفعل ترانيم الصّلوات في طفولتها حين كانت تداعب آذانها . ثمّ إن الدموع التي كانت لا تزال عيون شارل تسبَح بها كانت التُهمةَ التي تسببت عن طريق عَكسها لأمجاد قلبه كان بإمكانها جذب أية فتاة يافعة . أوَ كانت لتعرف أنه لو كان شارل يحبّ والده لهذه الدرجة ، وأنه لو كان يبكيه فعليًا ، لكان هذا الحنان يصدُرَ من طيبة قلبه ، أقلّ مما يصدر كنتيجة لطيبة والديه؟ فالسيد والسيدة غيوم غراندي ، بإرضائهم الدائم لجميع رغبات ابنهم ، وبإعطائهم إياه جميع المتع التي يُمكن تحقيقها عن طريق الثروة ، منعوه من أن يتعود على إعداد الحسابات المتعبَة التي يقوم بها أغلبية الأطفال في باريس ، عندمَا تحضرهم المتعُ الباريسية ، فتتشكّل لهم رغبات ويعدّون الخطط التي غالبًا ما تتحقق أو تتأخر بحسب طبيعة حياة أوليائهم . إن إسراف الوالدِ مع ابنه زرع في قلب هذا الأخير حبّا بنويًا حقيقيا . إلا أن شارل كان طفلا باريسيا بامتياز معتادًا على العادات والأخلاقيات الباريسية ،

التي ورّثتها له آنيت نفسها ، معتاداً على الحسابات ، كشيخ تحتَ قناع شاب . كان قد تلقّى التربيـة المُريعة التي تجعله يلتـقي خلال سهرة واحدة عن طريق الأفكار والأقاويل بجرائم أكثرَ مما يمثُلُ في جلسات المحاكم ، وحيث تفتك الكلمات الجيّدة بأعظم الأفكار ، وحيثُ لا يُعدّ المرء قويًا إلا إذا ما كانت نظرته للأمور جيّدة . وهناكَ في باريس ، لا تعدّ نظرة المرء مُحقة إلا إذا ما لم يصدق شيئا ، لا المشاعر ، ولا الأحداث ، ولا غيره من البشر . حيث كثرت الأحداث المزيفة . هناك ، لكَي يكون المرء ذا نظرة حسنة ، عليه أن يخمّن ويقيّم كلّ صباح أموال صديقه ، أن يعرف كيف يموضعُ نفسه ، سياسيا ، فوق كلّ ما قد يحدث ، وألا يُعجَب لا بالأعمال الفنية ، ولا بالأعمال الخيّرة النبيلة ، ولو مؤقتًا ، وأن يكون الدافع وراء كلّ شيء هوَ المصلحة الشخصية . فبعد مائة تهور وجنون من شارل ، أجبرته السيدة العظيمة ، الجميلة آنيت ، أن يفكّر بشكل جدّيّ ، كانت تحدثه عن موقعه في المستقبل وهي تمرّر يدها الفوّاحة برائحة عطرة في شعره ، وبينما هيَ تُعدّل إحدى زراره ، كانت تجعله يُعدّ حساباته لمواجهة الحياة : كانت تجعله أكثر أنثوية وماديّة . كان ذلك فساداً مزدوجًا ، لكنه كان فسادا أنيقا ويعكس ذوقا حسنًا .

– أنتَ مغفلٌ يا شارل ، كانت آنا تردّد على مسامعه . فمن المُتعب لي أني اضطر لتعليمك أحوال الدنيا . لقد تعاملتَ بشكل سيء ومبتذل مع السيد لوبولو ، أعرف أنه ليسَ بالشخص الشريف ، لكن انتظر حتى يغدو من دون سلطة ، واحتقره كما تشاء حينها . أتعرف ما الذي كانت السيدة كامبان تقول؟ : يا أبنائي ، طالما أنّ الرجلَ يحتل منصبه العالي ، فأحبّوه وهلّلوا له ، وما إن

يسقط من منصبه ، فهلمّوا إلى جرجرته . إذ أنه عندما يكون قويًا فإنه يكاد يكون نوعًا من الآلهة ، أمّا حينَ يسقطُ ويُدَمَّرُ ، فسيتسرّب في الصرف الصّحي في مرتبة أدنى من مارا ، فينمَا هوَ حيّ ، مارًا قد مات . فالحياة سلسلة من التراكيب المُدمَجة ، وعلى المرء أن يدرسها ويتابعها بحرص ، حتى يتمكّن من الحفاظ على نفسه في ذات المركز الجيد دائما .

كان شارل شخصًا يعيش وفقَ الموضة ، وكان سعيدًا بشكل متواصل بفضل والديه ،كما كان الجمَيع من حوله يتملّق معه لدرجة أنه لم يعاني يومًا .

شارل حينها لم يكن إلا في الواحدة والعشرين من عمره ، وفي هذا السن ، يبدو أنه لا يمكننا التفريق بينَ نضارة الحياة وطهارة الروح . حيث تظهر كل من النظرة والصوت والملامح متجانسة معَ المشاعر . ولذلك فإن القاضي الأشد قسوة ، والمحامي الأكثر تشككا ، والمُرابيَ الأكثر صعوبة في تعاملاته دائمًا ما يترددون حين يتعلق الأمر بالحكم على قلب ما بالشيخوخة ، وبفساد حساباته ، بينما تسبحُ الأعينُ في سائل نقيّ ، وحين لا تكاد تُرى التجاعيد على الجبهة . لم تسنح الفرصة من قبل لشارل حتى يُطبّق مبادئ الأخلاقيات الباريسية ، وقد تعايش جيدا مع الأمر . لكنه ، ومن دون علم منه ، كان قد لُقّحَ بالأنانية . فجراثيم الاقتصاد السياسي المستعملَة من طرف الباريسيين ، والكامنة بتستر في قلبه ، لم يتبقَ لها الكثير حتى تُزهرَ به . وبذلك ، فسيتحوّل من مشاهد غير فعّال ، إلى ممثّل في دراما الحياة الحقيقية . فتقريبا كل الفتيات كُنّ يستسلمنَ للوعود الناعمة التي تعقدها هذه المظاهر . ولكن ، لو أن أوجيني كانت بمثل حرص ودقة ملاحظة بنات الريف أمثالها ، ألم

تكن لتتمكن من تحدي ابن عمها ، هو الذي كانت أساليبه وأقاويله وأفعاله لا تزال متناسقة مع إلهامات قلبه؟

لقد كانت محظ صدفة ، خطيرة بالنسبة لها ، تلكَ التي مسحت بقايا إراقة المشاعر الحقّة التي كانت بهذا القلب اليافع ، وبذلك سمحت لها بأن تسمَع آخر همهمات الوعي . وضعت من يدها تلكَ الرسالة التي بدَت لها مليئة بالحبّ ، وعادَت إلى تأمل ابن عمها النائم : كانت أوهام الحياة الحديثة العهد لا تزال تلعَب في مخيلتها بملامح وجهه ، وأقسمت لنفسها بأنها ستحبّه للأبد . ثم ألقت نظرة على الرسالة الأخرى من دون أن تُبدي أهمية كبيرة لمشروعية فضولها هذا ، وإن كانت قد شرعت في قراءتها ، فإن ذلك لتقتفي آثار الخصال الحميدة التي كانَت تنسبها ، ككلّ النساء ، لمحبوبها .

«عزيزي ألفونس ، في الوقت الذي ستكون فيه بصدد قراءة هذه الرسالة ، لن يكون لي أصدقاء ، لكنني أعترف لكَ أني ورغم شكي في عامة الناس الذين اعتادوا على الإسراف في استعمال هذه الكلمة ، فإني لم أشكك يومًا في صداقتك . ولذلك فإني أكلّفك بتسوية أموري ، وأعتمد عليكَ حتى تتمكن من استخلاص ما يمكن استخلاصه من كلّ ما أملكه . لا بدَ وأنك تعرف وضعيتي الآن ، فأنا لم أعد أملك شيئا ، وأريدُ أن أسافر للهند . لقد كتبت للتو رسائل لجميع الأشخاص الذين أعتقدُ أنني مدينٌ لهم بالمال ، وستجد أنني ألحقت برسالتي إليكَ قائمةً بأدق ما تمكنت من تذكره من أسماء . أعتقد أن مكتبتي ، وأثاثي ، وعرباتي ، وأحصنتي ستفي بالغرض لتسدّدَ ديوني ,لا أريدُ أن أحتفظ إلا بأشياء خفيفة بدون قيمة والتي ستكون كافية لأشتري

بها أولى سلعي في الهند . عزيزي آلفونس ، سوف أرسلُ إليكَ هنا ، من أجل هذا البيع ، تفويضا منتظما في حالة ما إذا حصلَ نزاع ما . وبإمكانك أن تحتفظ لنفسك ببريتون ، فلن يقدّر أحد ثمن ذلك الحيوان الرائع ، لذلك أفضل أن أهديكَ إياه ، تماما كالخاتم الذي يتركُه المُحتضر للشخص الذي سيتكفّل بوصيته . لقد طلبنا عربة سفر مُريحة جدا من عند آل فاري ، بريلمان ، وَسي ، لكنهم لم يبعثوها بعد . فهلاّ سألتهم أن يحتفظوا بها من دون مطالبتي بمستحقاتها . وإن رفضوا ، فاحرص على تفادي كلّ ما قد يُوسّخ أمانتي ووفائي ، في الظروف التي أوجَد بها الآن . كمَا أنني مدين لساكن الجزيرة بستة لويسات لأني خسرت معه في القمار ، احرص على أن تُعيدَها له . . .»

- يا ابن عمّي العزيز ، قالت أوجيني وهي تضع الرسالة من يدها ، ثم تسللت على أطراف أصابعها إلى غرفتها ، تحت ضوء شمعة . وهنا ، وبكل نشوة وحيوية ، فتحت درج أحد أثاثها المصنوع من شجرة البلوط ، وهوَ إحدى أجمل منتجات الفترة المدعوّة : النهضة ، والتي لا نزال نرى عليها ، رغم أنها شبه ممحوة ، العظاية الخرافية الملكية الشهيرة (وهو الشعار الذي اتخذه فرونسوا الأول) . حملت حفنة كبيرة من الأموال موضوعة في صرّة من القطيفة الحمراء البالية لكونها موروثة عن جدتها . ثم حملت تلك النقود ووزنتها بيدها بكل فخر وسعادة ، واستمتعت بإعادة حساب ما تحمله الصرّة الصغيرة في جوفها .

احتوى هذا الكنز على قطع ذهبية أوروبية جديدة وعذراء تماما ، قطع فنية بحق ، وكان السيد غراندي يستفسر من حين لآخر عن أحوال هذه القطع ويطلب رؤيتها ، حتى يعيد تذكير ابنته

بقيمتها ومحاسنها . لكنها لم تكن تفكر لا في جمال تلك القطع ولا في ندرتها ، ولا في جنون والدها وهوسه بالنقود ، ولا بالخطر الذي تعرض نفسها له بهتكها لكنز عزيز على قلب والدها ، لا هي لم تفكر في كلّ هذا ، فكلّ ما فكّرت به هوَ ابن عمها وحاجته للمال ، وتمكنت في النهاية ، بعد عدة أخطاء ، من حساب المبلغ الذي في حوزتها والذي تصل قيمته الحقيقية إلى حوالي خمسة آلاف وثمان مائة فرنك . وعندها ، بدأن تصفق لنفسها تمامًا كطفل مفعم بالسعَادة لدرجة أنه عليه أن يتخلص من فائض سعادته عن طريق حركات ساذجة وعفوية .

وبهذا كان الأب وابنته قد حسبَا ، كلاهما ، قيمة الذهب الذي يملكانه ، أمّا هو ، فذهبَ ليبيع ذهبه ، وأمّا هي ، فإنها قررت أن ترمي ذهبها في مُحيط الحبّ .

أعادت أوجيني وضع القطع في الصرّة القديمة ، واتجهت بها نحوَ غرفة ابن عمها ، بدون تردد . أنستَها المعاناة السرية لابن عمّها أن الوقتَ ليل ، وأنستها كذلك العادات التي ما كانت لتسمح لها بالذهاب لرؤيته ليلا ، إلا أنها أحسّت بالقوّة بفضل ضميرها ، وإخلاصها وسعادتها . وفي الوقت الذي وقفت فيه عندَ عتبة غرفته ، حاملة في يدِ شمعتها ، وفي الأخرى صرّة نقودها ، استيقظ شارل ورأى ابنة عمه ، وفَغَرَ فاه تعجبًا . تقدّمت أوجيني ، ووضعت الشمعة على الطاولة ، ثم قالت بصوت متأثّر تغلبه العاطفة : – يا ابن عمّي ، عليّ أن أستسمحكَ وأطلب عفوك إذ أني ارتكبت خطأ فظيعًا في حقك ، ما كان عليّ أن أرتكبه . لكن الربّ سوفَ يغفر لي هذه الخطيئة إذا ما أنتَ عفوتَ عنّي .

– ما الخطب إذن ، ماذا فعلتِ؟ قال شارل وهوَ يفركُ عينيه .

- لقد قرأتُ منذ قليل هذين الرسالتين .
احمرّت وجنتا شارل .
- كيفَ حدث هذا؟ ولماذا جئتُ إلى هنا؟ في الحقيقة ، لَمْ أعُد أعرف هذا الآن ، قالت أوجيني . لكنّي لا أريدُ أن أندَم على قراءتي لهذين الرسالتين حيث أنهما مكنتاني من معرفة قلبكَ وروحك ، و . . .
- وماذا؟ سأل شارل .
- ومشاريعك ، وحاجتك المُلحة إلى مبلغ . . .
- يا ابنة عمّي العزيزة . . .
- اشت ، اشت ، يا ابن عمي ، لا تتحدث بصوت مرتفع هكذا حتى لا يستيقظ أحدهم . هاهي ذي ، قالت أوجيني وهي تفتح صرتها ، مدّخرات فتاة مسكينة لا تحتاجُ شيئا . هلاّ قبلتها مني ، شارل؟ في هذا الصباح ، كنت أجهَل ما هو المال وما قيمته ، لكنّك علّمتني ذلكَ ، فهوَ ليسَ إلا وسيلة ، هذا كل شيء . أنت ابن عمّي وبمثابة أخ لي ، بإمكانك أن تستلف مال أختكَ .
أوجيني ، لكونها امرأة ، ولكونها فتاة يافعَة ، لم تتوقّع أن ابن عمّها قد يرفض مالها ، أما شارل فبقيَ صامتًا .
- ماذا إذن؟ هل أنتَ ترفض؟ سألت أوجيني التي كانت دقات قلبها تبعث صداها في أرجاء الصمت المخيّم على المكان . أهانَها تردد ابن عمّها ، إلا أن علمها بحاجته الملحّة للنقود دفعتها أكثر فأكثر ، لدرجة أنها جثت على ركبتها .
- لن أنهض من موضعي هذا لطالما أنك لم تأخذ هذا الذهب . قالت أوجيني . يا ابن عمّي ، هلّا تفضلت عليّ ، رحمةً منكَ ، بإجابة؟ . . . فقط لأعرف إن كنتَ ستكون كريمًا كفاية لتقبل . . .

وحينَ سمع شارل صدى اليأس النبيل في كلماتها ، ذرف دموعه بينَ يديها اللتين أمسكَهما حتى يمنعها من أن تجثوَ على ركبتيها .

حينَ أحسّت أوجيني بدموعه بينَ يديها ، حملت الصرّة وأفرغت محتواها على الطاولة . . .

-أجل ، أجل ، أليسَ كذلك؟ قالت وهي تبكي من الفرح ، لا تخشَ شيئًا يا ابن عمّي ، سوف تغدو غنيًا . سوف يحمل هذا الذهب الكثير من السعادة إليكَ ، وسوفَ تعيدُه لي يومًا ما ، ثم إننا سنتناقش ، سوفَ أقبل كلّ الشروط التي تفرضها عليّ مقابل موافقتك على أخذ هذا الذهب .

أخيرًا تمكّن شارل من التعبير عن مشاعره :

- أجل ، أوجيني ، سأكون جدّ سخيف إن أنا رفضتُ عرضك . لكني أؤمن بأن . . . اسمعيني يا ابنة عمّي العزيزة ، عندي هنا . . . ثم قاطع حديثه ليبحث في أغراضه عن صندوق مربّع موضوع داخل غلاف جلدي . . . هاهو ذا ، هذا الشيء أغلى بالنسبة لي من حياتي . هذه العلبة تحوي هدية من أمي . منذ الصباح وأنا أفكّر أن الأمر كان ليكون هينًا لو أن أمي استطاعت أن تأتيني من قبرها حتى تبيع بنفسها الذهب الذي جعلها حنانها السخيّ تُعدّه لي ، إلا أنني إن أقدمت على فعلة كهذه بنفسي ، فسيعدّ هذا بمثابة انتهاك للمحارم في ناظري . - أمسكت أوجيني بيد ابن عمّها بحنان ، حينما شرح لها كلّ هذا- .

- لا ، قال شارل بعدَ برهة من الصمت تبادلا خلالها نظرة نديّة ، أنا لا أريد لا أن أحطّمه ولا أن أخاطرَ به خلال أسفاري . عزيزتي أوجيني ، سأتركه أمانة عندكِ . وصدّقيني ، لا يوجَد

صديق قد ائتمنَ صديقه على أمانة أغلى وأقدَسَ من هذه التي أعطيكِ إيّاها . هلّا قضيت في الأمر؟

وحمل شارل العلبة ، وفتحها ، وأرى بكلّ حزنٍ ابنةَ عمّه المندهشة ، كنزهُ الذي كانت قيمة دقّة وبراعة زينته أغلى بكثير من قيمة وزن الذهب فيه .

– هذا الذي ترينه الآن لا يعدّ شيئا جللا بالمقارنة معَ ما يخفى تحته في العلبة ، والذي يساوي في ناظري الأرض وما عليها . واستخرج من العلبة التي كانت ذات طابقين صورتين أحاطت بهما أحجار كريمة .

– أوه ، يا لها من سيّدَة جميلة! هل هي تلكَ المرأة التي تكتبُ لها الرسائل . . .

– لا ، قال شارل مبتسمًا . هذه المرأة هي والدتي ، وهذا السيّد هو والدي ، واللذان همّا عمّك وزوجته . أوجيني ، أنا أتوسّل إليك لتُحافظي لي على كنزي هذا . وإن حدثَ ووافتني المنيّة وقد فقدت ثروتك الصغيرة هذه ، فاعلمي أن هذا الذهب سوف يعوّضك عنها . كما أنه لا يمكنني أن أترك هذين الصورتين إلا في حفظك وحمايتك . صمتت أوجيني فبادرها شارل بالسؤال : أجل ، أجل ، أوَ ليسَ كذلك ، أوجيني؟

عندما سمعت نفس كلماتها تتردد على لسان ابن عمّها ، ألقت عليه نظرة مُحبّة مكتنزة بالإغواء والمداعبة والعمق ، فحمَل يدها ولثمها قائلا : يا ملاكَ الطهارة والنقاء ، فبيننا لا يساوي المال شيئا ، أوَ ليسَ كذلك؟ فالمشاعر التي نُكنّها لبعضنا البعض ، ستكون كلّ شيء من هنا وصاعدًا .

– أنتَ تشبه والدتك ، هل كانَ صوتها ناعمًا مثل صوتكَ؟

- أوه ، أكثر نعومة من صوتي . . .

- أجل ، بالنسبة لكَ . هيّا يا ابن عمّي أنتَ متعب ، وأنا أريدكَ أن تنام وتحظى بقليل من الراحة ، سنلتقي غدًا .

وسحبت يدها بهدوء من بين يدي ابن عمّها الذي أعاد اصطحابها إلى غرفتها وهو يحمل لها الشمعة ليُنير طريقها . وعندمَا وصلا إلى عتبة الباب قال شارل : آه ، لماذا أنا مفلسٌ!

- أعتقد أنّ والدي غنيّ ، ردّت أوجيني .

- الطفلة المسكينة ، قال شارل وهوَ يضع قدمًا داخل الغرفة ويسند ظهره إلى الحائط ، لو كان والدك غنيًا لما تركَ والدي يموت ، ولم يكُن ليجعلكم تعيشون في هذا الفقر ، على الأقل ، كان ليعيشَ بطريقة أخرى .

- لكنه يملك فروافون .

- ومَا هي فروافون؟

- لا أدري ، لكنه يملك نوايي أيضا .

- هي مجرد مزرعة بائسة .

- هوَ يملك بساتين وأشجارًا كثيرة من الكروم ، ومروجًا . . .

- بؤس . قال شارل باحتقار . لو أنّ والدك يملك فقط أربعة وعشرين ألف جنيه من الريع ، أتعتقدين أنك كنتِ لتعيشي في غرفة عارية وباردة مثل غرفتك هذه؟ قال شارل وهو يدخل للغرفة .

- ستضعين كنوزي هنا ، قال وهو يشير إلى الخزانة القديمة .

- هيّا لنخلد للنوم ، قالت وهي تمنعُه من دخول غرفتها الفوضوية .

انسحب شارل ، وتمنيا لبعضهما البعض ليلة سعيدة بأن تبادلا ابتسامة دافئة .

نَام الاثنان غارقان في نفس الحلم . وحينها بدأ شارل في نثر الورود على حداده وبؤسه .

في صباح الغد ، وجدت السيدة غراندي ابنتها تتجول بصحبة شارل في الحديقة قبل موعد الفطور . كان الفتى المسكين حزينا تمامًا كمَا هو حال ذلك البائس الذي غرق ونزل إلى أعماق أحزانه ، والذي حينَ قيّم سعة وعمق الحُطام الذي وقع فيه ، هلع لَمّا أحسّ بثقل حياته المستقبلية .

– لن يعود والدي حتى موعد العشاء ، قالت أوجيني لوالدتها حين رأت معالم القلق ترتسم على محيّاها .

كان من السهل أن يلمح المرء على ملامح أوجيني وفي النعومة الفريدة التي تلعب بأوتار صوتها ، انعكاسا للانسجام الذي يربطها بابن عمها . كانت روحاهما قد تزاوجتا حتّى قبلَ أن يفصحا أو يحسّا بقوّة المشاعر التي تجمعهما .

في حوالي الساعة الخامسة مساءً ، عاد غراندي من أنجيه ، بعدَ أن تحصّل على حوالي أربعة عشر ألف فرنك بفضل ذهبه . كانَ قد تركَ كورنوايي في أنجيه ليعالج الأحصنة وليعيدها على مهل بعد أن يُريحَها .

– لقد عدت للتو من أنجيه ، زوجتي ، وإني جائع .

نادته نانو من المطبخ : أوَ لم تأكل شيئا منذ البارحة؟

–لا شيء ، ردّ السيّد .

أحضرت له نانو الحساء . حضَر دي غراسان ليأخذ من زبونه آخر التعليمات ، ودخل في الوقت الذي جلسوا فيه على طاولة الطعام . لم يكن غراندي قد رأى ابن أخيه .

– تناول طعامك على مهلك ، غراندي ، قال المصرفيّ ، سوف

نتحدث . هل تعلَم ما قيمة الذهب في الوقت الحالي في أنجيه بعدَ أن جاء القوم من نانت بحثا عنه؟ أعتقد أنه عليّ أن أرسلَ بذهبي إلى هناك .

- لا تتعب نفسَك وترسله ، قال السيّد غراندي ، فهناك ما يكفي من الذهب الآن بأنجيه . أنتَ عزيز كثيرًا عليّ وبذلك فأنا أحاول أن أجعلك تتفادى هدرًا لوقتك من دون فائدة .

- لكن الذهب هناك يساوي ثلاثة عشر فرنكا وخمسين سنتيما .

- أنتَ تعني ، «كان يساوي» .

- وكيفَ تعلم ذلك؟

- لقد ذهبت الليلة الماضية إلى أنجيه ، ردّ السيد غراندي بصوت منخفض .

ارتجف المصرفي من هول المفاجأة . ثم دارَ بينهما حوار خفي منخفض تبادلاه من أذن لأذن بينما هما يرمقان شارل من حين لآخر بالنظر .

- سيد غراندي ، قال السيد دي غراسان وهوَ يتوجّه إلى شارل ، أنا ذاهب إلى باريس ، وإن كانت هناكَ أية خدمة يمكنني أن أسديها لك هناك . . .

- لا شيء ، سيدي ، أشكُرُك كثيرا . ردّ شارل .

- عليكَ أن تشكره أكثر من هذا ، يا ابن أخي ، فالسيّد سيذهب إلى باريس لتسوية قضايا منزل غيوم غراندي ، قال البخيل .

- أوَ هناكَ أملٌ إذن؟ سأل شارل .

- ولكن ، قال السيد غراندي صارخا بفخر مخادع ، أوَ لستَ

ابن أخي؟ إن شرَفكَ هو شرفنا . أوَ لا تُدعى غراندي ، تمامًا مثلنا؟

قام شارل من مكانه ، وأمسك السيد غراندي ، وقبّله ، وشحب وجهه ، ثمّ اتجه خارجًا . أمّا أوجيني فتأمّلت والدها بإعجاب .

- هيّا ، وداعًا يا عزيزي دي غراسان . وتصافح الدبلوماسيان ، ثم اصطحب غراندي المصرفيّ إلى الباب ، وبعدَ أن أغلقه ، عادَ وقال لنانو بعدَ أن انغمس في الكنبة : -هلاّ أحضرتِ لي كشمشًا؟ لكنه كان جدّ منفعل لدرجة أنه لم يستطع أن يبقى في مكانه ، فنهض ونظر إلى صورة لابارتوليير ، وبدأ يغنّي ، راقصًا :

بينَ الحُراس الفرنسيين ،

كان لي أبٌ طيب .(*)

تبادلت أوجيني ومدام غراندي ونانو نظرات صامتة . دائمًا ما كانت سعادة البخيل تصيبهنّ بالهلع ، خاصة حينَ تبلغ ذروتها . في بداية الأمر ، أراد السيد غراندي أن ينام باكرًا ، وحين كان يريد النوم ، كان يتوجب على كل شيء حوله أن ينام ، تمامًا مثلما كانت بولندا برمّتها تسكر ، حينما كان ملكها ، أغسطس الثاني يشرب خمرًا . كمَا أنّ نانو ، شارل وأوجيني لم يكونوا أقل إنهاكًا من السيد غراندي . وفيما يخص السيدة غراندي فإنها كانت تأكل وتشرب وتنام وتمشي بحسَب رغبات زوجها .

إلا أنه خلال الساعتين المخصصتين لهضم طعام العشاء ، كان السيد غراندي يتمتع بمزاج طريف على غير عادته ، وردّد عدة حكم

(*) هي في الأصل أغنية فرنسية في القرن الثامن عشر ، يُقال فيها «كانَ لي حبيبٌ» ، لكن غراندي استعمل لفظ «أبٌ طيب» ، إشارة إلى السيد لابارتوليير ، الذي كان ملازمًا في الحرس الملكي .

وأمثال ، وعندمَا انتهى من شرب كأسه ، قال :

– لا يكَاد المرءُ يضع شفتيه على الكأس ، حتى يرمقه بنظرة ويجدَه قد نفذ وفرغَ ! هذه هي قصة حياتنا . نحنُ لا نستطيع أن نكونَ الآن ، وأن نكون قد كُنّا . لا يمكن للنقود أن تخرج من صرتك ، وأن تبقى في آن الوقت فيها ، لو كانَ الأمر كذلك ، لكانت الحياة جميلة أكثر من اللازم .

كان السيد غراندي سعيدا ومتسامحًا . عندمَا أحضرت نانو دولاب الغزل الخاص بها ، قال لها :

– نانو المسكينة ، هل تريدين قليلا من الكشمش؟

– آه ، لن أقول لا لكوب من الكشمش ، فمدام غراندي تعدّه أحسن من الصيدلاني .

– إنهم يضعون به الكثير من السكّر ، مما يُفقدُه ذوقه . قال السيد .

في صباح الغد ، اجتمعت العائلة على الساعة الثامنة من أجل الإفطار ، وبدَا الأمر كلوحة غنية تعكس حميمية حقيقية . فسرعان ما قرّبت المحنة التي حلّت عليهم كلاًّ من شارل وأوجيني ووالدتها ، وحتى نانو أصبحت تتعاطف معهم . هؤلاء الأربعة بدؤوا يشكلون أسرة واحدة . أما البخيل ، فلمّا أرضى بُخله كما يجب ، ولّما تأكّد من أن ابن أخيه سيرحل عنه قريبا من دون أن يتسبب له في المزيد من المصاريف ، فإنه لم يعد يبدي اهتماما بوجوده في المنزل . وترك بذلك الطفلين ، كما كان يُسمّي أوجيني وشارل ، حُرّين يتصرفان كما يحلو لهما تحتَ حراسة السيدة غراندي التي كان يثق تمامًا بها حين يتعلق الأمر بالأخلاق الدينية والاجتماعية .كانت أشغاله في البساتين ومزروعاته في لوار ،

وأشغال الشتاء في فروافون تشغله طول الوقت . وبذلك أينعت بوادر الحبّ وزهوره في قلب أوجيني . فمنذ ذلك المشهد الليلي الذي أهدَت فيه أوجيني ابنَ عمّها كنزها ، تبعَ قلبُهَا الكنز الذي قدمته .

كانَ الشريكان في السّر الذي يجمعهما يتبادلان نظرات تعكس ذكاءً متبادلا ساهم في تعميق مشاعرهما ، وجعلهما أكثر اشتراكا وحميمية بأن أصبحَا يعيشان خارجَ نطاق الحياة العادية . فإذا كانت القرابة لا تسمح بنوع من الحنان في النبرة ، ولا بنعومة في النظرات : فإن أوجيني كانت تُداعب معاناة ابن عمّها بأنامل السعادة الطفولية المتولّدة عن حبّ حديث الولادة . أوَ ليسَ هناكَ شبه ظريف بين بدايات الحبّ وبدايات الحياة؟ أوَ لا نهدهد الطفل الرضيع بأنغام ناعمة ونظرات لطيفة؟ أوَ لا نروي له قصصًا مُذهلة تجعل المستقبل يبدو مزهرًا له؟ أوَ لا يفردُ الأملُ جناحيه الزاهيين عليهِ باستمرار؟ أوَ لا يذرفُ دموعَه تارة على أحزانه وتارةَ على أفراحَه؟ أوَ لاَ يتشاجرُ لأتفه الأسباب عديمة المعنى ، من أجل أحجارٍ يُريدُ أن يُشيّد بها قصرًا متحركًا؟ ومن أجل باقات ورد ينساهَا بمجرّدِ أن يقطفها؟ أو ليسَ جشعًا برغبته في انتزاع الوقت وإمساكه ، وفي تقدّمه في الحياة؟ الحُبّ هوَ تحوّلنا الثاني . كانت الطفولة والحبّ بمثابة وجهين لعملة واحدة بالنسبة لأوجيني وشارل : لقد كانَ ذلك شغفهما الأول بكلّ ما بإمكانه أن يحملَ من طفولية ساهمت في التربيت على قلبيهما المكتنزين محنًا . كان هذا الحبّ خلال تخبّطه تحتَ أقمشة الحداد ، أعتى وأقوى بفضل الانسجام المتولّد رغم البساطة الريفية لهذا المنزل المُحطّم . فعن طريق مبادلته الحديث مع ابنة عمه على حافة الآبار ، في هذا الفناء الصامت ، وخلال بقائه في تلك الحديقة ، جالسًا على مقعد

مُطَحلب حتى موعد غروب الشمس معها ، يتبادلان الحديث عن أشياء كثيرة لا معنى لها ، أو محفوفين بهدوء وصمت المنزل الذي يجعلهما يشعران وكأنهما في أحضان الكنيسة ، استوعَب شارل حينها قداسة الحبّ ، لأن سيدته الباريسية التي كان يواعدها ، حبيبته آنيت ، لم تُرِه إلا الاضطرابات العاصفة . حاليًا ، كان يتخلى عن عاطفته الباريسية العابثة ، المغرورة ، المتفجّرة مقابل الحبّ الطاهرِ الحقيقي . كان يحبّ هذا المنزل الذي لم تعُد أخلاقياته ومبادئه تبدو له سخيفة . فأصبحَ ينزل من غرفته مسرعًا بحلول الصباح حتى يتحدث إلى ابنة عمّه لحظات قبل أن يحضر غراندي ليستخرج مستلزمات اليوم ، وبمجرّد أن يسمعَ خطوات العجوز تبتعد حتّى يعود إليها في الحديقة . كانَ جرمُ هذا اللقاء الصغير الذي كان مخفيًا حتى على والدة أوجيني والذي كانت نانو تدّعي أنّها لا تلاحظه ، يطبَع على الحبّ الأكثر براءَة وطهارة في العالم لمسة من حيوية المُتَع الممنوعة . وحين يذهب السيد غراندي ليتفقَد ممتلكاته ، يجلس شارل بين أوجيني ووالدتها ، ويراقبهن ببهجة لم يعرفها من قبلُ ، وهنّ ينسجن ويتبادلن أطراف الحديث . كشَفت بساطة هذه الحياة التي تكاد تكون رهبانية لشارل جماليات هذه الأرواح التي كانت بالنسبة له عالما مجهولا . فقد كان يعتقد أن الأخلاق مستحيلة بفرنسا ، لم يعترف بوجودها إلا في ألمانيا ، أو في روايات أوجست لافونتين الرائعة . وبدَت له أوجيني مثل مارغريت دو غوته . ويومًا بعدَ يوم ، أبهجت نظراته وكلماته الفتاة المسكينة التي استسلمت بسلاسة وعذوبة لتيّار الحبّ ، وتشبثت ببهجتها تلكَ تمامًا كما يتشبث سبّاح في النهر بأغصان الصفصاف التي تحُفّ ضفافه . أوَلم تكُن أحزان ومآسي الغياب القادم لا

محالة تُعكّر ساعاتهم البهيجة الهاربة التي تتسلل منهم يومًا بعدَ يوم؟ ففي كلّ يوم كان هناكَ حدث صغير يُذكرهم بفراقهم القادم. وهكذا، فبعدَ ثلاثة أيام من رحيل السيد دي غراسان، اصطحبَ غراندي ابن أخيه إلى المحكمة الابتدائية بسومور، بذلك الإجلال الذي يُكنه سكان الريف لتصرفات كهذه، حتى يُمضي على عقد يتخلى فيه عن تركات والده. كانَ ذلك رفضا فظيعا! وكأنه نوعُ من الردة المنزلية. ثم اتجه عندَ السيد كروشو حيث عقد توكيلين، واحدًا للسيد دي غراسان، والثاني لصديقه الذي تعهد له ببيع أثاثه. ثم توجب عليه ملأ أوراق الشكليات الضرورية للحصول على جواز سفر للخارج. وحينَ وصلت ملابس الحداد التي طلبها شارل من باريس، دعَا إليه خيّاط سومور وباعَه جميع ملابسه التي لم تعُد لازمة. وقد أُعجب السيّد غراندي كثيرا بفعلته هذه.

- ها أنتَ ذا تتصرف كرجل مسؤول يريد أن يبدأ حياته ويستعد لتكديس ثروته، قال غراندي.

- أسألُكَ يا سيدي أن تثق تماما بقدرتي على التأقلم مع وضعيتي الحالية، ردّ عليه شارل.

- ما هذا؟ سأل غراندي وقد أُفعمت عيناه بالحياة عندَ رؤيته لحفنة ذهبية أرَاهُ إياها شارل.

- سيدي، لقد جمعت أزراري وخواتمي وكلّ الزوائد التي أملكها والتي قد تكون لها أية قيمة ممكنة، لكن بما أنني لا أعرف شخصًا في سومور، أردت أن أطلب منكَ هذا الصباح أن...

- أن أشتري عنكَ هذا؟ سأل غراندي مقاطعًا إياه.

- لا، يا عمّي، بل أن تُشيرَ عليّ برجل أمين كَي...

- أعطني هذا يا ابن أخي، سوفَ أصعد لأقدّر لك قيمتها

بدقّة ، هذا ذهب مجوهرات ، قال غراندي وهو يتفحّص سلسلة طويلة ، من ثمانية عشر إلى تسعة عشر قيراطًا .ومدّ يده الكبيرة وحمل كتلة الذهب .

– ابنة عمّي ، قال شارل ، اسمحي لي أن أهديك هذين الزرّين الذين قد يفيدانكِ حين ترغبين في عقد شريط حول معصمك ، وبهذا سيكون لكِ سوار معاصر مواكب للموضة .

– أنا أقبلهُ دون تردد ، يا ابنَ عميّ ، قالت وهي تنظر إليه بلمعة ذكية .

– زوجة عمّي ، خذي هذا الكشتبان الخاص بوالدتي ، كنتُ أحتفظ به في أدوات زينتي خلال السفر ، قال شارل وهو يُهديها كشتبانا ذهبيا كانت السيدة غراندي تحلُم بواحد مثله منذ ما يزيد على العشر سنوات .

– لا توجد طريقة وافية لأعبّر لك عن شكري كفاية ، يا ابن أخي ، قالت العجوز التي دمعت عيناها .سوف أخصّص لك ، صباحًا ومساءً ، أكثر أدعيتي إلحاحًا . وإن حدث وتوفيت ، فستحتفظ لكَ أوجيني بهذه الهدية .

– تصل قيمة هذا الذهب إلى تسعمائة وتسعة وثمانين فرنكًا ، وخمسة وسبعين سنتيم ، قال السيد غراندي وهو يفتح الباب . ولكن ، لأوفّر عليكَ مشقة بيعه ، سوفَ أدفع لكَ قيمته النقدية الآن . . .بالجنيهات .

أمّا مصطلح الجنيهات في هذه المنطقة فيعني أن الجنيهات ذات فارق نقدي صغير أقل من الفرنك ، ممّا يوفّر على السيد غراندي بعض المال .

– لم أجرؤ على اقتراح ذلك عليك سيدي ، إلا أنه كان

ليسوءني أن أبيع مجوهراتي في البلدة التي تقطن بها . فعلى المرء أن يغسل ملابسه المتسخة بين أفراد عائلته ولا ينشرها أمام الملأ ، كما يقول نابليون . ولذلك فإني أودّ أن أشكركَ على لطفك وكرمك .

فرك السيد غراندي أذنه بارتباك ، ولم يجد ما يقوله .

– عمّي العزيز ، بادرَ شارل قائلا من جديد خوفا من أن يجرح انفعاله ، لقد بلغ لطف ابنة عميّ وعمّتي أن قبلتا ذكريات غير ذات قيمة منّي ، وأتمنى أن تقبل بدورك هذه الأزرار التي لم تعد تنفعني ، على أمل أن تذكرك بالفتى المسكين الذي ، حتى وإن كان بعيدًا عنكم ، سيفكّر دومًا بكم باعتباركم عائلته الوحيدة .

– يا بني ، ما كان عليكَ أن تحرم نفسك هكذا . . . ما الذي أهداك إياه يا زوجتي؟ سأل غراندي وهو ينظر بطمع إلى يديها ، آه ، كشتبان ذهبي! وأنت يا بنوتتي؟ حسن ، حسن ، سآخذ هذه الأزرار منك يا بنيّ ، لكن ، سوف تسمحُ لي بأن أدفع عنك تكاليف سفرك إلى الهند . كما أنني في تقييمي لقيمة ذهبك يا بنيّ لمْ آخذ بعين الاعتبار سوى وزنه وذلك بغض النظر عن تكاليف زينته . ولذا ، فسوف أعطيك خمس عشرة مائة فرنك . . . جنيهات! سأستلفها من السيد كروشو لأني لا أملك مليّما الآن .

وحمل قبعته وقفازاته ، وقفل خارجا .

– سترحَل قريبًا ، إذن ، قالت أوجيني لابن عمّها وهي ترمقه بنظرة امتزج فيها الحزن والإعجاب .

– أجل ، يتوجّب عليّ ذلك . قال شارل وهو يخفض رأسه .

منذ عدة أيام ، عكست أساليب شارل وأقاويله حزنًا عميقا في نفسه ، لكنه ، في آن الوقت ، وتحت ثقل المسؤوليات التي عليه أن

يواجهها ، كان يحاولُ أن يستمد شجاعةَ من بأسه . لم يعُد يتأوه حزنا ، بل غدًا رجلا بحق . ولذلك فإن تقدير أوجيني لشخصية ابن عمّها بلغ أوجه حين شاهدته في ملابسه السوداء التي لاءمت وجهه الشاحب . في ذلك اليوم ، شاركت المرأتان شارل في مراسم قداس الموتى التي أحيتها الرعية من أجل روح السيد غيوم غراندي . وعندَ الإفطار الثاني ، تلقى شارل رسائل من باريس ، وقرأها .

– ماذا إذن يا ابن عمّي ، هل أنتَ راض عن سيرورة أمورِكَ؟ سألته أوجيني بصوت منخفض .

– لا يجب أن تطرحي أبدًا هذا النوع من الأسئلة يا ابنتي ، ردّ غراندي . ربّاه ، أنا لا أخبرك حتى عن أموري وصفقاتي ، فلمَ قد تحشرين أنفك بأمور ابن عمّك . فلتدعيه وشأنه ، هذا الفتى المسكين .

– أوه ، ليسَ لي أسرار لأخفيها ، قال شارل .

– تا ، تا ، تا ، تا ، ستتعلم أنه يلزمك أن تبقي على فمك مغلقا إن أنتَ أردتَ أن تنجح في التجارة .

وعندَما انفرَد العشيقان في الحديقة ، أخبرَ شارل أوجيني بعدَ أن أجلسها على مقعد قديم تحتَ شجرة الخوخ : لقد فعلتُ حسنا حين وثقتُ بألفونس ، فلقد تصرّفَ بطريقة رائعة . لقد كان حذرًا يقظا أمينًا في تعامله مع أغراضي . لم تعد عليّ أيّ ديون بباريس ، فقد تمّ تسديدها بعدَ بيع كلّ أثاثي ، ولقد أخبرني أنه وظف الثلاثة آلاف فرنك المتبقية ، بحسب نصيحة خبير ، ليشتري بضع سلع يمكنني الاستفادة منها كثيرا في الهند . ولقد أرسلَ طرودي إلى نانت ، ممّا يعني أنه في غضون خمسة أيّام سيكون علينا أن نودّع

بعضنا البعض، للأبد ربّما، أو على الأقل لمدّة طويلة. ستكون سلعتي بالإضافة إلى عشرة آلاف فرنك أرسلها لي صديقان لي بداية جيّدة على ما يبدو، ولا يمكنني أن أفكّر في عودة ممكنة إلا بعد عدّة سنوات. ابنة عمّي الحبيبة، أرجوك لا توازني ولا تقارني حياتي بحياتك، قد أموت، وقد تتقدّم لكِ عروض مغرية...

- أوَ تحبُّني؟ قالت أوجيني.

- أوه، أجل، كثيرا. ردّ شارل بنبرة عميقة تعكس عمقَ إحساسه.

- سأنتظركَ. ربّاه، والدي يُطلّ عندَ نافذته! قالت أوجيني وهي تدفعه مبعدة إياه عندمَا اقتربَ ليُقبّلها.

ركضت أوجيني تحت الأقواس، وتبعها شارل، وعندما رأته اندفعت نحوَ الدّرج وفتحت الباب، ثم، ومن دون حتى أن تُدركَ أينَ كانت، وجدت نفسها أمام غرفة نانو، في المنطقة التي يكسوها ظلام حالك، وتبعها شارل، وأمسك بيدها، وجذبهَا نحوَ قلبه، ممسكا إياها من خصرها، ودفعها بلطف في أحضانه. لم تُقاوم أوجيني البتّة، وتقبّلت قُبلته الأكثر صفاء، والأكثر لذّة، والأكثر كمالا من بين كلّ القبل.

- عزيزتي أوجيني، أن أكونَ ابن عمكِ أفضل من أن أكون أخاك، فابن عمّك يستطيع أن يتزوجكِ.

- هكذا إذن! صرخت نانو وهي تفتح باب الغرفة.

هلع العشيقان من خروجها المفاجئ وهرعا مسرعين إلى الصالة حيث عادت أوجيني إلى حياكتها بينما أمسك شارل إحدى كتب السيدة غراندي الدينية وتظاهر بقراءتها.

بمجرّد أن أعلن شارل عن نيّته في السفر، بدأ غراندي يتظاهر باهتمامه الشديد، وبدَا كمتحرّر يقتني لشارل كلّ ما لا يكلّف من حاجيات، ووجدَ له عتالا، لكنه انتقده لاحقا مؤكدا أن أسعاره باهظة وأنه سيتكفل بنفسه برزم أغراض ابن أخيه، وفعلا استيقظ في صباح الغد ليُعدّل بنفسه كل شيء، وتكفّل بإنزالها إلى لا لوار، ليؤمّنها ويُرسلها في الوقت المناسب إلى نانت.

منذ قبلتهما المسروقة في الرواق، تسرّبت الساعات من بين يدي أوجيني بسرعة رهيبة. في مرات عديدة كانت بها رغبة في أن تتبعَ ابن عمّها. وحده ذلك الذي سبق له وأن تذوّق أكثر العواطف تعلّقا بقلب الإنسان، تلكَ التي تتقلّص يومًا بعدَ يوم بسبب السنّ، أو الزمن، بسبب مرض عضال أو مخاطر إنسانية، وحده ذلك من سيفهم ما تمرّ به أوجيني. غالبًا ما كانت تبكي وحيدة وهي تتجول بالحديقة التي غدت أضيق من أن تتسع لسعة حبّها.

وأخيرًا وصلت الليلة التي تسبق رحيل شارل. في الصبيحة، خلال غياب السيد غراندي ونانو وُضع الصندوق الثمين بحرص وإجلال في مكان آمن داخل الخزانة أينَ حُفظت صرّة نقود أوجيني فارغة. ولم يفوّت العاشقين فرصة تبادل القبلات والدموع. وحين خبّأت أوجيني المفتاح في حمّالة صدرها، تمامًا بجانب ثديهَا حيث يختفي قلبها، لم تستطع منع شارل من تقبيلها عليه.

– لن يخرُجَ المفتاح من هنا، يا عزيزي.
– وحتّى قلبي سيبقى معهَ إلى الأبد.
– آه، شارل، هذا ليسَ جيدًا، قالت أوجيني بنبرة مؤنبة.
– أوَ لسنَا متزوجين، ردّ شارل، لقَد أخذتُ وعدَك لي بحبّ

أبدي فهلاّ أخذتِ وعدي .

- «أناَ لك ، إلى الأبد» ، رُددت مرتين من شفاه العاشقَين .

لم يكن هناك وعد على وجه الخليقة أكثر نقاء وصفاءً : فلوهلة ، طهّر نقاءُ أوجيني خطايا حبّهما .

كان فطور صبيحة الغد جدّ كئيب . فحتّى نانو التي أهداها شارل ثوبًا ذهبيا وصليبًا ، لم تستطع أن تمنع نفسها من ذرف الدموع تعبيرًا عن حزنها على فراقه إياهم .

على العاشرة والنصف ، اصطحبت الأسرة شارل إلى نانت . أطلقت نانو سراح الكلب المتوحش في الحديقة ، وأغلقت الباب بإحكام ، وأرادت أن تحملَ حقيبة سفر شارل . ووقفَ كل الباعة عندَ عتبات دكاكينهم يرقبون في وجل هذا الموكب الجليل الذي انضم إليه السيد كروشو . مكتبة الرمحي أحمد

- لا تبكِ أوجيني ، قالت السيدة غراندي .

- يا ابنَ أخي ، قال السيد غراندي وهو يقف عندَ باب العربة مُقبّلا شارل على وجنتيه ، فلتذهَب فقيرًا على أمل أن تعود ثريًا ، ستجدُ شرف أبيكَ محميًا هاهنا . أنا غراندي ، سوف أفعل ما بوسعي من أجل . . .

- آه يا عمّي ، أنتَ تُخفف من مرارة رحيلي . أوَ ليسَ وعدك هذا أجمل هدية تُقدّمها لي؟

قطع بذلك شارل قول عمّه من دونَ أن يعي ما أراد قوله ، وذرف على وجنتي عمّه دموع الامتنان ، بينَما تشبثت أوجيني بحنان كبير بهما ، وأمسَكت بيد شارل ويد والدها في آن الوقت . وحدهُ الموثق من ابتسم لدهاء السيد غراندي ، فقد كان الوحيد الذي يعلم ما يخفيه هذا الأخير .

وقف السوموريون الأربعة محاطين ببضعة أشخاص وراقبوا العربة وهي تبتعد تدريجيا ، حتى اختفت عن الأنظار ، فتمتم البخيل حينها : رحلة سعيدة ، تبددت دون أن يسمعها شخص آخر غير السيد كروشو ، لحسن الحظ . بينمَا وقفت أوجيني وأمّها في مكان خاص من المحطّة مرفرفتين بمناديلهما البيضاء ، وردّ عليهما شارل مرفرفا بدوره بمنديله .

- أمّاه ، ليتَ الله يبثّ فيّ قليلا من القوّة تبعثني على الصّبر والتحمّل ، قالت أوجيني عندمَا اختفى منديل شارل عن الأنظار .

وحتى لا نقطع سيرورة الأحداث التي جرت في قلب عائلة غراندي ، من الضروري أن نلقي نظرة خاطفة على الإجراءات التي اتخذها السيد غراندي في باريس بمساعدة دي غراسان بخصوص شؤون منزل غيوم غراندي ، حيث جرى كلّ شيء تمامًا كما أراده السيد غراندي .

في البنك الفرنسي ، وكما يعلمُ الجميع ، توجد معلومات دقيقة عن أكبر ثروات باريس والمقاطعات . وقد كانت أسماء دي غراسان ، وفيليكس غراندي من سومور من ألمع وأشهر الأسماء بها ، وكانت تحظى باعتبار كبير يخصّ مشاهير الأغنياء الذين يحظون بممتلكات عقارية واسعة . ولذلك فإن وصول المصرفي من سومور مكلفًا بتصريف ديون منزل السيد غيوم غراندي الباريسي بشكل مُشرّف كان كافيًا لتجنّب إحراج الاحتجاجات .

تمّ جمع الأختام بحضور الدائنين ، وبدأ موثق العائلة في تجريد التركة . بعدها بمدة قصيرة جمَع دي غراسان الدائنين ، الذين أجمعوا على تعيين كلّ من السيد دي غراسان ، مصرفّي سومور ،

والسيد فرونسوا كيلر، ربّ بيت غنيّ وأحد أكثر المهتمّين بالقضية، كمصفّيَين. وأوثقوا إليهما السلطات الضرورية لإنقاذ كلّ من اسم وشرف العائلة غراندي، بالإضافة إلى الديون. إن ائتمان الدائنين لغراندي على أموالهم، وآمالهم التي بَثّها فيهم عن طريق دي غراسان سهلت الإجراءات كثيرا، فلم يعاند أو يحتجّ أي دائن. لم يفكّر أحدُ الدائنين في حساب الأرباح والخسائر، وكان الجميع يردد: - غراندي من سومور سوف يدفع!

ومرّت ستة أشهر وسدّد الدائنون السندات المعلّقة، واحتفظوا بهَا في قيعان محافظ نقودهم، وهي النتيجة الأولى التي أراد البخيل أن يصل إليها. وبعدَ تسعة أشهر من الاجتماع الأول، وزّع المصفيان سبعة وأربعين بالمائة من مستحقات كل دائن. وقد تمّ جمع هذا المبلغ نتيجة بيع لكلّ الأسهم والممتلكات والتركات والسلع التي تعود للسيد غيوم غراندي، والتي بيعت بحرص شديد. وقد تمتّعت هذه التصفية بنزاهة شديدة. وبذلك فإن الدائنين اعترفوا بدموع ملؤها العرفان والامتنان بشرف السيد غراندي ونزاهته المبهرين والذين لا جدال ولا شك فيهما. وبعدَ أن مرّت موجة المدح والعرفان كمَا يجب، طالب الدائنون ببقيّة أموالهم. وتحتّم عليهم أن يجتمعوا لصياغة رسالة جماعيّة للسيد غراندي.

- ها نحن ذا، قالَ البخيل العجوز وهو يرمي بالرسالة في نار المدفئة، فلتتعلموا الصبر يا أصدقائي الصغار.

وكردّ على الاقتراحات الواردَة في تلك الرسالة، فقد طلبَ السيد غراندي إيداع جميع سندات المديونية المرفوعة ضد ورثة أخيه مصحوبة بصكوك الدفع عندَ كاتب عدل، متذرعًا بالتدقيق

في الحسابات . وقد ساهم هذا الإيداع في تخليصه من آلاف الصعوبات . فعادة ما يتعامل الدائن كمهووس ، فلو كان اليوم في مزاج يسمح له بالتفاوض ، فقد يكون في يوم الغد منقادا برغبة ثورية قادرًا على حرق الأخضر واليابس من أجل استعادة نقوده ، وفيما بعد قد يعود إليك مبتهجا . فاليوم زوجته بمزاج جيد ، وقد ظهرت لابنه الصغير أسنان صغيرة ، كلّ شيء على ما يرام في منزله وهو لا يريد أن يبذر نقوده ، وعندما تمطرُ في الغد ويتعكر مزاجه حيث يحسّ بالاكتئاب ، ولا يستطيع الخروج من منزله ، فيوافق على جميع أنواع الصفقات التي تُعرَض عليه لإتمامها ، وبعدها بيوم فهو يريد ضمانات ، وفي نهاية الشهر ، هو يدّعي أنه سيقاضيك ليعدمك ، ذلك الجلّاد! وكان السيد غراندي قد لاحظ التقلبات الجوّية التي تعصف بالدائنين ، وقد وافقت أمزجة دائني أخيه كلّ حساباته . فقد غضب البعض ورفضوا تمامًا فكرة الإيداع :

- حسن ، هذا جيد ، كان غراندي يقول وهو يفرك يديه حماسة أثناء قراءته للرسائل التي تصله بهذا الصدد . أما البعض الآخر فلم يوافقوا على الإيداع إلا بعدَ أن اشترطوا إيضاح حقوقهم وألا تسقط أيّ منها ، حتى حقّ إعلان الإفلاس احتفظوا به بأنفسهم . وقد ردّ السيد غراندي بالإيجاب على رسائلهم وطلباتهم . ومن خلال هذه التنازلات والحقوق الممنوحة ، نجح الدائنون المتساهلون في إقناع الدائنين الذين عاندوا ، وبذلك تمّ الإيداع ، رغم بعض الشكاوي . فقد كان البعض يقولون للسيد دي غراسان : هذا السيّد يسخر منكَ ومنّا . وبعد ثلاثة وعشرين شهرًا من وفاة السيد غيوم غراندي ، وبعد تردّد وتزايد الصفقات على التجار الباريسيين ، نسيَ أغلبهم أمر استرجاع نقودهم من غراندي التي كلّما تذكّرَها أحدهم علّق

قائلا : أكاد أجزم أن السبعة وأربعين بالمائة هي كلّ ما سأسترجعه من كلّ هذا . وقد اعتمدَ البخيل في هذا على قوّة وتأثير الزمن على المرء ، فكان يعتبر الوقتَ شيطانا .

وبحلول نهاية السّنة الثالثة كتب دي غراسان إلى السيد غراندي رسالة يخبره فيها أنه عندما وظف عشرة بالمائة من المليونين وأربعمائة ألف فرنك التي يَدينُ بها منزل السيد غراندي للدائنين جعَل هؤلاء يُرجعونَ له سندات المديونية . وردّ غراندي عليه متسائلا عن كاتب عدل أخيه وسمساره الذين تسببا في موته بينما هما لا يزالان على قيد الحياة ، وأنه بالإمكان استغلالهما حتى يسحب منهما مبلغا يخفضون به قيمة العجز عن تسديد الديون .

وبحلول نهاية السنة الرابعة ، انخفض العجز فعليًا وتوقف عندَ قيمة اثنا عشر مائة ألف فرنك . وقد جرت محادثات طويلة بين المُصرفين والدائنين ، وبين غراندي والمُصرفين . ولكي يتخلص من المشكلة ، ردّ غراندي على المُصرِّفين عند الشهر التاسع من تلكَ السنة ، قائلا أن ابن أخيه الذي قد تمكّن من جمع ثروة معتبرة في الهند قد راسله مُعلنًا نيّته في دفع بقايا ديون والده *كاملة* ، وبالتالي فهو لن يتمكن من التصرف من دون استشارة ابن أخيه وأخذ رأيه بعين الاعتبار ، وبذلك فعلى الدائنين أن يتحلوا بالصبر ريثما يراسله ابن أخيه بالجواب الذي ينتظره . وحتى بعدَ العام الخامس ، فإن الدائنين كانوا لا يزالون ينتظرون مشلولين تمامًا بسبب كلمة «*كاملة*» التي كان السيد غراندي يُلقيها من حين لآخر عليهم ، كطُعم ، هو الذي كان يضحكُ عليهم تحتَ شعر لحيته الكثّ ، ودائما ما كانت ابتسامة ساخرة تُطبع على شفاهه كلّما تذكرهم قائلا : أولئك الباريسيون!

إلا أن الدائنين لبثوا رهائن لقدرهم المجهول . ووجدوا أنفسهم في الوضعية التي رسمها لهم غراندي حتّى يتسنّى له إعادتهم إلى الصورة حين يحتاجهم عندَ تغير معطيات هذه القصّة .

عندما وصلت الريع إلى ١١٥ ، باع السيد غراندي وسحَب من باريس حوالي مليونين وأربعمائة ألف فرنك ذهبي ، بالإضافة إلى الستمائة ألف فرنك التي عادت إليه كفوائد من تسجيلاته .

وقد بقي دي غراسان بباريس لعدة أسباب . ففي بداية الأمر ، كانَ قد عُيّن كنائب ، ثم ما لبث أن وقع في شراك الحبّ ، رغم كونه ربّ أسرة ، إلا أن مجرد التفكير في حياته في سومور كان يبعث الملل في روحه ، ووقع في حبّ فلورين ، إحدى أجمل ممثلات المسرح الفرنسي ، وعادَ بذلك نشاط العسكري إلى المصرفيّ . ليسَ من الضروري أن نتحدث طويلا عن تصرّفاته التي اعتُبرَت في سومور تصرفات فاسقة لا أخلاقية .

أما زوجته فقد كانت جدّ سعيدة بكون أموالهما منفصلة وبقدرتها على إدارة منزلها في سومور بحريّة والذي واصلَ سيرورته باسمها وذلك لفصل المشاغبات التي تسبب بها السيد دي غراسان عن ثروتها . أمّا آل كروشو فقد زادَوا الطين بلّة بأن ضغطوا بتهكماتهم على السيدة شبه الأرملة والتي زوجت ابنتها زواجًا غير موفق ، واضطرت للتخلي عن فكرة تزويج ابنها ألفونس بأوجيني ، حيث أن هذا الأخير لحق بوالده في باريس وساءت سمعته كثيرًا حينها . وبذلك انتصر آل كروشو .

– زوجك ليسَ عقلانيا أو حكيمًا بالمرّة ، قال غراندي وهو يقرض مبلغا ماليًا للسيدة دي غراسان ، أنا أشفق على حالك كثيرا سيدتي ، فأنتِ امرأة صغيرة لطيفة وطيّبة .

- آه يا سيدي، تردّ المرأة المسكينة، من ذا الذي كان يُصدّق أنه كان يتجه مهرولا نحوَ خراب بيتنا حينَ خرج من بيتكَ متجها إلى باريس.

- إن السماء لتشهد يا سيدتي على أني فعلت ما بوسعي حتى آخر لحظة لأمنعه من الذهاب. فقد كان السيد الرئيس يريدُ بكلّ ما أوتي من رغبة وقوّة أن يذهب بدله، ولو أن السيد دي غراسان كان يُصرّ

إصرارًا على الذهاب حينها فإننا نعرف الآن السبب الخفي وراء إلحاحه.

وبهذا، لم يعُد غراندي مدينًا لآل دي غراسان بأي شيء.

على كلّ حال، فللنساء أسباب تتسبب في معاناتهن وتعاستهن أكثر ممّا يُمكنُ أن يكونَ للرجال، وهنّ يكابدن الحياة ويقاسين أكثر منهم. فللرجل قوته وقدرته على ممارسة قوته واستعمالها: فهو يتحرّك، ويذهب، وينشغل، ويفكّر، ويحضن مستقبله الذي يجدُ فيه عزاءً ومواساة. وهكذا كان حال شارل. أمّا المرأة فتكمن وتبقى، وتواجه الكرب وجهًا لوجه من دون أن يصرف انتباهها عنه أو يلهيها عن مآسيها شيء، هي تهوي رويدًا رويدًا حتى تصل إلى قاع الهاوية والخراب الذي تسبب به شجنها، وغالبًا ما تقيس عُمق هُوتها هذه، وتملؤها أمانيَ ودموعًا. وهوَ ما فعلته أوجيني. حيث شرعت في مواجهة قدرها حينها. أن تحسّ وتحبّ وتعاني وتخلص، هذا هو دائما ملَخّص سيناريو حياة المرأة. كان على أوجيني أن تكون المرأة كاملة. فسعادتها إذا ما كُدّست كمسامير مزروعة في جدار ما، حسبَ وصف بوسوي الخلاب، لن تشكل يوما حفنة تملأ كف يدها

كفاية .(*) والمَآسي لا تَجعلُكَ تنتظر أبدًا ، وبالنسبة لأوجيني فقد وصلتها المآسي مبكرًا . ففي اليوم الموالي لرحيل شارل عادَ منزل غراندي إلى طبيعته وعادته ، إلا بالنسبة لأوجيني التي أحست بفراغ شاغر يملؤه . من غير علم والدها ، أبقت على غرفة ابن عمّها تمامًا كما تركها عندَ رحيله ، وقد كانت السيدة غراندي ونانو شريكتين لها في إبقائها على وضعها .

– من يعلم ، ربّما سيعود قبلَ الموعد الذي نعتقد أنه سيعود فيه .

– آه ، سيُسعدني أن أراه هنا ، لقد اعتدت عليه ، إنه لسيّد لطيف ومثالي ، وسيم وخلاب ، قالت نانو . وحين نظرت إليها أوجيني صرخت نانو قالت : يا للعذراء! آنستي ، عيناك تلوحان بدمار كبير يحدث بين ثنايا روحك! أرجوك لا تنظري للغير بهذه الطريقة .

ومنذ ذلك اليوم ، أخذ جمال الآنسة منحى جديدا غير معهود . فقد ساهمت أفكار الحبّ الجليلة التي غزت روحها وسكنتها رويدًا رويدًا ، وكذلك مجدُ المرأة المحبوبَة في إضفاء بهاء

(*) في كتابه : تأملات في قصر الحياة ، قال بوسوي : «فلننظر إلى ماذا يمكننا أن نختصر كلّ هذا : ما الذي يمكنني أن آخذ في الحسبان إذن؟ . . . اللحظات التي كنتُ خلالها سعيدًا منتشيا ، والتي نلتُ فيها فخرًا أو شرفًا ما؟ ولكنّ تلك اللحظات مشتتة متباعدة في حياتي! إنها تشبه المسامير المتشبثة على طول جدار ممتد على مسافة معتبرة ، قد تتخيلون أنها تشغل حيّزا كبيرًا ، اجمعوها ، وستجدون أنها حفنة لا تكاد تشغل حتى كف يد .» وقد تأثّر بالزاك كثيرا بهذا التشبيه .

وتوهج جديدين على ملامح وجهها ، وبدَا ذلك كالهالة التي يُضفيها الرسّامون على لوحاتهم . قبلَ مجيء ابن عمّها ، كان بالإمكان تشبيه أوجني بمريم العذراء قبلَ حملها ، وبعدَ رحيل شارل عنهَا ، صار بالإمكان تشبيه أوجيني بمريم العذراء كأمّ للمسيح : فقد حبلت بالحبّ . وتمثّل هذين العذراوين المختلفتين والممثلتين ببراعة من طرف الرسامين الإسبانيين أحد أبرز وألمع الصوّر التي تفيض بمعاني المسيحية .

وعندما عادت من القداس في صبيحة اليوم الذي يلي رحيل شارل ، وبعد أن عقدت العزم على أن تذهب للقداس كل يوم ، مرّت بجانب مكتبة وجلبت معها خريطة للعالم علّقتها بجانب مرآتها . وذلك حتى يتسنى لها أن تتابع ابن عمّها في رحلته إلى الهند ، وحتى تصحبه بذلك في الصباح والمساء في باخرته المبتعدة عنها ، وحتى يتسنى لها رؤيته وطرح آلاف الأسئلة عليه : هل أنتَ بخير؟ أوَ لا تُعاني؟ أوَ يحدُث أن أخطر ببالك حين ترى تلك النجمة التي أريتني جمالها واستعمالاتها؟ وفي الصباح ، كانت تجلس تحت شجرة الجوز ، على المقعد الذي كان يشاركها شارل عليه الكثير من الأحاديث العذبة والسخيفة ، وحيث بنا معها في مخيلتها قصورا في إسبانيا . كانت تفكّر بالمستقبل المجهول وهي تنظر إلى الحيز الضيق من السماء الذي يُمكنها رؤيته من بين أغصان الأشجار التي تكسو رؤيتها . ثم كانت تتأمل الجدار والسقف الذي تتوضع تحته غرفة شارل . ففي النهاية ، كان الحبّ المنزوي المتوحّد هو الحبّ الحقيقي الذي يُقاومُ والذي ينزلق عندَ كلّ فكرة طاغيًا عليها ، ليصبح مادّة ، تكسو حياتنا وفكرنَا كقماش .

حين كان أصدقاء العائلة المزعومين يزورونهم مساء كل يوم ،

كانت تبدو سعيدة حيث أنها تعلّمت كيف تُخفي مآسيها ، لكنّها كانت تحكي عن شارل طيلة الصبيحة كلّ يوم مع والدتها ومع نانو . هذه الأخيرة استوعبت أخيرًا أنه يمكنها أن تتعاطف مع سيدتها الصغيرة من دون أن ينتقص هذا من إخلاصها تجاه واجباتها نحو سيّدها ، وكانت تقول لأوجيني :

- لو كان لي رجُلٌ ، أحبّه ، لتبعته حتى الجحيم . . . لكنتُ . . . لكنتُ قد أبدتُ نفسي لأجله ، ولكن ، تبًا ، سوفَ أموتُ من دون أن أعرف ما هي الحياة . أوَ تعتقدين يا آنستي أن كورنوايي العجوز ، ورغم أنه رجلٌ طيب ، يحومُ حولي فقط من أجل معاشاتي وأموالي التي جمعتها طيلة حياتي ، تمامًا كمَا يأتي أصدقاء السيد غراندي هنا ليتوددوا إليكِ بينما يتشممون أموال السيد؟ إلا أن ذلك الاهتمام يُسعدُني حتى لو لم يكُن حبًا .

وبعد شهرين على هذه الحالة ، توطّدت حياة وعلاقة النسوة الثلاثة بفضل السرّ الذي كنّ يتكتمنه بحميمية ، بعدَ أن كانت حياتهم فاترة روتينية . فبالنسبة لهن ، كان شارل لا يزال يمشي على الأرضية المهترئة لهذا المنزل ، كان شارل لا يزال حيًا ، يروح ويجيء .

صباحًا ومساءً ، كانت أوجيني تفتح خزانتها لتتأمل صورة زوجة عمّها . وفي صبيحة أحد الآحاد ، فاجأتها أمها بينما هي لا تزال تبحث عن ملامح شارل في وجه والدته على الصورة . واكتشفت السيدة غراندي بذلك سر التبادل الذي جرى بين شارل وأوجيني .

- أوَ أعطيته كلّ شيء؟ سألت الوالدة مذعورة . ما الذي ستقولين لوالدك إذن ، في رأس السنة ، حين يطلُب منك أن تريهِ ذهبكِ؟

غرقت المرأتان في هلع قاتل طيلة الصبيحة لدرجة أنّهما فوتتا القُداس . حيث أنه لم يتبق حينها على نهاية سنة ١٨١٩ سوى ثلاثة أيام . في غضون ثلاثة أيام ، سيشهد بيتهم تراجيديا بورجوازية لم تلجأ إلى استعمال لا السمّ ، ولا الخنجر ، ولا الدّم المهدور ، لكنها بالنسبة لممثلي هذه التراجيدي ستكون أكثر وحشية من الدراما التي جرت بين آل أتريوس(*) .

- ما الذي سنصبح؟ ما الذي سيؤول حالنا إليه!؟ سألت السيدة غراندي بهلع شديد وهي تترك القميص الذي تحيكه على ركبتيها .

- أعتقد أنك فقط لو أخبرتني بالأمر يا ابنتي المسكينة ، لو أنّك عهدت إليّ بسرّك هذا ، لكان الوقت قد تسنّى لنا لنكتب رسالة للسيد دي غراسان في باريس ، ولكان بإمكانه حين إذن أن يُعدّ لنا قطعا شبيهة بتلك التي أعطيتها لابن عمّك ، رغم أني أعلم أنّ والدك يعرفها تمامَ المعرفة . . .

- ومن أين لنا بالنقود لنفعل ذلك؟

- لكنتُ قد وضعت نقودي الخاصّة من أجل تفادي نتائج هذا الأمر الجلل ، كما أني أعتقد أن السيد دي غراسان ما كانَ ليطالبنا . . .

- لكنّ الوقت نفذ من بين أيدينا الآن ، قالت أوجيني مقاطعة حديث والدتها . أوَ لن يكون علينا في صبيحة الغد أن نذهب لنتمنى له عامًا سعيدًا ، في غرفته؟

- ولكن ، يا ابنتي ، لِمَ لا أذهبُ لرؤية آل كروشو؟ قد

(*) آل أتريوس : عائلة ملعونة من الآلهة ، في الميثولوجيا الإغريقية .

يساعدونني على تفادي هذه المصيبة .

- لا ـ لا يا أمّي ، فبذلك أكون قد أهدَيتُ نفسي لهم على طبق من ذهب ، وسيتحتم عليّ أن أغدو تابعة خاضعة لهم . كمَا أني نلتُ نصيبي من السعادة بفعلتي تلكَ ولا أحسّ بأدنى شعور بالذنب على ذلك . سوف يحميني الربّ . ولتتحقق إرادته المقدّسة . آه ، لو أنكِ قرأتِ رسالته يا أمي ، لما كان بإمكانك غير التفكير فيه ذلك المسكين .

في صباح الغد ، أول يناير من عام ١٨٢٠ ، لم يقترح هلع الأم وابنتها عليهما من ذريعة للتهرّب أكثر فطنة من الذريعة الأكثر بديهية لتجنب الذهاب إلى غراندي في غرفته . فقد كان شتاء ١٨١٩ إلى ١٨٢٠ من أقسى فصول الشتاء التي عرفتها المنطقة ، وكست طبقة كثيفة من الثلج أسقف المنازل .

ولذلك ، فإن السيدة غراندي بمجرد أن سمعت تحركات زوجها في غرفته قالت له :

- غراندي ، هلّا طلبت من نانو أن تضرم القليل من النار في مدفأتي ، فالبرد سيتسبب في تجمدي تحت غطائي . فلقد بلغت سنًا يلزمني فيه بعض الاحتياطات . كمَا أني أعتقد أنه يتوجب على أوجيني أن تأتي إلى هنا لتغير ملابسها ، فقد يتسبب هذا البردُ في مرضها حتمًا إن هي بقيت في غرفتها لتتزين في جوّ مماثل . ثمّ سنذهب سوية لنتمنى لكَ سنة سعيدة بالقرب من المدفأة في الصالة .

- تا ، تا ، تا ، تا ، ما أطولَ لسانك! يا لها من طريقة شنيعة لتبدئي بها العام يا مدام غراندي! لم تثرثري يومًا لهذا الحد!

ثم ، وبعد برهة من الصمت فكّر فيها السيد غراندي في

اقتراح زوجته ورأى أنه يناسبه ، قال لها :
- سوف أفعل ما تريدين ، مدام غراندي ، أنتِ فعلا زوجة طيبة ولا أريدُ أن يُصيبكِ أيّ مكروه في عمرك هذا رغم أنكم أنتُم آل لا بارتولييز مُصمَمون من الإسمنت الصلب . أوَليس كذلك؟ على كلّ ، لقد ورثنا أموالهم رغم أنهم عاشوا طويلا ، وقد غفرت لهم ما بيننا .
- تبدو جدّ سعيدٍ هذا الصباح يا سيدي ، قالت المرأة المسكينة .
- أنا سعيد دائما . . .
ثم دخل إلى غرفة زوجته مدندنا وكان قد ارتدى كل ملابسه : يا إلهي ، البردُ قارص فعلا . سوفَ نُفطرُ جيدًا هذا الصباح ، يا زوجتي ، فقد أرسلَ لي دي غراسان سجقا محشوًا بالكبد! سوف أذهب لأحضره . ولابدّ أن يكون قد أرسل قطعتي لويس ذهبيتين لأوجيني معه . أوه ، لم يعُد لي ذهب يا زوجتي ، لقد كانت لي قطع ذهبية قديمة ، لكني اضطررت لتوظيفها في بعض الأمور ، أجل ها أنا ذا أخبرك ببعض أسرار عملي .
ولكي يحتفل برأس السنة ، قبّل زوجته على جبينها .
- أوجيني ، نادت السيدة غراندي ابنتها بمجرد أن غادر زوجها ، لا أعرف ما الذي حدث لوالدك هذا الصباح ، لكنه جد لطيف! أعتقد أننا سننفذ بجلدنا من غضبه .
- ما خطبُ سيدي هذا الصباح؟ قالت نانو وهي تنضمّ إليهنّ لتضرم النار في مدفأة السيدة . في البداية قال لي : «صباح الخير ، عام سعيدٌ أيتها البهيمة الضخمة! اذهبي لتشعلي النار في مدفأة زوجتي فقد أحسّت بالبرد هذا الصباح .» هل أصبتُ بالعمى حين

رأيته يمدّ إليّ يده وبها ستّ فرنكات جديدة تمامًا؟ انظري سيدتي! آه يا للرجل القدير! إنه لرجل طيب، فهناك من الرجال من يصبحون أكثر قسوة كلّما تقدّموا في السنّ، أمّا هوَ فيغدو أكثر لطافة وحلاوة تمامًا كالكشمش الذي تُحضرينه سيدتي. إنه لرجلٌ مثالي . . .

كان سرّ هذه السعادة يكمن في نجاح بعض تخميناته التجارية. فبعد أن خصم السيد دي غراسان المبالغ التي كان غراندي يدين له بها، ووصل الخصم إلى مائة وخمسين ألف فرنك بسندات هولندية، بالإضافة إلى الفائض الذي دفعه له مقدّما حتى يكمل له المبلغ اللازم لشراء مائة ألف جنيه من الريع، وسرعان ما أرسل له ثلاثين ألف فرنك، تبقّت له من فوائد نصف السنة، وأعلنَ له عن ارتفاع الأموال العامّة، ووصل حينها إلى ٨٩ بينما كان أشهر الرأسماليين حينها يشترون، بحلول نهاية يناير، ب ٩٢.

منذ شهرين، كان غراندي يربَح ما يصل إلى اثنا عشر بالمائة من رأسماله، وكان قد تأكد من حساباته، ومنذ ذلك الحين، صار بإمكان أرباحه أن تصل إلى خمسين ألف فرنك كلّ ستة أشهر من دون أن يتحتم عليه أن يدفع أية ضرائب أو تعويضات، وحينها صمّم وأعدّ للريع، وهو استثمار كان منبوذا في الأوساط الريفية. وكان يرى أنه في غضون خمسة سنوات، سيملك رأسمال يصل إلى ستة ملايين تزايدت من غير جهد أو رعاية، والتي إذا ما أضفنا إليها قيمة أملاكه العقارية، لشكّلت ثروة هائلة. ولذلك فإن الستة فرنكات كانت مكافأة ضئيلة لنانو على خدمة جليلة أسدتها لسيدها من غير علم منها.

– أوه، أين يذهب السيد غراندي راكضا في مثل هذا

الصباح؟ تساءل التُجّار وهم يفتحون دكاكينهم . ثم ، وحين رأوه عائدا من رصيف محطة القطار متبوعا بساعي البريد ناقلا خلفه عربة يد مليئة بأكياس ضخمة ممتلئة علّق أحدهم قائلا : دائمًا ما ينتهي أمر الماء بأن يسيل في الوادي . لقد ذهب ليبحث عن دراهمه!

ثمّ علّق آخر قائلا : نقوده تأتيه من باريس ، من فروافون ، من هولندا!

- سينتهي به الأمر بأن يشتري سومور برمّتها! صرخ ثالث .

وتمتمت امرأة في أذن زوجها :

- إنه يسخر من جميع أحوال الطقس ، فحتى في هذا البرد القارص هاهو ذا يركض خلف نقوده!

- إن كانت هذه الأكياس تزعجُكَ فسوف أخلّصكَ منها . قال أحد الباعة للسيد غراندي .

- للأسف إنها مليئة بالنقود ، ردّ البخيل .

عندما وصل غراندي وساعي البريد إلى المنزل قال له غراندي : خذ عشرين مليمًا كهدية للسنة الجديدة ، ولتسكت! هيا ، انطلق بسرعة قال غراندي ، وستحضر لكَ نانو عربتك لاحقا .

- نانو ، هل ذهبت عصفورَتَايَ إلى القداس؟

- أجل ، سيدي .

- هيا إذن فلتحملي هذه الأكياس إلى فوق ، ضعيها في غرفتي .

وأغلق على نفسه بعدها مع نقوده : عندمَا تُجهّزين الطعام ، دقي على الجدار دقّتين ، وتذكري أن تعيدي تلكَ العربة لساعي البريد .

- اسمعي ، قالت الأم لابنتها وهما تعودان من القداس ، حتى لا يطلُب منك والدك رؤية ذهبك ، تظاهري بأنك شديدة التأثر بالبرد ، وبأنك أصبت بمرض ما ، وحينها سيكون لنا الوقت الكافي لإعادة ذهبك من جديد بحلول عيد مولدك القادم حينَ يطالبكِ بتفقده .

نزل غراندي من غرفته ممنيا نفسه بتحويل نقوده إلى كتلٍ من الذهب ، ومفكّرًا بشأن الريع خاصته . كانَ قد قرّر أن يُوظِّف مداخيله حتى يصل معدل الريع إلى مائة فرنك . وقد كان هذا يشكّل خطرا على أوجيني .

فبمجرّد أن دخلت المرأتان إلى المنزل ، تمنّتا له عامًا سعيدًا ، أمّا أوجيني فقفزت لعنقه معانقة إياه ، وأمّا زوجته فاكتفت بترديد تلكَ العبارة من بعيد ، بكلّ كرامة واعتزاز .

- آه ، آه يا طفلتي ، قال غراندي وهوَ يقبّل وجنتي ابنته ، أنا أعمَلُ من أجلكِ ، أترينَ هذا؟ أنا أريدُ سعَادتكِ . وليكون المرءُ سعيدًا فإنه يلزمه المال . خُذي ، هذه قطعة نابليونَ جديدةٌ تمامًا ، لقد أحضرتها من باريس خصيصًا من أجلك . ربّاه ، لا توجَدُ ذرّة ذهبٍ في الجوار ، ماعدًا ذهبكِ الذي تخبئينهُ يا ابنتي . هلّا أريتني ذهبكِ يا بنوتتي!

- الجوّ باردٌ يا والدي ، فلنُفطر ، إني أتضوّر جوعًا . ردّت أوجيني .

- حسنًا إذن ، ستُرينني ذهبكِ بعدَ الفطور ، أوَليس كذلك؟ سيساعدنا لمعانه على هضم ما تناولناه للتوّ . لقد أرسلَ لنا دي غراسان هذا السجُق اللذيذ ، هيا يا أعزائي ، تناولوا منهُ حتى التخمة فهو لن يُكلّفنا مليمًا . السيد دي غراسان بأحسن حال ، أنا

سعيدٌ من أجله . إنه يُسدِّد معروفا لشارل مجّانًا! إنه يتولّى أمور أخي المرحوم المسكين ببراعة . وبعدَ برهة ، قالَ وفمُه ممتلئ بالطّعام :

- أهووه ، كم أنّ هذا السجقَ لذيذ! فلتتناولي منهُ يا زوجتي؟ سيكفيك لمدّة يومين!

- أنا لا أشعر بالجوع ، فكمَا تعرفُ أنا نحيفة ولا آكل كثيرًا .

- آه ، بإمكانك أن تحشي ما يحلو لك من الطعام من دون أن تخشي شيئا ، فأنتِ من آل لا بارتولبيير ، وبالتالي فأنت امرأة صلدة بصحّة فولاذية . أنتِ شاحبة وصفراء قليلًا ، لكنّي أحبُّ الأصفر .

إن انتظار موتٍ مُشين على مرأى من العامّة لأهوَن على المدان ممّا كانت السيدة غرًاندي وابنتها تمرّان به في هذه الأثناء : انتظار الأحداث التي ستُنهي هذا الإفطار العائلي . فكُلّما زادت السعادة والحماسة التي يتحدّث بها البخيل العجوز ، كلّما زاد انقباضُ قلبَي المرأتَين : إلا أن الفتاة كانت تمتَلكُ نقطة قوّة لصالحها : كانت الفتاة تستقوي بحُبّها .

- من أجله ، من أجله هُوَ ، سأخطو في الجحيم وأموت ألفَ مرّةٍ .

- نانو ، هلّا حمَلتِ عنّا كلّ هذا الطّعام ، لكن فلتدَعي الطاولة . سنَكونُ أكثر راحةَ إن نحنُ وضعنَا الذهب على الطاولة قال غراندي بحلول الساعة الحادية عشر . يا إلهي ، بُنيّتي أنت تملكين ما قيمته خمسة آلاف وتسعمائة وتسعة وخمسين فرنكًا ، أَضيفي إليها أربعين فرنكًا مقابل هذه القطعة ، ممّا يُساوي ستة آلاف فرنك إلا فرنكًا . ولذلك ، سأعطيكِ هذا الفرنك الناقص حتى يكتملَ المبلغ . أوَ ترين كمْ أحبّكِ يا بنوتتي! لماذا لا تزالين جالسةً هنا نانو ، اذهبي لأشغالك . قال غراندي .

- اسمعي أوجيني ، عليكِ أن تعطيني ذهبكِ ، أنتِ لن ترفضي أن تُعطي ذلكَ لوالدكِ ، أوَليسَ كذلك يا بُنيّتي؟ (اكتفت المرأتان بالسكوت حينها) . لقد نفذَ ذهبي ، أنا . كان لي مقدار من الذهب لكنه نفذَ كليّا . سوف أُرجعُ لكِ ستة آلاف فرنك وستوظفينها كمَا سأريك . أريدُكِ أن تنسَي أمر جهازك ، عندمَا أُزوّجكُ ، وهوَ أمرٌ سيحدُثُ قريبًا ، سأجد لك زوجًا قادرًا على إهدائك أحسنَ دزينة قُدّمت ، وسيتحدث عنها سكان الريف طويلا . اسمعيني يا بَنوتتي ، فهناك فرصة جدُ رائعة أمامنا : ستُوظفين الستة آلاف فرنك الخاصّة بكِ عندَ الحكومة ، وستتحصلين كلّ ستة أشهر على فوائد تصل لمائتي فرنك ، من دون أية ضرائب أو تعويضات ، ولا أية أمطار أو برَد أو مدّ وجزر ، ولا أيّة مشاكل متعلقة بالمداخيل . قد تبغضين فكرَة التخلي عن ذهبك ، أوَليسَ كذلك يا بنُوتتي؟ لكن أعطني إياه رغم ذلك ، سوفَ أجمَعُ لكِ قطع ذهبٍ هولندية وبرتغالية وروبيات مغولية ، وبالإضافة للقطع التي سأهديكِ إياها في الأعياد ستجمعين من جديد نصف كنزك الصغير خلال ثلاث سنوات . ما رأيكِ يا صغيرتي؟ هيّا ، اذهبي وأحضري ذهبكِ الخلاّب . كان عليكِ أن تُقبّلي عينيّ لأنني أعلّمك هكذا أسرار عن حياة وموت النقود . ففعلا الأموال تحيَى وتجتمع وتتكاثر كالإنسان : تذهبُ وتجيءُ ، وتعرق ، وتُنتجُ .

قامت أوجيني من مكانها وابتعدت بضعَ خطوات نحوَ الباب ، ثم رجعت وفجأة ، نظرت إلى والدها وجهًا لوجه وقالت له : - لقد فقدتُ ذهبي ، لم يعُد عندي .

- فقدتِ ذهبكيييييييييييي؟ صرخ السيد غراندي وقد تأهّب من مكانه كحصان ينوي الانقضاض بعدما سمعَ دويّ المدفع

على بعد عشر خطوات منه .

- أجل ، لم يعد لي أيّ ذهب .

- أنتِ تُخطئينَ يا أوجيني .

- لا .

- فليلعنك الربّ!

عندمَا صرخ غراندي شاتمًا ابنته هكذا ، دوّى صوته لدرجة أن الأرضية ارتجفت من حدة صوته .

- ربّاه! السيّدة قد شحبَت تمامًا! صرخت نانو .

- غراندي ، إنَ غضبك هذا سيتسبب في موتي! قالت زوجته المسكينة .

- تا ، تا ، تا ، تا ، أنتُم آل السخافات لن تموتوا أبدًا في عائلتكم! أوجيني ، ما الذي فعلته بقطعك الذهبية؟ قال وهو يهوي عليها .

- سيّدي ، قالت أوجيني وهي تجثو عندَ قدمي والدتها ، أمّي تعاني كثيرا . أرجوكَ ، لا تقتلها بأسًا .

هلَع السيد غراندي لمّا رأى وجه زوجته الشاحب الذي كان قبلها مُصفرّا .

- نانو ، هلاّ ساعدتني لأذهبَ إلى فراشي؟ قالت الأمّ بصوت ضئيل ، أحسّ أنّي سأموتُ .

وبذلك مدّت نانو ذراعها للسيدة ، وكذلك مدّت أوجيني ذراعها لها ، وبعدَ عناء كبير ، تمكّنتا من إيصالها إلى سريرها . بقيَ غراندي وحده ، لكنه بعدَ برهة من الزمن ، صعدَ بضع درجات وصرخ قائلا : أوجيني ، ما إن تستلقي أمّك براحة على السرير ، انزلي إليّ من جديد .

- حسنًا يا والدي .
لم تتأخر كثيرا ، وعادت لرؤية والدها بعدَ أن طمأنت والدتها .
- ابنتي ، سوف تُخبرينني الآن أينَ هوَ كنزك .
- والدي ، قالت أوجيني ، إذا كنتَ تهديني هدايًا لا تُصبحُ ملكي بحيث تكون لي الحريّة الكاملة في أن أتصرف بها كما أشاء وأهوى ، فإني لا أريدُ هداياكَ ، ردّت أوجيني ببرود وهي تبحث عن قطعة النابوليون فوق المدفأة ومدّتها إليه .
استرجعِ غراندي القطعة الذهبية بسرعة وخبأها في جيبه .
- ليسَ هذه القطعة وحسب ، قال غراندي ، أعتقدُ أنني لن أعطيكِ أيّ شيء من هنا وصاعدًا . أنتِ تحتقرين والدكِ إذن ولا تكنين له أي تقدير أو ثقة . أنتِ لا تعرفين حتى ما معنى أن يكونَ المرءُ أبًا . فإذا لم يكُن هوَ كلّ شيء بالنسبَة لك ، إذن ، فهوَ لا شيء ، لا شيء تمامًا . أينَ هوَ ذهبكِ؟
- والدي ، أنا أحبّك وأحترمك ، رغمَ غضبك . لكني سوف أذكّرك بكل احترام وتواضع أني أبلغ ثلاثة وعشرين ربيعًا . لقد قلتَ لي عدّة مرّات أني كبيرة وراشدة على ما أعتقد . لقدْ فعلتُ بنقودي ما يحلو لي أن أفعلهُ بها ، وكُن متأكدًا أنني وظفتها في المكان الصحيح . . .
- أينَ؟ في ماذا؟
- هذا سرّ لا يمكنني انتهاكُه وإخباركَ عنه . أوَ لا تُخفي أنتَ بدوركَ عنّا أسراركَ؟
- أوَلستُ ربّ هذه الأسرة؟ أوَليس من حقي أن يكون لي شؤوني وصفقاتي؟
- كذلك الأمر هنا يتعلق بشأني وصفقتي الخاصة .

- لا بُدّ وأن هذا الأمـر شـائنٌ ورديء ، وإلا فلم ترفـضين التحدث فيه معَ والدكِ ، آنسة غراندي؟

- صدقني يا والدي إنها لصفقة رائعة ، لكنني لا أستطيع أن أشاركك الأمر .

- أخبريني على الأقل متى أعطيت ذهبك؟

أومأت أوجيني برأسها مشيرة بأن لا .

- أوَ كنتِ لا تزالين تملكينه يوم عيد مولدك؟

أوجيني والتي اكتسبت بفضل الحبّ دهاءً يضاهي الدّهاء الذي يستمدّه والدها من بُخله ، كرّرت إشارتها النافية السابقة .

- ولكن لم يسبق وأن شاهدتُ عنادًا أو سرقةً مماثلةً! صرخ غراندي بصوت متعالٍ ارتعدَ معه المنزل أجمع . ثمّ أضاف : كيفَ يُمكن أن يحدث هذا في عقر داري؟ كيف يُمكنُ لأحدهم أن يأخُذَ ذهبكِ؟ الذّهب الوحيد الذي يُوجَد تحت هذا السقف! وفوقَ كلّ هذا أنتِ لا تخبرينني مَن أخذه؟ الذهب شيء غالٍ! حتّى أكثر الفتيات صدقًا وشرفًا يرتكبنَ أخطاءً فادحة ، ويُعطين أشياء أخرى لا أدري ما هي ، هذا يحدُث حتّى عندَ كبار السّادة وفي منازل البرجوازيين ، لكن لم يسبق لإحداهنّ أن أعطت ذهبها! لأني أعلمُ أنكِ منحته لأحدهم بمحض إرادتك . أوَليسَ كذلك؟

وقفت أوجيني جامدة هادئة ولم يبدُ على محيّاها أي انفعال أو إحساس .

- ربّاه لمَ بلوتني بفتاة مماثلة! أوَ لستُ والدك؟ وبمَا أنّكِ وظفتهِ فلا بدّ من أنك قد نلت فائدة أو مقابلا ما . . .

- هل كانت لي الحرّية في أن أتصرف بأموالي كمَا يحلو لي ، نعم أو لا؟ أوَلمْ يكُن مالي؟

- لكنّكِ طفلة .

- راشدَة .

ذُهلَ غرانديي من منطق ابنته . وشحُبَ وجهه ، ودكّ الأرض تحت قدميه دكًا ، وشتمَ ولعَن كثيرا ، ثمّ ، صرخَ أخيرًا : فلتلعنكِ السّماء أيتها البنتُ الأفعى! أيتها البذرة الفاسدة! أنتِ تعلمين أنني أحبكِ ورغم ذلك فإنكِ تستغلين حبّي وتتجاوزين الحدود! أنتِ تذبحينَ والدكِ! ربّاه! كدتِ أن ترمي بثروتي عندَ قدمي حافي القدمين ذاك! فليلعنكِ الربّ! لا أستطيعَ أن أحرمكِ من ميراثي ، باسم البراميل أجمعها! لكني ألعنكِ ، أنتِ وابنَ عمّكِ ، وأطفالكِ ، فلتحلّ عليكم لعنة السماء! سترين أنكِ لن تجني خيرًا من كلّ هذا! أوَ تسمعينني؟ إن كنتِ قد أعطيتِ ذهبكِ لشارل . . . ولكن ، لا ، هذا غير ممكن ، لا يُمكن لذلك المتغنج أن يسلبني أموالي .

حدّق غرانديي في ابنته مليّا ، لكنّها كانت كمنحوتة صامتة وباردة تمامًا .

- هيَ لن تتحرك ، حتى جفنها لن يرجف! لقد أصبحَت غرانديي أكثر ممّا أنا عليه! على الأقل أخبريني أنكِ لم تعطِ ذهبك من دون مقابل ، ها؟

نظرت أوجيني إلى والدها نظرة ساخرة متهكمة أساءت إليه وأهانته بها ، فغضب وصرخ بها :

- أوجيني ، أنتِ في منزلي ، عندَ والدكِ! ولكي يتسنّى لك البقاء تحت سقف منزلي عليك أن تخضعي لأوامري . فحتّى الكهنة يأمرونكِ بطاعتي!

حينها ، خفضت أوجيني رأسها ، فتابع والدها :

- أنتِ تسيئينَ إليّ في أعزّ ما أملكُ . ولا أريدُ أن أراكِ إلا خاضعة لي . فلتذهبي إلى غرفتكِ . ولتمكثي بهَا حتّى أسمحَ لكِ بالخروج منهَا . سوفَ تُحضر لكِ نانو الخبزَ والماء . هل سمعتي؟ هيا ، فلتذهبي!

انفجرت أوجيني بالبكاء وهرولت عندَ والدتها .

وبعدَ أن دارَ غراندي مُفكرًا في حديقته عدّة دورات ، خطر بباله أن ابنته قد تكون في غرفة والدتها ، فأراد أن يغتنم الفرصة ليقبض عليها مخالفة لأوامره ، وبذلك صعد الدرجَ برشاقة قطّ ، وظهَر بغتة عند عتبة غرفة زوجته التي كانت تداعب بأناملها خصلات شعر أوجيني التي أخفت وجهها في صدر أمّها الحنون .

- لا تبكِ يا صغيرتي المسكينة ، فلتواسي نفسكِ بكون والدكِ سيهدأ ويعود لرشده .

- لمْ يَعدْ لها والدٌ من الآن فصاعدًا ، قال السيد غراندي . أوَ كان هذا أنا وأنتِ ، مدام غراندي ، الذين أنشأنا فتاة عاقّة عاصية مثلَ هذه؟ يا لها من تربية رائعة ، خاصة وأنها دينية! حسنٌ ، أنا أرى أنكِ لستِ في غرفتكِ كمَا أمرتك . هيّا يا آنسة ، إلى سجنك ، إلى السجن ، هيّا!

- أوَ تريدُ أن تحرمَني من ابنتي يا سيدي؟ قالت السيدة غراندي وقد احمرّ وجهها من الحُمّى .

- إذا أردتِ أن تحتفظي بها فخُذيها واغربا عن وجهي ، واتركَا هذا المنزل! اللعنة ، أينَ الذهب؟ ما الذي حلّ بالذّهب!

نهضت أوجيني من مكانها بكلّ كرامة ، وذهبت إلى غرفتها حيث أوصد عليها والدها الباب وأغلقه بدورتين من المفتاح .

- نانو ، صرخَ غراندي ، أطفئي نارَ المدفئة ، ثم جلس في كنبة

بجانب مدفأة زوجته وقال لها : لا بدّ وأنها أعطت ذهبها لذلك الفاتن الغبيّ شارل والذي لم يُرد يومًا إلا أن يحصل على نقودنا .

وجدَت السيدة غراندي في الخطر الذي يُهدد ابنتها ، وفي مشاعر الأمومة التي تُحسها تجاهها ما يكفي من القوّة لتتظاهر بالبرود والصمت والصّمم في وجه زوجها .

- لمْ أكن أعلمُ شيئا بهذا الصدد ، قالت السيدة وهي تستدير مبتعدة بنظرها عن نظرات زوجها الثاقبة . إنني لأعاني بسبب عنفكَ وقسوتكَ ، لدرجة أني أحسّ أنني لن أخرج من هذا المنزل إلى على نعشي . كان يتوجّبَ عليكَ أن تُوفّر عليّ لحظات كهذه يا سيدي ، أنا التي لم أتسبب لك يومًا في بأس أو مصَاب ما ، كما أعتقدُ . ابنتكَ تُحبّك وإني لأعتقد أنها بريئة تمامًا كالطفل الذي وُلدَ منذ حين ، ولذلك فمن الأحسن ألا تتسبب لها في مزيد من الأوجاع ، وأن تسحبَ حبسكَ لها . فالبردُ قارص هذه الأيام ، وقد تتسبّب لها في مرض عضال .

- لن أراها ولن أحدّثها منذ اليوم . سوف تبقى في غرفتها وستعيش على الخبز والماء حتى تُرضي والدها . اللعنة! إنه لمن حقّ ربّ البيت أن يعرف أينَ يذهبُ الذهبُ ويُصرَف في منزله . لقد كانت تملكُ الروبيات الوحيدة الموجودة في الأراضي الفرنسية!

- سيّدي ، أوجيني هي طفلتنا الوحيدة ، وحتّى لو أنها قد رمت القطع الذهبية في الماء لما . . .

- في الماء؟ صرخ الرّجل ، في الماء! هل جننتِ يا مدام غراندي؟ لقد قلتُ ما كان عليّ أن أقوله ، أنتِ تعلمين ذلك . إذا أردت أن يحلّ السلام بمنزلك ، فاجعلي ابنتكِ تعترف بذلك ، حتى لو اضطرك الأمر لاستخراج المعلومة من مناخيرها . فالنساء يُحسنّ التعامل فيما بينهن

أحسن ممّا يتعاملن معنا حين يتعلق الأمر بحدث مماثل . ومهما كان ما فعلت ، فإني لن آكلها . هل تخاف منّي؟ فبعدَ أن طلت ابن عمّها من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه بالذهب ، هاهو ذا قد ذهب في البحار قد فرّ بثروتنا حيث لا يمكننا لحاقه .

– وماذا بعد يا سيدي؟ قالت العجوز مدفوعة بانهيار أعصابها أو بمأساة ابنتها التي ولّدت فيها المزيد من الحنان والذكاء ، إلا أن دهاء المرأة في تلك اللحظة انعكس في نظارتي زوجها بنظرة مذعورة ، مما جعلها تهلع ، ففي الوقت الذي كانتستردّ فيه عليه ، غيّرت فكرتها لكنّها حافظت على نبرة الصوت ذاتها .

– حسن يا سيدي ، أوَ تعتقد أن لي سلطة أعلى من سلطتكَ عليها؟ هي لم تخبرني شيئا ، هيَ مثلك تمامًا .

– بحقّ الربّ ، ما بال لسانك يتدلّى في كلّ آن وحين منذ هذا الصّباح . تا ، تا ، تا ، تا ، أنتِ تتهكمين على ما يبدو ، أعتقد أنكِ تتفقين وابنتك فيمَا يحدث . ثم نظر إلى زوجته نظرة حادة ثابتة .

– في الحقيقة ، يا سيد غرااندي ، إن أردتَ أن تقتلني فلن يكون عليكَ إلاّ أن تواصل على هذا المنوال . ها أنا ذا أقول لك هذا مجددًا يا سيدي حتى لو كلّفني الأمر حياتي ، فسأعيده على مسامعكَ مجددًا : أنتَ مخطئ في حقّ ابنتك يا سيدي ، وهي أكثرُ عقلانية منكَ . فهذا المال ملكها ويخصّها هي وحدها ، ولا يُمكنُ أن تكون قد استعملته إلا بشكل حسن ، ووحدهُ الربّ له حقّ معرفة أفعالنا الخيّرة . سيّدي ، إني أتوسّلك ، هلّا باركت ابنتك من جديد . وبذلك فإنك ستقلل من مفعول الهوْل الذي أحدثه غضبك على نفسيّتي . وقد تنقذ بذلك حياتي . ابنتي ، يا سيّدي أعد إليّ ابنتي .

- أنا ذاهب يا زوجتي . منزلي لم يعُد مريحًا لي ، فالوالدة وابنتها تُفكّرانِ وتتحدثان وكأنهن . . . بواااااه ، لقد كانت هذه هديّة رأس سنة جدّ متوحّشة منكِ يا أوجيني ، صرخ غراندي قائلا . أجل ، أجل ، فلتبكِ! فما فعلتِه سيتسببُ لكِ في ندَم طويلٍ ، أوَ تسمعينني؟ فما جدوى كونكِ تأكلين الرّب ستّ مرّاتٍ كلّ ثلاثة أشهر(*) في الأفخارستيا إنْ كنتِ تُعطينَ مالَ والدكِ خفية لكسولٍ سيلتهمُ قلبكِ إن لم يعُد لديكِ ما تهديه إياه؟ سترين قيمة شارل الخاصّ بك هو وأحذيته السخيفة . هو شخص لا قلبَ له ولا روحَ بما أنه تجرّأ على حملِ كنزِ فتاة مسكينة مثلكِ من دون موافقة والديكِ .

عندمَا أغلقَ السيد غراندي البابَ ، هرولت أوجيني عندَ والدتها .

- لقد كنتِ جدًّ شجاعة من أجل ابنتك ، قالت أوجيني .

- أرأيتِ يا ابنتي إلى أينَ تقودنا الأمور غير المشروعة؟ لقد جعلتِني أكذبُ .

-أوه ، سأطلبُ من الرّب أن يعاقبني وحدي على هذا .

- أوَ هذا صحيح؟ هل ستعيش آنستي لبقية أيامها على الخبز والماء؟ تساءلت نانو مذعورة .

- وما المشكلة في ذلك يا نانو؟ قالت أوجيني بهدوء .

- أوَ سأتناول أنا حلويّات بينَما سيّدة وزهرة المنزل تتناول خبزا جافًا؟ لا ، أبدًا!

(*) يتمثل ذلك بتناول النبيذ الذي يُمثّل دمَ اليسوع ، وتناول الخبز الذي يُمثّل لحم اليسوع ، في القدّاس (أفخارستيا) .

- لا أريدُ أن أسمعَ كلمة عن كلّ هذا يا نانو، قالت أوجيني.
- سترين.

تناوَل غراندي عشاءه وحيدًا لأول مرّة منذ أربع وعشرين سنة.

- ها أنتَ ذا أرملٌ يا سيّدي، قالت له نانو. من المزعج أن يكون المرء أرملا بينما هناكَ امرأتان في منزله.

- أنا لم أحدّثك يا نانو. فلتبقي لسانك محفوظا في فمك من دون تعليق وإلا اصطدته. ما الذي تحظرينه في تلكَ المقلاة على النار؟

- إنها شحومٌ أذيبُها...

- سيأتي الكثير من الأشخاص الليلة، أشعلي النار في المدفأة.

وصَل كلّ من آل كروشو ومدام دي غراسان وابنها آدولف على الساعة الثامنة تمامًا، وتعجّبوا لمّا لم يجدوا لا السيدة غراندي ولا ابنتها.

- زوجتي مريضة نوعًا ما، وأوجيني تسهَر بجانبها لترعاها. ردّ غراندي الذي لم تفضح ملامحه أية أحاسيس.

وبعد ساعة من الزمن ضاعت في أحاديث بلا معنى، عادت مدام دي غراسان التي كانت قد صعدت قبل برهة لتتفقد حالة السيدة غراندي، وحينَ دخلت إلى الصالة تساءل الجميع: كيفَ حال السيدة غراندي؟

- لكنّها بحال سيئة، إنها ليست بخير على الإطلاق! ردّت بهلع. حالتها الصحّية تبدُو لي جدّ مقلقة. ففي سنّها هذا، يجب على المرء مراعاة العديد من الاحتياطات بابا غراندي.

- سنرى بهذا الشأن، ردّ غراندي وهو شارد الذهن.

تمنّى الجميع للسيد غراندي ليلة طيبة . وحينما غادروا ، قالت السيدة دي غراسان لآل كروشو :

– لابدّ وأن حدثا جديدًا قد حلّ بمنزل غراندي . فالأمّ غراندي في حالة صحية متردية وسيئة جدًا . أمّا البنت فعيناها مُحمرّتان وكأنها قد بكَت لمدّة طويلة . أوَ يكونُ السيد غراندي راغبًا في تزويجها رغمًا عنها؟

عندمَا نامَ السيد غراندي ، ذهبت نانو على أطراف أصابعها عند أوجيني وقدّمت لها معجونًا محضرا في المقلاة .

–خذي ، آنستي ، لقد أعطاني كورنوايي أرنبًا ، أعلمُ أنه سيكفيك لثمانية أيام ، وبما أن الجوّ متجمّد فأنا متأكدة من أنه لن يفسد . على الأقل لن يكون عليكِ أن تأكلي الخبز جافًا ، فهذا مضرّ بصحتك .

– عزيزتي نانو المسكينة ، قالت أوجيني وهي تحضن يدها بتأثر .

– لقد حضّرته بشكل جيّد ، ولم ينتبه السيّد غراندي لي وأنا أحضّره ، لقد اشتريت كلًا من لحم الخنزير

المقدد وإكليل الغار بالفرنكات التي أعطاني إياها السيّد صباحًا ، فأنا حرّة في مَا أشتريه بها . . .

ثمّ هربت الخادمة حين خُيّل لها أنها سمعت غراندي قادما .

على مدى عدّة أشهر بعدها ، كان البخيل يأتي باستمرار لزيارة زوجته في ساعات مختلفة من النهار ، دون أن يتفوّه باسم ابنته ، ومن دون أن يراها أو أن يُلمّح أو يشير إليها أبدًا . أمّا مدام غراندي فلم تخرج من يومها من غرفتها قطّ ، وكانت حالتها تسوءُ يومًا بعدَ يوم . لكن لم يثنِ البخيل عن عزيمته شيء . فقد بقيَ وفيًا لكلمته ،

قاسيًا ، حادًا وباردا تمامًا ككومة من الغرانيت . وبقي على حاله وعاداته ، لكنه لم يعد يتمتم ، وأصبحَ يتحدّث أقل بكثير مما سبقَ ، وأصبحٍ أكثر قسوة في معاملاته وصفقاته . كمَا وأصبحَ يرتكب أخطاء حسابية من حين لآخر .

- لا بدّ وأن أمرًا ما قد حدث في منزل غراندي ، قال آل كروشو وآل دي غراسان .

«ما الذي حدثَ في منزل غِراندي؟» أصبح السؤال الذي يشغل كل سهرات ولقاءات سكّان سومور .

فإذا ما ذهبت أوجيني لأداء شعائرها الدينية ، فدائمًا ما تكون آل مصحوبة بنانو . وعندمَا تُحاول السيدة دي غراسان أن تحادثها عندمَا يخرجن من الكنيسة ، فإن أوجيني تردّ عليها بإجابات متهرّبة لا تشفي فضولها .

إلا أنه كان من المستحيل ، بعدَ مرور شهرين ، أن يواصل آل غراندي إخفاء أمر حبس أوجيني على آل كروشو والسيدة دي غراسان . فقد وصلَ وقت لم يعد بالإمكان فيه اختلاق ذرائع لتبرير الغياب الدائم لأوجيني . ثمّ ، ومن دون أن يُدرك أحدهم من فضح ماذا ، علمت كل البلدة أن الآنسة غراندي محبوسة في غرفتها منذ يوم رأس السنة بأمر من والدها ، تقتات على الخبز والماء ، وتعيش من دون نار أو مدفأة ، وأن نانو كانت تعدّ لها حلويات تُسرّبها لها ليلا ، كمَا أن الجميع علمَ أن الشابة لم تكن حتى تستطيع أن تخرج لتتفقد حالة والدتها أو أن ترعاها إلا خلال فترة غياب والدها عن المنزل .

قوبلَت هذه التصرفات و هذه الأخبار بالانتقاد الشديد من طرف سكان سومور . واعتبرته المدينة بأكملها كخارج عن القانون ،

وتذكرت خياناته السابقة لعهودهم ، ومعاملاته القاسية مع غيره ، واعتزلوه تمامًا . وعندَ مروره بينهم ، كان الجميع يشيرونَ إليه وهم يهمسون في آذان بعضهم البعض . وفي الأيام التي كانت أوجيني تخرجُ فيها بصحبة نانو لتذهب إلى القداس أو لأداء صلوات المساء ، فإن جميع الأهالي كانوا يزدحمون على نوافذهم ليتفحصوا بفضول قدرة الوريثة الغنية على إخفاء وتحمل مصابها ، وليترقّبوا وجهها الذي انطبع عليه مزيج ملائكي من الحزن والنعومة . لم يكُن حبسها أو نبذ والدها لها يعني لها الكثير . أوَلم تكن ترمق كلّ يوم خريطة العالم الخاصة بها كلّ حين ، وكذلك المقعد والحديقة وجدار الحبّ ، وشجرة الجوز؟ أوَلم تكن تستلذ وتستطعم كل آن وحين ، على شفتيها ، بقايا العسَل المتبقّي من قبلاتِ حبّها؟

تمامًا كوالدها ، كانت أوجيني تتجاهل أحاديث المدينة والتي كانت هي موضوعها الرئيسي . كانت فتاة ورعة متدينة وطاهرة أمام ربّها . وساعدها كلّ من ضميرها وحبّها على تحمّل غضب وانتقام والدها بكلّ جلد وصبر . لكنّ وجعًا عميقًا بها أخرسَ جميعَ الأوجاع الأخرى . حيث أنّ والدتها ، تلكَ المخلوقة اللطيفة الحنون ، بدَت وكأنّها تتبهرج وتتزيّن بالبهاء الذي تعكسُه روحها التي تقربُ شيئا فشيئا من القبر : كانت الوالدة تذبل يومًا بعدَ يوم . وغالبًا ما كانت أوجيني تلومُ نفسها لكونها السّبب البريء الذي سبّب هذا المرض البطيء المُهلك الذي يلتهم والدتها . ورغم أنّ والدتها كانت دائما ما تهدئ من روعها كلّما نال منها الندم ، إلا أن ندمها وحسرتها جعلا قلبها يتشبث ويتعلّق أكثر فأكثر بحبّها .

كلّ صباح ، وبمجرّد أن يخرج والدها من المنزل ، كانت أوجيني

تهرول إلى سرير والدتها وتجلسُ بجانبها ، وهناك كانت نانو تُحضر لهـا فطورها . إلا أن أوجيني المسكينة التي كـانت تعـاني بسـبب معاناة والدتها لم تعُد تُجيد سوى شكرَ نانو بطريقة صامتة والدموع تملؤ عـينيـهـا ، ولم تكن تتجرأ على التـفوه بكلمة بخـصوص ابن عمّها . وبذلك اضطرّت السيـدة غراندي لأن تتحدث عنه ، أولا ، وتساءلت :

- أينَ هوَ؟ لمَ لم يكتُب لكِ أي خطاب؟

كانت الأم وابنتها تجهلان تمامًا أمر المسافات البعيدة .

- فلنُفكّر فيـه يا والدتي ، لكن دعينا لا نتحدث عنه . أنتِ تعانين ، أنتِ أكثر وأولَى من كلّ شيء .

كلّ شيء كانت ترمز *إليه* .

- أبنائي ، أنا لم أندَم على حيـاتي . فـالربّ قد حـماني بأن أراني بسعادة خاتمَة بؤسي . ردّدت السيدة غراندي .

دائمًا ما كانت كلمات هذه المرأة مقدّسة ومسيحية . عندمَا كان زوجها يقدم إليها ليتناول الإفطار بجانبها ، وبينما هو يتجول في الغرفة ، دائما مـا ردّدت له في الأشهر الأولى من السنة نفس الأحاديث والخطابات ، كرّرتها بلطافة ملائكية ، ولكن بثبات امرأة ألهمها موتها الوشيك الشجاعة التي كانت تنقصها طوال حياتها .

وكلّما سألها السيد غراندي أتفه الأسئلة عن حالها ، دائما ما ردّت قائلة :

- سيدي ، أشكركَ على اهتمامكَ بحال صحتي ، لكنك تعلمُ أنك إن أردت أن تُقلّل من مرارة أيامي أو أن تُخفف عليّ آلامي ومعاناتي ، فما عليكَ إلا أن تعفو عن ابنَتنَا ، وأن تُظهرَ أنك مسيحي ، زوج ، وأب .

عندمَا يسمعُ غراندي هذه الكلمات ، غالبا ما كان يتجه ليجلس بجانب السرير ، ليتعامل مع الأمر كرجل عاد بهدوء وطمأنينة إلى مأواه بعدَ أن رأى أن العاصفة تقترب : كان يصغي إلى زوجته بصمت ، ولم يكن ليردّ عليها . وبعدَ أن تنتهي المسكينة من تضرعاتها المؤثرة الحنونة الدينية ، كان يقول :

- أرى أنكِ شاحبة قليلا اليوم يا زوجتي المسكينة .

بدَا حينها أن النسيان التام لابنته كان مطبوعًا على جبينه ، وعلى شفاهه المزمومة . لم يكُن حتى يتأثر بدموع زوجته التي كانت ردوده المُبهمة المتشابهة تتسبّب في سيلانها .

- فليسامحك الربّ مثلمَا أسامحُكَ يا سيدي . ستحتاج يومًا ما إلى الغفران . قالت الوالدة .

منذ مرض زوجته المهلك ، لم يجرؤ البخيل العجوز على استعمال عبارته «تا ، تا ، تا» التهكمية . إلا أن استبداده لم يضعف أمام زوجته ، هذا الملاك اللطيف الذي تناقصت بشاعة وجهه العجوز يومًا بعد يوم ، مختفية خلف هالة الأخلاق التي أزهَرت على وجهها . كانت روحها الطيبة تفيض عليها . بدَت الصلاة وكأنها تُنقيّ وتخفّض من الملامح القبيحة للوجه ، بل وتجعلها أبهى وأكثر توهجًا . مَن ذا الذي لم يلحظ ظاهرة التجلي والتغير هذه التي تكسو الوجوه المقدّسة حيث تعتلي عادات النفس الطيّبة على الملامح الأكثر قُبحًا وتطبع عليها آثار النبالة والأفكار الأكثر طهارة ورقيًا . إن مظهرَ هذا التغير الواقع بسبب المعاناة التي كانت تتسبب في تآكل تلكَ المرأة كانت لتؤثر في نفس أي إنسان ، إلا زوجها الذي كان صلدًا كالبرونز . فإذا هو لم يتفوّه بعبارة مُحتقرة ساخرة ، كان يغرق في صمت يُنقذ به مكانته كربّ أسرة .

أمّا نانو، خادمته الوفيّة، فإذا ما تبادرت إلى آذانها تعليقات متهكمة عن سيّدها بينما هي تتسوّق، فإنها كانت تُدافع عنه حفاظا على كرامة المنزل، رغم أن الرأي العام كان يستنكر على السيد غراندي تصرفاته.

-حسن إذن! أوَ لا نغدو جميعنا أكثر قسوة كلّما تقدّمنا في السن؟ توقفوا عن إطلاق أكاذيبكم! آنستي تعيش كملكة! ربّما هي تفضّل أن تكون منعزلة، وهذا يعود لها. كما أن سادتي لهم أسبابهم التي تخصهم .

وفي مساء أحد أيام الربيع، وبعدَ أن باءت كل محاولات السيدة غراندي في لمّ الشمل بين زوجها وابنتها بالفشل، وَحين لم تجد من سبيل آخر لتُنفّس به عن كربتها، هي التي نالَ منها الحزن أكثر ممّا فعل بها المرض، ائتمنت السيدة غراندي آل كروشو على سرّ أسرتها.

- أن يحبس آنسة تبلغ الثالثة والعشرين من عمرها بحيث تعيش على الماء والخبز! صرخ السيد دو بونفون، ومن غير سبب ظاهر! *لكنّ هذا يعدّ جريمة تعذيب غير قانونية، ويُمكنُ للضحية أن تحتج...*

- ما بالك يا ابن أخي، نحنُ لسنا بالمحكمة الآن. قال كاتب العدل. اطمئني سيدتي، سأحرص على أن ينتهي هذا الحبس منذ يوم الغد.

وحين سمعتهم أوجيني يتحدثون عنها، خرجت أوجيني من غرفتها.

- سادتي، قالت أوجيني وهي تمشي بعزّة، أطلبُ منكُم ألا تنشغلوا بهذا الأمر. والدي سيّدٌ في بيته. وطالما أني أعيش تحت

سقف منزله فسيكون عليّ أن أُطيعه . وسُلوكهُ لا يخضع لا لموافقة ولا لنبذ الرأي العام ، فوحده الربّ مخوّل بمحاسبته . باسم صداقتنا ، أطالبُكم أن تتحفظوا بالصمت التام في هذا الخصوص . فلومُكم لوالدي سيكون هتكًا منكُم لاعتبارنا . أنا ممتنة لاهتمامكم بأمري ، لكنني سأكون أكثر امتنانا إن أنتم أخرستم الأفواه التي تتهجّم على والدي في المدينة ، والتي علمتُ بأمرها صدفة .

– إنها محقة ، قالت السيدة غراندي .

– آنستي ، إن أحسن وسيلة لتمنعي الناس من أن ينموّا هي أن تسترجعي حريّتكِ ، ردّ عليها كاتب العدل العجوز الذي أعْجِبَ وأُذهِلَ بالجمالية التي أفاضها الانعزال والحزن والحبّ على ملامحها .

– يا ابنتي ، هلاّ تركت السيد كروشو يعتني بتسوية هذا الأمر ، فهو يعرف والدك ويعرفُ كيف يحادثه . إذا أردتِ أن تسعديني فيما تبقى لي من أيام حياتي فيجبُ أن يتمّ الصّلح بينكِ وبينَ والدكِ .

في صباح الغد ، وطبقًا لعادة يطبقها منذ حبسه لابنته ، أخذ غراندي يتجوّل في الحديقة في الوقت الذي كانت أوجيني تُمشّطُ فيه شعرها . وعندما وصل عندَ شجرة الجوز ، اختبأ خلف جذعها الضخم ، ووقف لبضعة دقائق يراقبُ شعرَ ابنته المنسدل الطويل ، متأرجحًا من دون شك بينَ الأفكار التي يتمتم له بها عناده وقسوته وبينَ الأفكار الحنون التي تبُثّ له بها أبوّته التي جعلته يرغب في احتضان ابنته . وغالبًا ما كان يجلس على ذات المقعد الذي أقسم عليه شارل وأوجيني أن يتبادلا حبًا أبديًا ، أمّا أوجيني فكانت بدورها تختلس النظر لوالدها خفية أو تتراءى انعكاسه في المرآة .

وحين ينهض والدها من المقعد، فإنها تجلس عندَ نافذتها لتتأمل الورود والنباتات ومقعدها هي وشارل.

في ذلك الصباح، جاء السيد كروشو باكرًا، ووجد البخيل العجوز جالسًا في صباح حزيرانيّ، متكئا بظهره على الحائط، ومنشغلا بمشاهدة ابنته.

- ما الذي يمكنني أن أسديه لك من خدمة سيد كروشو؟ سأل غراندي وهو يرى كاتب العدل.

- أنا هنا لأحدثك بشأن أمر ما.

- آه، هل تَودّ أن تُكسِبَني قطعًا ذهبية؟

- لا، لا، الأمر لا يتعلّق بالمال، بل بابنتك أوجيني. فالجميع يتحدثُ عنها وعنكَ؟

- وما دخلهم؟ فكما يقول المثل، كلّ فحّامٍ ربٌ في بيته، وهو حرّ فيما يفعل.

- أجل، وكلّ فحّام حرّ في قتل نفسه كذلك، أو أسوء من ذلك، حرّ في رمي نقوده من النوافذ.

- كيفَ هذا؟

- يا صديقي، زوجتك في حالة يُرثى لها. إنه ليتحتم عليكَ حتى أن تعرضها على السيّد بيرجوران، فهي معرّضة للموت. ولو توفّت وأنتَ لم توفّر لها العلاج الضروري، فليُعذّبنّكَ ضميرك كما أعتقد.

- تا، تا، تا، تا! وما أدراكَ بحال زوجتي! كما أن هؤلاء الأطباء، بمجرد أن يدخلوا مرة واحدة إلى بيتك، فإنهم لن ينقطعوا عن عيادتها خمس أو ست مرات في اليوم!

- في الحقيقة يا غراندي، أعلمُ أنكَ ستفعلُ ما تريدُ وكما

يحلو لكَ . نحن صديقان قديمان ، ولا يوجد شخص في سومور برمّتها يهتمّ لأمرك ويكترث لمصلحتك مثلما أفعلُ أنا ، لذلك فإني أتيت لأحدثك بهذا الصدد . ازرَع تحصد! الآن ، ستُحصّل وحدكَ نتيجة ما يحدث ، وأنتَ راشد وتعرف كيف تُديرُ شؤونك . في الحقيقة ، ليس هذا ما جئت لأحدثكَ بشأنه ، فالأمر يتعلّق بشأن أكثر خطورة وتهديدًا بالنسبة لك ، ربما . ففي النهاية ، لا أعتقد أنكَ ستكون سعيدًا بمقتلِ زوجتِك حيث أن حياتها جدُ مفيدة بالنسبة لكَ . أدعوكَ أن تفكّر في الوضعية التي ستؤول إليها عندَ وفاتها ، خاصة فيما يتعلّق بابنتك وعلاقتك بها بعدَ موت زوجتك . سوفَ يكون عليكَ حينها أن تُحيل الكثير من الأموال إلى ابنتكَ بمَا أنكَ وزوجتكَ تتقاسمان وتتشاركان ثرواتكما . حينها ، عندَ وفاة زوجتك ، سيكون من حقّ ابنتكَ أن تُطالبكَ بمشاركتها ثروتكَ ، وبأن تبيع فروافون . هيَ ستلي والدتها وترثُها .

نزلت هذه الكلمات كالصاعقَة على الرجل الذي لم يكُن بارعًا قانونيا مثلما كان حين يتعلّق الأمر بالتجارة .

– ولهذا فأنا أدعوكَ لأن تُعالجَ الوضع بلطافة . قال كروشو .

– لكن ، أوَ تعرف ما الذي فعلَته يا كروشو؟

– ما الذي فعلته؟ قال كروشو سعيدًا بكون غراندي يثق به كفاية ليكشف له سرّ الشجار .

– لقد أعطَت ذهبها .

– حسن ، وهل كان الذهبُ ذهبها ، وملكها هي؟ سأل كاتب العدل .

– لماذاَ يردد عليّ الجميع هذا! قال البخيل وقد تداعت يداه في لقطة تراجيدية .

- أوَ تريد أن تُعرض عمليّة تنازل أوجيني لكَ عن تركة أمّها عند وفاتها للخطر والعقبات فقط بسبب كميّة ذهب سخيفة؟ سأل كروشو .

- أوَ تدعو ما قيمته ستة آلاف فرنك من الذهب بكميةّ ذهب سخيفة!؟

- آه يا صديقي ، أوَ تعرف كم ستُكلّفكَ عمليّة تقييم وتقسيم تركة زوجتك إن فرضت أوجيني القيام بها؟

- كم؟

- حوالي اثنان ، أو ثلاث ، أو أربعمائة ألف فرنك ربّما! وسيلجأ الأمر للمزايدة لمعرفة القيمة الحقيقية؟ بدَل ذلك ، يمكنك أن تصلح الأوضاع . . .

- ربّاه! صرخ البخيل الذي جلس شاحبَ الوجه ، مرتعد الفرائص ، سنرى ، سنرى بهذا الشأن يا كروشو .

وبعد برهة من الصمت والاحتضار ، نظر غراندي إلى كروشو عميقًا وقال له :

- الحياة صعبة فعلا! ومكتظة بالمآسي والمواجع . ثم أضاف : أنتَ لا تريدُ أن تخدَعني ، أقسم لي بشرفك أن ما قلته لي للتوّ أمرٌ قانوني وارد الحدوث . أرني القانون ، أرني القانون!

- يا صديقي المسكين ، أوَ تعتقد أنني لا أعرفُ عملي؟ ردّ كاتب العدل .

- هذا صحيح إذن ، ستحرمني ابنتي وتسلبني وتخونني بل وتلتهمني كذلك .

- هي ترث من والدتها .

- ما فائدة الأطفال إذن! آه ، أنا أحبّ زوجتي . إن صحتها

صلبة لحسن الحظ ، هي من آل لا بارتولير .

- لا أعتقد أنها ستصمد لما يزيد عن الشهر ، صحتها متدهورة كثيرا على ما يبدو .

ضرب غـرانـدي بيـده على جـبـينه ، وقـام من مكانه ، وقـام بدورات صغيرة محوّما حول المكان ، وألقى نظرة خائفة على كروشو وقال : وما الحلّ؟

- بإمكان أوجيني أن تتنازل ببساطة عن تركة والدتها . أنتَ لا تريدُ أن تحـرمـهـا من أن ترثك أنتَ ، أليسَ كـذلك؟ ولكـن ، لتحصل على مشاركة من هذا النوع لا تعاملها بشكل فظ . ما قلته لكَ الآن يا صديقي أمرٌ ضد مصلحتي واهتماماتي . وما يقتضي عـملي أنا؟ فـهـو ينصبّ على التـصـفـيات ، والجرد ، والمبـيـعـات والمشاركات . . .

- سنرى ، سنرى . دعنا لا نتحدث عن كلّ هذا ، فأنتَ ترعدُ فرائصي . هل تلقّيتَ ذهبًا؟

- لا لكن عندي بضع قطع لويس قـديمة ، دزينة منهـا ، سأعطيك إياها . لكن ، يا صديقي ، احرص على تسوية الأمور مع أوجيني . أوَلم ترَ ، سومور كلّها ترميك بالأحجار .

- الأغبياء!

- هيا ، لقد وصلت الريع إلى ٩٩ ، فلتسعَد مرة في حياتك .

- بـ٩٩ يا كروشو؟

- أجل .

- إيه ، إيه ، ٩٩! قـال غـرانـدي وهو يصطحب كـاتـب العـدل العجوز إلى الباب الخارجي .

ثم ، ولكونه جد منفعل ومرتبك مما سمعه للتو في الحديقة ،

اتجه البخيل عند زوجته وقال لها :

- هيّا أيتها الوالدة ، بإمكانكِ أن تُمضي يومكِ مع ابنتكِ ، سأذهب إلى فروافون . كونا لطيفتين وهادئتين أنتما الاثنتان . إنه عيدُ زواجنا يا زوجتي الغالية ، خذي ، هاهي ذي عشرة فرنكات من أجل عيد الربّ . استمتعا ، كونا سعيدتين ، واهتما بنفسيكما . فلتحيي السعادة! ورمَا لها بالفرنكات العشرة ثم اقترب منها ، ولثم جبينها : يا لكِ من زوجة طيبة ، لقد تحسّنت صحتك ، أليس كذلك؟

- كيف يمكنكَ أن تتخيل أن الربّ الغفور سيرضى أن يزورَ منزلك بينما أنتَ لا تزال تنفي ابنتكَ في قلبكَ؟ قالت الأمّ بتأثر .

- تا ، تا ، تا ، تا ، تا ، قال الوالد بصوت مداعب وناعم ، سنرى بهذا الشأن .

- يا رحمَة السماء! أوجيني ، صرخت الأم بسعادة ، تعالي وقبّلي والدك ، فلقد غفر لك!

لكن الرجل كان قد اختفى . وهرول بكلّ ما أوتي من قوة إلى حقوله ، محاولا أن ينسق تشتت أفكاره وهو في طريقه إليها . كان غراندي حينها في عامه السادس والستين . ومنذ عامين تحديدًا ، زادت حدّة بخله تمامًا كما تزيد جميع أنواع الشغف في نفس الإنسان . وبحسب ملاحظة تمّت على البخلاء ، وعلى الطموحين ، وعلى كلّ البشر الذين كرّسوا حيواتهم من أجل فكرة واحدة مهيمنة عليهم ، فإن مشاعره انصبّت بشكل خاص على رمز يبعث فيه شغفه وحبّه ذاك . وبذلك فإن رؤية الذهب وامتلاك الذهب صارا هوسَه الخاص . كان طبعه الاستبدادي الآن يتزايد طرديًا وتزايد بخله ، ولذلك فإن تخليه عن أدنى مليم من ثروته المشتركة

مع زوجته عندَ وفاة هذه الأخيرة بدا له أمرًا *ضد الطبيعة* . أن يُخبرَ ابنته عن ثروته ، وأن يجرّد ممتلكاته وأثاثه وعقاراته أمام الملأ ليتم تقييمها في المزايدة؟ - لن أسمح بهذا ولو وصل الأمر لقطع الرقاب! صرخ بصوت مرتفع وسط الحقول . وأخيرا ، عادَ إلى سومور في وقت العشاء ، عاقدًا العزم على مصالحة أوجيني وتدليلها وملاطفتها وذلك حتى يحافظ على لجام ملايينه حتى آخر نفس فيه .

وفي الوقت الذي استعمل فيه السيد غراندي مفاتيحه على غير العادة ، وصعد الدرجَ ، كانت أوجيني قد أحضرت كنزها الدفين إلى سرير والدتها ليتسنى لهما تأمّل صورة شارل وتفحّص ملامح والدته .

- إن لهُ جبينها وفمها! قالت أوجيني في الوقت الذي فتح فيه البخيل البابَ . وعندما رأت السيدة غراندي النظرة التي لمعت في عيني غراندي حينما رأى الذهب بين يديها ، صرخت قائلة : ربّاه! فلترحمنا!

انقض الرجل على الذهب تمامًا كما ينقض نمر على طفل نائم :

- ما هذا إذن؟ قال وهو ينتزع منها الذهب ويقترب من النافذة . يا إلهي ، ذهب خالص رفيع! ذهب! صرخَ السيد غراندي . الكثير من الذهب! هذا يزن الكثير الكثير من الجنيهات! آه! آه! قد أعطاكِ شارل كلّ هذا إذن مقابل قطعك الذهبية ، أليسَ كذلك؟ لمَ لم تخبريني يا بنوتتي؟ إنها لصفقة رائعة! أنتِ ابنتي بحقّ ، أنا أعترف لكِ بهذا!

ارتعدت أوجيني عند سماعها لكلمات والدها . فكرّر سؤاله :

- أوَ ليسَ هذا لشارل؟

- أجل ، والدي ، هذا ليسَ ملكًا لي . إنها أمانة أمّنني عليها شارل لحين عودته . وهي بذلك أمانة مقدّسة .

- تا ، تا ، تا! هوَ قد أخذ ثروتك ، وبالتالي عليك استرداد كنزك الصغير .

- والدي؟

حمل السيّد غراندي سكّينه حتى ينتزع القطع الذهبية من الكنز ، واضطر لأن يضع العلبة فوق كرسي . وانقضّت أوجيني حينها بغتة عليه لتستعيد علبتها ، لكنّ البخيل الذي كان يحرسُ بعينه أوجيني والعلبة في آن الوقت ، دفعها مبعدًا إيّاها بقوّة لدرجة أنها سقطت على سرير والدتها .

- سيّدي ، سيّدي! صرخت السيدة غراندي وقد انتصبت في سريرها من الهلع .

سحَب غراندي سكّينه وبحركة منه أراد أن ينتزع الذهب .

- والدي ، صرخت أوجيني وهي تجثو على ركبتيها مقتربة بذلك من البخيل ورافعة يديها نحوه ، والدي ، باسم جميع القدّيسين وباسم مريم العذراء ، باسم المسيح الذي توفّي على الصليب ، باسم خلاصك الأبدي ، والدي ، باسم حياتي ، لا تلمس هذا! فهذه العلبة لا تخصُني ولا تخصُكَ ، هي ملكُ قريبنا المسكين الذي استودعني إيّاها ، وعليّ أن أُرجعَها إليه تمامًا كما تركها .

-لِمَ كنتِ تشاهدينها إذن إن كانت أمانة لديكِ؟ أوَ ليست الرؤية أسوءَ من اللمس؟

- والدي ، أرجوكَ لا تفسده ، سوف تتسبب لي في عارٍ كبير . والدي ، هل تسمعني؟

- سيدي ، الرحمة! صرخت الأم .

- والدي! صرخت أوجيني بصوت رهيب جعل نانو تركض إلى الغرفة مذعورة فجِعة . وحينها استولت أوجيني على السكين الذي كانت تحمله هذه الأخيرة في يدها وتسلّحت به .

- ماذا إذن؟ قال غراندي مبتسما ببرود .

- سيدي ، سيدي ، أنتَ تقتلني ، ستتسبب في هلاكي .

- والدي ، لو أنك استهليت ما تنوي فعله الآن ، وَلو أن سكينك هذا لامس قطعة ذهبية واحدة ، فسأجرح نفسي بسكّيني . لقد تسبّبت في مرض أمّي الذي ألزمها الفراش ودهورَ صحتها تمامًا ، وستتسبب بذلك في مقتل ابنتك الوحيدة أيضًا . هيّا الآن ، الجرح بالجرح؟

وضع غراندي سكّينه على الذهب ، ورمَق ابنته بنظرة متردّدة .

- أوَ تستطيعين فعلَ ذلكَ حقًا يا أوجيني؟ سأل غراندي .

- أجل يا سيدي ، ستفعل ذلك ، صرخت الأم .

- أجزم لكَ أنها ستفعل ما تقول يا سيّدي ، صرخت نانو بهلع . أرجوك كن عقلانيا وراشدًا لمرة في حياتك .

نظر غراندي إلى الذهب وإلى ابنته بالتناوب مترددًا لبرهة من الزمن . وحينها ، أغمي على السيدة غراندي .

- ها ، أوَ ترى يا سيّدي العزيز؟ أنتَ تقتل السيدة غراندي! صرخت به نانو .

- حسن ، خذي يا ابنتي ، دعينا لا نتشاجر من أجل صندوق ، خذي ، خذي! صرخ البخيل وهو يرمي بالصندوق في السرير . أمّا أنتِ يا نانو ، فاذهبي ونادي السيد بيرجارين .

- هيّا أيتها الأم ، قال غراندي وهوَ يلثم يد زوجته . لم يحدث

شيء ، هيّا ، لقد حلّ السّلام وتصالحنا . أوَ ليسَ كذلك يا بنونتي؟ لن تأكلي من الآن وصاعدًا الخبز الجاف ، بل ستتناولين كلّ ما يحلو لكِ . آه ، هاهي ذي تفتح عينيها . آه ، حسن ، هيا يا ماما ، هيّا إذن! ها ، انظري ، ها أنا ذا أقبّل أوجيني . وإن كانت تُحبّ ابنَ عمّها ، فستتزوجُهُ إن هيَ أرادت ذلكَ ، وستحتفظ لهُ بالصندوق الصغير . لكن عليكِ أن تحيي طويلا وتعيشي يا زوجتي العزيزة . هيّا تحرّكي هيّا .

- يا إلهي ، كيفَ أمكنَ لكَ أن تُعاملَ زوجتكَ وابنتكَ بهذه الطريقة؟ قالت السيدة غراندي بصوت ضعيف متقطع .

- لن يحدُث هذا مجددًا ، هتف البخيل قائلا ، سترَين يا زوجتي المسكينة .

وذهب متجها إلى مكتبه ، حيث جلب حفنة من قطع لويس ، ورماها على السرير .

- خذي أوجيني ، خذي يا زوجتي ، كلّ هذا لكما . قال وهو يتحسس القطع النقدية ، خذي وأفرحي نفسكِ ومتعي نفسك يا زوجتي ، حتى أنتِ يا أوجيني ، لن ينقصك شيء هاهي ذي مائة قطعة لويس لأوجيني ، لكنكِ لن تُعطيها لغيرك ، أوَليس كذلك ، أوجيني؟

تبادلت أوجيني وأمّها نظرات متعجّبة .

- يُمكنكَ أن تستعيدها يا والدي ، فنحن لا نحتاج إلا حنانك وحبّكَ .

- حسن إذن ، كما تريدين ، قال وهوَ يعيد القطع إلى جيبه بسعادة ، فلنعش كأصدقاء . فلننزل جميعنا إلى الصالة لنتناول العشاء سويّة ولنلعب اللوتو معًا كلّ مساء . هيّا ابذلي مجهودًا يا زوجتي العزيزة .

- واحسرتاه! كمْ بوُدّي أن يكون في مقدوري أن أفعلَ ذلك لإسعادكَ، لكنّي لا أستطيع أن أنهض.

- الأمّ المسكينة، قال البخيل، فقط لو تعلمين كم أحبّكِ، وأنتِ يا صغيرتي، واحتضن أوجيني وقبّلها، أوه، من الرائع أن يقبّل المرء ابنته بعد عراك طويل، بنوتتي الصغيرة! ها، أرأيتِ يا ماما، ها نحن صرنا واحدًا الآن. خذي يا أوجيني وخبئي صندوق أمانتكِ، ولا تخشي شيئا، فلن أحدّثك عنهُ منذ اليوم أبدًا.

وصل بعدها السيد بيرجارين، أشهرُ طبيب بسومور. وبعد الفحص، أكّد للسيّد غراندي أن صحة زوجته متدهورة بشكل مهلكٍ، إلا أن توفير جوّ هادئ وملائم لها، بالإضافة إلى عناية دقيقة بصحتها، قد تؤجل موعد موتها إلى نهاية الخريف.

- وهل سيكلّفني هذا كثيرًا؟ هل تلزمها أدوية؟ سأل البخيل.

- أدوية قليلة، وبالمقابل عناية كبيرة، ردّ الطبيب الذي لم يستطع أن يكتم ابتسامته.

- في الحقيقة سيد بيرجارين، أنت رجلٌ شريف، أولَيس كذلك؟ أنا أثق بك، وأريدُك أن تتفقد زوجتي وتزورها لفحصها كلّما ارتأيت ذلك مناسبًا وضروريًا. حافظ لي على زوجتي الطيبة، فأنا أحبها كثيرًا، أتعلم؟ حتى وإن لم يكن ذلك ظاهرًا كثيرًا، ففي منزلي، كلّ شيء يحدث في أعماقي ويتلاعب بروحي. أنا بائس، ولقد تسلّل البؤس إلى نفسي منذ وفاة أخي الذي أصرف عليه مبالغ هائلة في باريس... وداعًا سيدي، وإن كانت هناك وسائل لإنقاذ زوجتي، فأنقذها، حتى لو كلّفني ذلك مائة أو مائتي فرنك.

ورغم حرص غراندي على حياة زوجته التي سيكون انتقال

ميراثها عنه بمثابة نوبة وفاة أولى بالنسبة له هوَ شخصيا ، ورغم كل المراعاة التي كان يظهرها في كل مناسبة وعندَ أدنى طلب للوالدة وابنتها اللتان اندهشتا منه ، ورغم كلّ العناية التي خصّت أوجيني أمها بها ، إلا أن السيدة غراندي كانت تخطو خطوات سريعة نحو حتفها . يومًا بعد يوم ، كانت تضعف وتضمحل مثل معظم النساء في مثل سنها واللواتي ينال منهنّ سنّهنّ . غدَت السيدة غراندي سقيمة كورقة خريف ذابلة . وقد توفّت وفاةً تليق بحياتها ، وفاة مسيحية جدًا ، أوليسَ هذا رائعًا؟

في شهر أكتوبر من عام ١٨٢٢ انبثقت فضائلها ومحامدها أكثر فأكثر وانسابَ صبرها الملائكي وحبّها لابنتها ، وانطفأت من دون أدنى شكوى . كانت حمَلا وديعا من دون أي شائبة ، ذَهبت إلى السماء ، ولم تندم على ما خلّفت خلفها سوى على الرفقاء اللطفاء الذين حظت بهم خلال حياتها الباردة التي تركتها بعدَ أن تكهّنت آخر نظراتها فيهَا بآلام كثيرة تنتظر ابنتها . كانت ترتجف خوفًا على تلكَ النعجة البيضاء النقية مثلها تمامًا ، والتي تركتها وحيدة وسطَ عالم أناني يحاول بكلّ ما أوتي من حيلة ودهاء أن ينتزع منها صوفها وكنوزها .

- صغيرتي ، لا توجدُ السعادة إلا في السمَاء ، ستعرفين هذا يومًا ما ، قالت الأم قبلَ أن تلفظ روحها .

في اليوم الموالي لوفاة والدتها ، أصبحَ لأوجيني سبب آخر يزيد من تعلقها بهذا المنزل الذي وُلدت فيه ، وعانت فيه كثيرا ، وهاهي ذي والدتها قد لفظت آخر أنفاسها فيه . لم تعُد تمرّ بمكان فيه إلا وذرفت دموعًا على فراق أمها . لوهلة اعتقدت أن الأمور اختلطت عليها ، وأنها أساءت الظن بوالدها وبنيّاته سابقًا حينَ جعل منها

موضع اهتمامه ومراعاته : كان يعطيها ذراعه لتتأبطها وهي تنزل الدرج لتناول الفطور، وكان يرمقها بنظرات طيّبة وحنونة طول الوقت، كان يحتضنها كما لو أنها كانت كومة ذهب. لمْ يعد السيد غراندي يشبهُ نفسه، وأصبح يرتجف أمام ابنته لدرجة أن نانو وآل كروشو أرجعوا الأمر لشيخوخته وخشوا أن يؤثر هذا على كفاءاته. لكن وعندما انتهى الحداد، وبعد العشاء الذي دُعيَ إليه السيد كروشو كاتب العدل، والوحيد الذي كان على إطلاع بسرّ زبونه : انكشَف السرّ الخفي الذي كان يحرّك السيد غراندي ويجعله يتصرّف بغرابة. فعندما رُفعَ الطعام وغلّقت الأبواب بعناية، بادرها والدها بالقول :

– ابنتي العزيزة، ها أنتِ ذا وريثة لوالدتكِ، ولدينا أمورٌ صغيرة علينا تسويها أنا وأنتِ. أليسَ كذلك، كروشو؟

– بلى.

– أَمِنَ الضروري أن نتحدث عن هذا اليوم يا والدي؟

– أجل، أجل يا بنوتتي، فأنا لا أستطيع أن أصمد أكثر من هذا في حالة الشك والريبة التي أنا عليها. لا أعتقدُ أنكِ تريدينَ أن تسببي لي أي معاناة.

– آه يا والدي!

– حسن، يجب أن نسوّي كلّ هذا مساء اليوم.

– ما الذي تريدونني أن أفعل؟

– يا بُنيّتي، هذا لا يخصّني أنا، اسألي السيّد كروشو.

– آنستي، السيد والدكِ لا يريدُ لا أن يتقاسم ولا أن يبيع ممتلكاته وأغراضه، ولا أن يبذر الكثير من الأموال على الحسابات والتقيمات. ولهذا، عليكِ أن تتنازلي عن عملية التجريد التي

ستجمع وتُقيّم قيمة الثروة التي أصبحت تتقاسمينها الآن أنتِ والسيد والدكِ .

- كروشو ، هل أنتَ متأكدٌ من كلّ هذا حتى تتحدث عنه هكذا أمام طفلة؟

- دعني أتحدث ، غراندي .

- أجل ، أجل يا صديقي ، فلا أنت ولا ابنتي تريدان أن تنهباني ، أوَليسَ كذلك يا بنيّتي؟

- ولكن ، سيد كروشو ، ما الذي عليّ أن أفعله؟ قالت أوجيني وقد نفذ صبرها .

- حسن ، عليكِ أن تمضي هذا العقد الذي يقضي بأنك تتنازلين عن تركة والدتكِ وأنك تتركين لوالدكِ حق الانتفاع من جميع الممتلكات غير المقتسمة بينكما ، والتي يؤكد لكِ حق الانتفاع . . .

- أنا لا أفهمُ شيئا مما تقوله يا سيدي ، هلّا أعطيتني العقد وأرَيتني أينَ أوقّع؟

كان غراندي ينظر بالتناوب إلى ابنته وإلى العقد ، إلى العقد وإلى ابنته ، لدرجة أنه غدا ضحية مشاعر جيّاشة جعلت العرق يتصبب من جبينه .

- بُنيّتي ، بدَل أن تمضي هذا العقد الذي سيُكلّفنا تدوينه الكثير ، ماذا لو قررت أن تتنازلي ببساطة عن حقك من ميراث أمك المرحومة وأن تعتمدي عليّ مستقبلا ، سأحبذ هذا . وحينها ، سأخصص لك معاشا من مائة فرنك كلّ شهر ، مائة فرنك بالجنيهات؟

- سأفعل كلّ ما سيُسعدُكَ يا والدي .

- آنستي ، من واجبي التدخل هنا لأوضح لكِ أنكِ بصددِ سلب نفسك . . .

- يا إلهي ، وماذا في ذاك؟ قالت أوجيني .

- اخرس كروشو! لقد وافقت ، لقد وافقت ، صرخ غراندي وهو يحمل يد ابنته في يده مصفقا بهما ، أوجيني ، أنتِ لن تتراجعي يا ابنتي ، أنتِ فتاة صادقة شريفة ، أليسَ كذلك؟

- أوه ، والدي!

فقبّلها والدها برقّة ، واحتضنها حتى كادَ يخنقها .

- اذهبي يا ابنتي ، أنتِ تبثين الحياة في والدكِ ، أنتِ تعيدينَ إليه الحياة التي بثها فيكِ ، نحن متساويان الآن . هكذا يجب أن تجري الصفقات . الحياة صفقة! أنا أباركُكِ . أنتِ ابنة فاضلة تحبّ والدَها . بإمكانكِ أن تفعلي ما يحلو لكِ الآن! فلنلتق غدا يا كروشو ، قال غراندي وهو ينظر إلى كاتب العدل المذعور . احرص على إعداد عقد التنازل .

في يوم الغد ، وعندَ منتصف النهار ، وقعت أوجيني على عقد التنازل الذي سمحت فيه هيَ بنفسها بنهب حقوقها . بعد مرور العام الأول ، ورغم أنه أعطاها وعده ، لم تتحصل أوجيني على مليم واحد من الأموال التي وعدها والدها بها . وعندمَا حدّثته أوجيني بلطف بشأن نقودها ، احمرّ وجه العجوز ، وصعدَ مسرعًا إلى مكتبه ، وجلب لها ثلث المجوهرات التي أخذها من ابن أخيه .

- خذي يا صغيرتي ، قال العجوز بنبرة ملؤها السخرية ، أوَ تقبلين بهذا مقابل الألفِ ومائتي فرنك الخاصة بهذه السنة؟

- آه والدي ، أوَ حقًا تعطيني إياها؟

- أجل ، وسأعطيكِ مثلها في السنة المقبلة . قال وهوَ يضعها

أمامها . ثم أضاف وهو يفركُ يديه بحماس ، لكونه تمكّن من استغلال مشاعر ابنته : وهكذا ستحصلين على حليّه خلال زمن قصير .

إلا أن العجوز ، على الرغم من متانته ، أحسّ بضرورة تلقينه لابنته بعض أسرار إدارة المنزل . وبذلك جعلها تدير قائمة الطعام والحاجيات وتتلقى الاستحقاقات . علّمها ببطء وتسلسل أسماء ومحتويات حقوله المسوّرة ومزارعه . وفي غضون ثلاث سنوات ، كان قد علّمها جميع سبُل البُخل لدرجة أنها تحوّلت لعادات لديها ممّا جعله يرتاح ويثق بها ، فأعطاها مفاتيح غرفة الإنفاق وهو مرتاح البال ، وعيّنها كمديرة لشؤون المنزل .

ومرّت خمس سنوات من دون أن يطرأ أي طارئ ليُغيّر الحياة الروتينية لأوجيني ووالدها . كانت لهما نفس الحركات الاعتيادية الممنهجة والمنتظمة التي تشبه حركات ساعة جدارية قديمة . ولمْ يكن الأسى العميق الذي تعاني منه الآنسة أوجيني يَخفى على أحد ، لكن ، إن كان غيرها قد خمّنوا السبب وراء تعاستها ، فإنها لم تنبس يومًا ببنت شفة تؤكّد تكهنات سُكان سومور حول أحوال قلبها . كانت كلّ الرفقة التي تحظى بها متلخصة في الكروشو الثلاثة وبضع أصدقاء لهم تمّ دمجهم تدريجيا في منزل غراندي . كانوا قد علّموا الوريثة الغنية كيف تلعب الورق ، وأصبحوا يقضون أمسياتهم عندها . في عام ١٨٢٧ ، حين أحسّ والدها بثقل مرضه وتدهور حالته الصحّية اضطر لأن يشرح لها خبايا عقاراته وأملاكه ، وأخبرها أنه بإمكانها أن تعتمد على السيّد كروشو كاتب العدل إن هي لاقت صعوبات ما لأنه رجل مستقيم نزيه . وباقتراب نهاية تلكَ السنة ، وحين بلغ العجوز اثنين وثمانين عامًا ، أصيبَ بشلل

سرعان ما تطوّر . ممّا جعل أوجيني تفكّر في كونها ستبقى وحيدة في عالمها خلال مدّة لن تطول ، فتمسّكت بوالدها وكأنه آخر حلقات الحبّ والحنان . ففي نظرها ، مثلما هو الحال في نظر كلّ النّساء العاشقات ، فإن الحبّ لا يختصرُ على شارل وحده بل يشمل العالم برمّته . وبما أن شارل كان غائبا ، فإنها ركّزت عنايتها واهتمامها على والدها العجوز الذي نقصت كفاءاته شيئا فشيئا ، ماعدا بُخله الذي تواصلَ حتى آخر رمق في حياته . وبذلك لم يتناقض موت هذا الرجل البتة مع حياته . فمنذ الصباح ، كان يأمرهم أن يجرّوه إلى مكتبه ، الذي كان مكتنزا ذهبا حيث كان يجلس فيه من دون حراك ، لكنه كان يرمق زائريه بنظرات قلقة متوجسة . كان يحرس أدنى التحركات والأصوات ، حتى أنه كان يسمع صوت تثاؤب كلبه في الفناء . وما كان يستيقظ من غيبوبة مرضه إلا حين يحلّ موعد تلقي الإيجارات وإعداد الحسابات مع المزارعين أو إعطاء الاستحقاقات . حينها كان يحرّك كرسيه ذي العجلات حتى يصل إلى باب مكتبه حيث يستعين بابنته لتفتحه له ، ويحرص على أن تكدّس بنفسها أكياس الأموال فوق بعضها البعض حتى تُغلق الباب . وحينها يعود إلى مكانه بصمت بعدَ أن تكون قد أعادت له المفتاح الثمين الذي يخبئه بكلّ حرص في جيب صدّاره ويتحسّسه من حين لآخر .

كما أن كاتب العدل الذي أحسّ أن أوجيني ستتزوج حتما ابن أخيه في حالة ما إذا لم يعُد شارل غراندي ، زادَ من حرصه وعنايته بوالدها حيث أصبح يزوره كلّ يوم ليتمثّل لأوامره ، ويذهب بحسب تعليماته إلى فروافون ، للأراضي والمراعي وبساتين الكرْم ، كان يبيع المحاصيل ويحوّل كلّ الأموال إلى ذهب وفضة ينتهي بها

الأمر مكدَسَة بسريّة في أكياس مُخزنة في مكتب البخيل .

وأخيرا وصلت أيام الاحتضار التي تدمّر فيها هيكل غراندي تمامًا . كان يريدُ أن يبقى جالسًا بجانب المدفأة أمام باب مكتبه . كان يتشبث بكلّ الأغطية التي كانوا يضعونها عليه ويقول لنانو :

- شدّي ، شدّي هذا حتى لا يسرقوني .

وحين كان باستطاعته أن يفتح عينيه اللتين تكدّست في أعماقهما حياته بأجمعها ، كان يديرهما فورًا باتجاه باب مكتبه الذي تختفي خلفه كنوزه وأمواله ويسأل ابنته عنها بقلق شديد :

- هل هيَ هناك ، هل هي هناك؟

- أجل يا أبتي .

- احرصي على الذهب ، ضعي لي قليلا من الذهب أمامي .

فكانت أوجيني تنثر على الطاولة أمامه بضع قطع لويس ، تتعلق عينا البخيل بها لساعات طويلة ، تمامًا كالطفل الذي تتعلق عيناه بالشيء ذاته ، بكلّ سذاجة ، حينَ يبدأ النظر ، وتمامًا كالطفل ، كان يبتسم ببلاهة .

- هذا يجعلني أشعر بالدفء . كان يقول من حين لآخر وقد بدت على وجهه آثار النعيم .

حين جاءه قسّ الأبرشية ليرعاه عندَ موته ، كانت عيون السيد غراندي المتعبة تبدو ميتة ظاهريًا ، لكنّ رؤيته للصليب والشمعدان الذهبيان وللجرن الفضي الذي وُضعَ به الماء المقدس بثّت الحياة من جديد في عينيه اللتان تحرّكتا للمرة الأخيرة . وحين اقترب منه القسّ ليضع له الصليب على شفاهه ليُقبّلَ بذلك المسيح مدّ البخيل يدَه بحركة خاطفة ليُمسك بالصليب الذهبي ، وكان هذا المجهود هو ما كلّفه حياته . نادى أوجيني التي لم يكن يراها رغم

أنها كانت جاثية أمامه تغسلُ يديه الباردتين بدموعها .

- والدي ، فلتباركني .

- اعتني بكلّ هذا . فلأسألنكّ عن كلّ هذا هناك ، قال الأب غراندي وكأنه يثبت بهذا أن المسيحية لابدّ وأن تكونَ ديانة البخلاء .

وجدت أوجيني نفسها وحيدة في قلب هذا المنزل ، حيث لم تعُد لها سوى نانو التي كانت متأكدة من أنها تسمعها وتفهمها . نانو كانت الكائن الوحيد الذي أحبّها لما هي عليه ، الوحيدة التي كانت تستطيع أن تتحدث معها عن مآسيها . كانت نانو الضخمة بمثابة عناية إلهية بالنسبة لأوجيني ولم تكن تراها كخادمة لها ، بل كصديقة عزيزة .

بعدَ وفاة والدها ، علمت أوجيني عن طريق السيد كروشو أنها تملكُ ثلاثمائة ألف جنيه من الريع في العقارات المحيطة بسومور ، وستة ملايين موضوعة بفائدة ثلاثة بالمائة لكل ستين فرنكًا ، وكانت قيمتها آنذاك حوالي سبعة وسبعون فرنك ، بالإضافة إلى مليونيين من الذهب ومائة ألف ، من دون أن نحسب الاستحقاقات المتأخرة التي ستتلقاها لاحقا . وبذلك فإن القيمة الكلّية لأموالها وممتلكاتها تقدّر بسبعة عشر مليونا .

- أينَ ابن عمّي إذن؟ كانت أوجيني تتساءل .

في اليوم الذي أعطى فيه السيدُ كروشو لزبونته الأوراق التي تثبت ممتلكاتها التي أصبحت متضحة لها ، انفردت أوجيني بنانو حيث جلست كلّ منهما في جهة من المدفأة وسط تلك الصّالة الفارغة التي كانت كلّها ذكريات : من الكنبة التي كانت والدتها تجلس عليها إلى الكأس الذي شرب منه ابن عمّها المحبوب .

- نانو ، نحن وحيدتان . . .

- أجل يا آنستي ، لو كنتُ أعلمُ أينَ هوَ ، ذلكَ الوسيم ، لذهبت على أقدامي بحثًا عنه من أجلكِ .

- هناكَ البحر بيننا يفصلنا . . . قالتَ أوجيني .

وبينما كانت أوجيني المسكينة تبكي برفقة خادمتها العجوز التي كانت تُشكل بالنسبة لها الكون بأجمعه في هذا المنزل البارد المُظلم ، كانت كلّ من نانت وأورليان تحكيان عن السبعة عشر مليونًا التي ورثتها الآنسة أوجيني غراندي . وكان أوّل ما فعلته أوجيني أنها أعطت نانو اثنتا عشر مائة فرنك من الريع هي التي كانت تمسك ستمائة فرنك ، وأصبحت غنية بدورها . خلال أقل من شهر تغير اسم نانو من فتاة إلى امرأة (سيّدة) تحت رعاية أنطوان كورنوايي ، الذي أصبح يُدعى حارسًا عامًا لأراضي وممتلكات الآنسة غراندي . تمتّعت مدام كورنوايي بأفضلية كبيرة على قريناتها ، فرغم أنها في التاسعة والخمسين من عمرها إلا أنها بدت وكأنها لم تتخط عتبة الأربعين . فقد قاومت ملامحها ضغوطات الزمن بفضل نظام حياتها الرهباني الذي أكسبَها صبغة مُلوّنة وصحّة حديدية . ربّما لم تكُن في حياتها جميلة مثلما كانت عليه يومَ زفافها . فقد تمتّعت بمحاسن البشاعة وبدت ضخمة وبدينة وقوية البنية وقد ارتسمت على وجهها غير القابل للإتلاف مسحَة من السعادة ، الشيء الذي جعل الآخرين يحسدون كورنوايي عليها .

- إنها لَقادرة على إنجاب الأطفال ، قال بائع الأقمشة .

- لقد حافظت على نفسها في نقيع الملح ، قال بائع الملح .

- إنها غنيّة وإنها لخيرُ غنيمة قد يتحصّل عليها كورنوايي ، قال شخص آخر .

وبذلك كانت نانو محبوبة من طرف جميع جيرانها حينما غادرت منزلها القديم ، ولم تسمعَ إلا مديحًا لها على طول الطريق المتعرّجة لتصل إلى الكنيسة . وكهدية لزواجها أهدتها أوجيني ثلاث دزينات من الأغطية الفاخرة . وتفاجأ كورنوايي بكلّ الكرم الذي تمتّعت به سيّدته ممّا جعله يتحدّث عنها بعينين دامعتين : كان بإمكانه أن يموتَ سحقًا من أجلها .

كما وجعلت أوجيني نانو امرأة محلّ ثقتها وأمنتها على مفاتيح الإنفاق ، وقد جعل هذا نانو سعيدة تماما مثلما سعدت بزواجها وبامتلاكها لرجل . فأخيرًا أصبحَت لها نفقات تتحكّم بها مثل سيّدها المرحوم . علاوة على ذلك فإن أوجيني وظّفت طبّاخة وخادمة تهتم بشؤون النظافة والملابس وبتحضير أثوابها ومن غير الضروري أن نشير لكون الخادمتين اللتين اختارتهما نانو *لؤلؤتين* فريدتين . كما واحتفظ زوجها بعمله كحارس ووكيل لأعمال الآنسة أوجيني . وبذلك حصلت أوجيني على أربعة من الخدم المخلصين الأوفياء .

ولم يلحظ المزارعون تغييرا على مستوى إدارة المزارع ، حيث أن السيد غراندي كان قد وضع نظامًا صارمًا اعتاد عليه خدمه وهو ما جعل نانو وزوجها يستمران عليه .

في سن الثلاثين ، كانت أوجيني لا تزال تجهل مباهج الحياة . فقد انقضت طفولتها الشاحبة التعيسة في أحضان أمّ لم يُقدّر قلبها حق تقديره ، بل كان مجروحًا وعانى طول الوقت . وعندما غادرت هذه الأم الوجود أشفقت على ابنتها مما سيتحتّم عليها أن تعيشه ، وخلّفت في روحها ندمًا خفيفا وحسرات أبدية .

وقد كان حبّ أوجيني الأول والوحيد جوهرَ أساها . فبعد أن

قابلت محبُوبَها لبضعة أيام أهدَته قلبها وسطَ قُبلَتين كانت قد أعطتهما وأخذتهما خلسة . وبعدها رحلَ بعدَ أن خلّفَ عالمًا بأكمله بينه وبينها . هذا الحبّ الذي لعنه والدها كادَ أن يكلّفها حياة والدتها ولم يعُد يُسبّب لها سوى آلام ممزوجة بآمال باهتة . هكذا وبعدَ أن ارتمت بكلّ قواها صوبَ السعادة دون أن تشعر بكونها متبادلة . ففي الحياة العاطفية تمامًا كالحياة الجسدية : يوجَدُ شهيق وزفيرٌ : فالنفس بحاجة لتشرّب مشاعر نفسٍ أخرى ، بحاجة لأن تستوعبها حتى تُعيدهَا إليها أغنى وأقوى . من دون هذه الظاهرة الإنسانية ، لن تكون هناك حياة على متن القلب ، وبذلك سينقصُه الهواء ، وسيعاني ويذبل تدريجيًا . بدأت حينها معاناة أوجيني . فبالنسبة لها لم تكن ثروتها المالية لا سلطة ولا عزاءٌ يواسيها ويُعوّضها ، لم يَكن بإمكانها أن توجَد وتتواجد إلا عن طريق الحبّ ، عن طريق الدين ، عن طريق إيمانها بالمستقبل . كان الحبّ يفسّر الخلود لها . وكان قلبها وإنجيلها يبشّرانها بعالمين اثنين في الانتظار . كانت تغطس ليلَ نهار في قلب فكرتَين لامتناهيتين لم تشكلا بالنسبة لها إلا واحدًا . انسحبت أوجيني في أعماق ذاتها ، مُحبَة ، ومتخيّلة أنها محبوبة . منذ سبع سنوات ، كان شغفها وحبها قد التهما كلّ شيء . ثروتها لم تكن متمثلة في الملايين التي ورثتها عن والدها ، بل في صندوق شارل وصور والديه المعلّقين عندَ سريرها ، ومجوهراته التي اشتراها منه والدها ، وكشتبان زوجة عمّها التي كانت والدتها تستخدمه يوميًا في حياكتها والتي ما عادت تضعه الآن إلا لاستعادة ذكريات الأيام الخوالي . من الجائز أن الآنسة غراندي لم تبدِ أية رغبة في الزواج طوال فترة حدادها . كان ورعها وتقواها معروفين ، ولذلك فإن آل كروشو اتبعوا منهجية

حكيمة اقترحها عليهم القسّ، بحيث اكتفوا بإحاطة الوريثة بعنايتهم ومودّتهم. فقد كان منزلها يعُجّ مساء كلّ يوم بكروشوتيين من كلّ مكان والذين كانوا يغنون أجملَ أغاني المديح لسيّدة المنزل بكلّ النبرات والنغمات. كان للآنسة طبيب غرفتها الخاص، قسيسها، حاجبها، السيّدة التي تعتني بأناقتها، كاهنها الأول، ومستشارها، الذي كان يعتني بكلّ شيء. فبمجرد أن كانت الوريثة تبدي رغبتها في اقتناء شيء ما، كان يحضر إليها في أقرب الآجال. كانت أوجيني ملكةً، بل وأكثر الملكات دلالًا.

التملق لا يصدرُ عن الأشخاص العظماء، بل هي خاصية صغار العقول الذين ينجحون في تصغير أنفسهم أكثر فأكثر حينمَا يدخلون المدار الحيوي للشخص الذي يتحركون بجاذبية حوله. يتضمن الإطراء والمداهنة مصلحة ما ضمنيا. وبذلك فإن الأشخاص الذين كانوا يأتون كلّ مساء لتأثيث صالة الآنسة غراندي والتي غدَوا يدعونها بالآنسة فروافون نجحوا في إمطارها بالمديح. كان مهرجان المديح هذا جديدا على أوجيني. في البداية كانت تحمرّ خجلا، لكنّ أذنها بدأت تعتاد تدريجيا على سماع مديح لجمالها لدرجة أن لو أن قادمًا جديدا علّق قائلا أنها قبيحة لكانت أكثر حساسية الآن تجاه هذا الخزي أكثر مما كانت عليه قبل ثمان سنوات. ثمّ بدأت تحبّ حلاوة ذلك الشعور، وبذلك فإنها اعتادت بدرجات على ترك غيرها يعاملونها كملكة، وأن تعتلي عرشها وسطَ حاشيتها كلّ مساء.

كان السيد رئيس المحكمة، دو بونفون بطَل هذا التجمع، أينَ كان الجميع يمدح تفكيره وشخصه وتعليمه ولطفه. وعلّق أحدهم ملاحظا أن ثروة السيد دو بونفون كانت قد ارتفعت خلال السنوات

السبع المنقضية ، وأن ريعه تسوى على الأقل عشرة آلاف فرنك ، وأن أراضيه تتوسط بعض أراضي الوريثة .

– أوَ تعلمين يا آنستي أن آل كروشو يملكون حوالي أربعين ألف جنيه من الريع ، قال أحدهم .

– ومدخراتهم ، قالت إحدى عجائز كروشو ، لقد جاء سيّد من باريس مؤخرا ليقدّم للسيد كروشو مائتي ألف فرنك على دراسته ، عليه أن يبيعها ليصبح قاضيَ صلح .

– إنه يريد أن يحتل محل السيد دو بونفون حين يترقى هذا الأخير ، لأنه سيصبح مستشارًا عمّا قريب ، ومن ثمّ رئيس بلاط ، هذا سيحدث لا محالة ، ردّت مدام دورسونفال .

– أجل ، إنه لرجل متميّز ، ردّ آخر ، أوَ لا تعتقدين ذلكَ آنستي؟

حاول السيد دو بونفون أن ينسجم مظهره مع الدور الذي يؤديه . فرغم كونه في الأربعين من عمره ، ورغم وجهه الأسمر الذابل كما هو الحال بالنسبة لكلّ عمّال القضاء ، إلا أنه دائما ما كان يحرص على الظهور بمظهر شاب ، ولم يكُن يدخّن عندَ الآنسة دو فروافون ، ودائما ما كان يحضر بربطة عنق بيضاء ويتحدّث بألفة مع الوريثة الجميلة ، وكان يقول لها : عزيزتنا أوجيني!

وبالتالي ، فيما عدا عدد الأشخاص المشاركين في المشهد ، وإن نحن غيّرنا لعبة اللوتو بالورق ، وإن محونَا وجهي السيد والسيدة غراندي ، فإن المشهد الذي بدأت به هذه القصّة كان تقريبًا لا يزال هو ذاته الذي سبقَ وحدث في الماضي . كانت الجماعة لا تزال تلاحق أوجيني وملايينها ، إلا أن الجماعة تكاثرت وزاد عددها وبالتالي أصبحت تنبح بشكل أقوى وتحيطُ بفرسيتها بطريقة

أفضل . لذلك ، فإن شارل لو عاد حينها من أعماق الهند لكان قد وجد نفس الشخصيات ، تحرّكها نفسُ الدوافع والاهتمامات .

كانت السيدة دي غراسان ، والتي كانت أوجيني تعاملها بلطف وطيبة مثاليين ، لا تزال تحاول إزعاج وزعزعة آل كروشو .

في هذه المرّة كان هناك تقدم ملحوظ . حيث أن باقة الورد التي أحضرها السيد الرئيس لأوجيني منذ سنوات في ذكرى مولدها أصبحت اليوم عادَة يومية له . ففي كلّ مساء كان السيد يُحضر للوريثة الغنية باقة كبيرة وجميلة ، لتضعها مدام كورنوايي (نانو) في جرة صغيرة في الصالة ، إلا أنها كانت ترميها سريًا في ركن من الفناء بمجرد أن يذهب الزوار .

في بداية الربيع حاولت السيدة دي غراسان أن تزعج مخططات آل كروشو بأن ذكرت على مسامع أوجيني الماركيز دو فروافون والذي فقد منزله ولن يتمكن من استعادته إلا إن قبلت الوريثة أن تعيد إليه أرضه عن طريق عقد زواج . وفعلت السيدة دي غراسان ما بوسعها لتؤكد على لقب *الماركيز* ولتمدحه وتُفضّله على السيد دو بونفون وتُظهِرَ مزاياه وأفضليته على هذا الأخير : رغم أن السيد دو فروافون قد بلغ الخمسين من عمره إلا أنه لا يبدو أكبر من السيد كروشو ، صحيح أنه أرمل وأن له أطفالا ، إلا أنه مركيز وسيصبح عضوا في مجلس اللوردات الفرنسي ، وفي وقتنا الحالي يصعب العثور على زواج مماثل ، وإني لمتأكدة أن السيد غراندي إنّما اشترى وجمعَ ممتلكات آل فروافون بنيّة وصلهم ، لقد أخبرني بهذا عدّة مرات ، إنه لرجل نبيه!

وفي إحدى الليالي سألت أوجيني نانو : كيف ، كيف لم يكتب لي وَلو رسالة واحدة طوال سبع سنوات؟

وبينما حدث ما حدث في سومور ، كان شارل يجمع ثروته في الهند . في بداية الأمر ، نجح شارل في بيع سلعته الأولية- وسرعان ما جمع مبلغ ستة آلاف دولار . ثم أنه سرعان ما لاحظ أنه لتحقيق الربح في المناطق بين الأقاليم المدارية تمامًا مثلما هو الأمر في أوروبا : كان عليه أن يُتاجر بالبشر . ولذلك فإنه انتقل إلى سواحل إفريقيا ، واتخذ من تجارة السود والعبيد مهنة له ، بالإضافة إلى سلع أخرى .

وكان شارل قد توغّل في عالم الصفقات والعمل لدرجة أنه لم يكن يجد حتى وقت فراغ . هيمنت على شارل فكرة العودة إلى باريس بثروة في أوجها ، وذلك ليتحصّل على مكانة ألَمع من تلكَ التي وقع منها عندَ إفلاس والده . ومن كثرة حلّه وترحاله ومعاملته للبشر وملاحظته للعادات والأعراف المتناقضة والمختلفة فإن أفكار شارل ونظرته تغيرت تماما ، وكان قد أصبح مضاربًا . لم تعد له أية مبادئ ثابتة عن الخطأ والصواب ، عن الخير والشرّ . ومن كثرة تعامله على أساس المصالح والفوائد ، فإن قلب شارل أصبح أكثر برودًا ، وانكمش ذابلا . كان يبيع الصينيين والسود وأعشاش السنونو والأطفال والفنانين . أما اعتياده على تزوير الحقوق والوثائق عندَ الجمارك فجعلته غير مبالٍ بحقوق الإنسان . وبذلك فإنه كان يذهب إلى سان-توماس ليشتري السلع بثمن بخس من عند القراصنة ليذهب ويبيعها في الأماكن التي سرقها القراصنة منها . وإذا كانت الملامح النبيلة لأوجيني التي تُشبه ملامح مريم العذراء في طهارتها قد اصطحبته في مخيلته خلال رحلته من فرنسا إلى الهند ، وإذا كان يُرجعُ الفضل في نجاحاته الأولى إلى التأثير السحري لدعوات هذه الفتاة ، فإن ذكريات ابنة عمّه ، وسومور ،

ومقعدهما ، والقبلة المختلسة في الرواق انمحت تمامًا من مخيلته بعدَ أن كانت له مغامراته مع السوداوات والبيضاوات ، والجاويات والغجريات من كلّ لون ومنطقة .

كلّ ما كان يتذكره هو الحديقة الصغيرة المحاطة بجدران قديمة ، لأن قدره القاسيَ انطلق من هناك ، أمّا عائلته فقد أنكرها تماما ، فبالنسبة له عمّه كان مجرد كلب عجوز اختلس مجوهراته ، ولم تكن أوجيني تشغل لا باله ولا قلبه ، بل كانت تشغل موقعا فريدًا في لائحة الدائنين خاصته حيث أنه يدين لها بستة آلاف فرنك . وبإمكان هذه الأفكار والسلوكات أن تُفسّر سبب صمت شارل .

ولكي يُبعد أيّ شبهات عن اسمه وسمعته ، فإن المضارب قد اتخذ لنفسه اسمًا مستعارا هو : سيفرد ، تجوّل تحت هذا الاسم في كل من الهند وسان-توماس ، وسواحل إفريقيا وفي لشبونة والولايات المتحدة ، وخلف هذا الاسم استطاع أن يكون جريئا وجشعا ، كان رجلا عازمًا على تحقيق الثروة بأي طريقة ممكنة ، وذلك لينتهي سريعًا من الخزي الذي كان فيه ليعود كما كان ويحيى كرجل فاضل لبقية أيام حياته ، وذلك ما جعل ثروته تزداد سريعا وبطريقة لامعة . وبهذا ، عاد شارل إلى بوردو عام ١٨٢٧ ، على متن سفينة سانت كارولين ، وهي سفينة شراعية تمتلكها أسرة تجارية ملكية . كان يملك تسعة عشر ألف فرنك خبأها في ثلاثة براميل تحت هيئة ذهب ، كان يفكّر في استعمال سبعة أو ثمانية بالمائة منها عند وصوله إلى باريس .

وقد كان على متن هذه السفينة رجل اعتيادي ينتمي لغرفة س.م . الملك شارل العاشر ، : السيد دوبريون ، وهو عجوز ارتكب فعلا جنونيا عندما تزوج امرأة على الموضة ذات ثروات موزعة على

الجزر . ولكي يتحكّم في إسرافات السيدة دوبريون المالية فإنه ذهب للجزر لكي يجمع ثروتها . وقد كان للسيد والسيدة دوبريون-بوش اللذان يملكان ما مقداره عشرون ألف فرنك من الريع ، ابنة قبيحة جدًا ، وكانت والدتها تريد أن تزوجها من غير جهاز لكون ثروتها تكفيها بالكاد لتعيش في باريس . ولم يكن ذلك سهلا . حتى أنها يئست تماما من رؤية ابنتها تُقبّل أيّا كان ولو كان رجلا نبيلا سكّيرا .

كانت الآنسة دوبريون فتاة طويلة كحشرة ، نحيلة كقصبة ، بفم كبير يتهاوى عليه أنف جدُ طويل طرفه ضخم مصفر في حالته الاعتيادية لكنه سرعان ما يحمرّ بعد تناولها للطعام ، وتكون هذه الظاهرة النباتية أبشع وأكثر إثارة للانتباه حين تحدث وسطَ وجه الآنسة الشاحب . ولكي تنقص من فضاضة بشاعة ابنتها فإن السيدة دوبريون أخضعتها لتدريبات حتى تتعلم كيف تحافظ مؤقتا على لون أنفها ، وكيف ترتدي الملابس بطريقة راقية ، وعلّمتها أساليبًا وطرقا جميلة في التعامل ، كما وعلّمتها كيف تتصنع تلك النظرات البائسة التي تسترعي اهتمام الرجل وتجعله يعتقد أنه قد وقع على الملاك الذي كان يبحث عنه طويلا . حسّنت تلك السيدة كثيرا من ابنتها . وباستعمال الأكمام العريضة والصدّارات المزيفة والأثواب الفضفاضة المزيّنة بعناية وبمشدّ للخصر جد ضاغط ، استطاعت أن تحصل على منتوجات أنثوية مثيرة للفضول ، عادة ما تبعث بها تربية الأمهات إلى المتاحف .

ارتبط شارل كثيرا بالسيدة دوبريون . كما وأن الكثيرين ادعوا بأن السيدة دوبريون استعملت جميع الوسائل الممكنة لتصيّد صهر بهذا الغنى . وعندما وصلوا إلى بوردو عام ١٨٢٧ ، استقر كلّ من

السيد والسيدة والآنسة دوبريون مع شارل في نفس الفندق . كانت السيدة دوبريون قد حدّثت آنفا شارل عن رغبتها في التخلي عن الطابق السفلي للفندق لصهرها وابنتها . وبما أنها لم تكن توافق على أحكام السيد دوبريون فيما يتعلق بالنبالة ، فإنها قد وعدت شارل بأن تتلمس له عند شارل العاشر أمرا ملكيا يُمكنه ، هو غرانديي ، من حمل اسم دوبريون ، ومن استعمال الأسلحة ، ومن الحصول على تركة دوبريون باعتباره ماركيز دوبريون .

– عندما ينجح المرء في تكديس ثروة وعندما يعرف كيف يعيش بعدها بذكاء ، مستغلا وظائف خفيفة ، بإمكانه أن يحصل على مائة ألف جنيه من الريع من فندق دوبريون . وحين نملك مائة ألف من الريع ، اسمًا ، وعائلة ، وحين نذهب إلى البلاط الملكي ، لأني سأدبّر لك مكانًا به ، بإمكاننا أن نصبح كلّ ما نريد أن نكونه ، كانت تقول لشارل . وبهذا ستكون بخياركَ أنتَ سيّد الاستعلامات في مجلس الدولة ، حاكمًا ، سكرتيرا في السفارة ، أو سفيرًا . شارل العاشر يحبّ السيد دوبريون كثيرا فهما يعرفان بعضهما البعض منذ الطفولة .

أسكرته تلك المرأة بالوعود والطموحات التي عرضتها عليه بكلّ مهارة وعلى هيئة أسرار تُفشى من قلب لآخر . معتقدًا أن عمّه قد سوّى مشاكل وديون والده ، تخيل شارل نفسه قاطنا بضاحية سان جيرمان ، حيث الجميع يريد الدخول عنده ، حيث أصبحَ الكونت دوبريون . كان شارل مندهشا من ازدهار استعادة بوربون في فرنسا ، وانبهر بالأفكار الارستقراطية ، ممّا جعل سكرة جشعه التي بدأت على متن السفينة تزداد توهجا وعزيمة بفضل وعود حماته . وبذلك لم تعد ابنة عمّه بالنسبة له سوى نقطة صغيرة في فضاء منظوره هذا .

التقى شارل بآنيت من جديد ونصحته هذه الأخيرة بعقد هذا الزواج ووعدته بمساعدته على تحقيق طموحاته . كانت آنيت سعيدة بتزويجه بامرأة بشعة ومملة ، هو الذي جعله سفره إلى الهند جذابا أكثر فأكثر ، حيث اكتسب سمرة جميلة ، وأصبح أكثر إقداما وجرأة مثله مثل الرجال الذين اعتادوا على الفصل والهيمنة والنجاح . تنفس شارل بأريحية أكثر حين رأى أنه بإمكانه أن يلعب دورًا بباريس .

وحين علمَ دي غراسان بعودته ، وثروته ، وزواجه المقبل ، قدِم ليحدثه بشأن الثلاثمائة ألف فرنك التي يمكنه تقديمها ليسدد بها ديون والده . استقبل شارل السيد دي غراسان ، الذي لم يتعرف عليه ، بوقاحة رجل قتل أربعة رجال في الهند في مبارزات مختلفة . كان السيد دي غراسان قد قدم ثلاث مرات قبلها . أصغى شارل إليه بكلّ برود ، ثمّ ردّ عليه دون أن يفهمه فعليا :

- شؤون والدي لا تعنيني . أنا ممتن لكَ سيدي على العناية التي أبديتها بهذا الصدد والتي لا يمكنني أن أستغلها . لم أجمع مليوني فرنك بعرق جبيني حتى أذهب لأرميها على رؤوس دائني والدي .

- وماذا لو أُعلنَ عن إفلاس السيّد والدكَ خلال بضعة أيام؟

- سيدي ، خلال بضعة أيام سيصبح اسمي الكونت دوبريون . أترى كيف أن هذا لا يعنيني أبدا . كما أنك تعلم جيدًا أنه حين يملك الرجل مائة ألف جنيه من الريع فإن والده لم يفلس أبدًا . قال وهو يدفع السيد دي غراسان بلطف نحو الباب .

في بدايات أوت من هذا العام ، كانت أوجيني جالسة على المقعد الذي أقسم لها عليه ابن عمّها أن يحبّها حبّا أبديّا ، والذي

كانت تجلس لتُفطِرَ عنده في الصباحات المشمسة . كانت الفتاة المسكينة تستمتع في هذا الصباح بتذكر أكبر وأصغر أحداث حبّها علاوة على الكوارث التي تبعته . وداعبت أشعة الشمس الذهبية الجدار الذيَ يكاد ينهار ، والذي لم تدع أوجيني أيًا كان يصلحه أو يلمسه . في هذا الوقت ، وصل ساعي البريد وطرق الباب ، وأعطى السيدة كورنوايي رسالة . فركضت هذه الأخيرة إلى الحديقة وهي تنادي : آنستي ، رسالة! لقد جاءتكِ رسالة . وأعطتها لسيدتها وهي تسألها : أهي التي كنتِ في انتظارها؟

دوّت هذه الكلمات بصخب في قلب أوجيني مثلما دوّت بين جدران هذه الحديقة .

- باريس! إنها منه ، لقد عاد!

شحبت أوجيني وأمسكت بالرسالة لوهلة . كانت ترتعد لدرجة أنها لم تستطع أن تفتحها لتقرأها . وقفت نانو أمامها مترقبة إياها ، والسعادة والأمل بادين على وجهها .

- هيّا آنستي فلتقرئيها .

- نانو ، لمَ عادَ إلى باريس بينما قد كان انطلق إلى الهند من سومور؟

- فلتقرئي لتعرفي!

فتحت أوجيني الرسالة وهي ترتعد . فوقعت منها حوالة بريدية باسم السيدة دي غراسان ، فحملتها نانو .

«ابنة عمّي العزيزة»

-آه ، لم أعد أوجيني . . . فكّرت أويجني بقلب منقبض .

«ابنة عمّي العزيزة ،

سوف تعلمين ، كما أعتقد ، بسعادة خبر نجاح أعمالي . لقد

كنت فأل خير عليّ ، وقد أصبحت غنيًا الآن ، ولقد اتبعت نصائح عمّي الذي علمت توًا خبر وفاته هو وزوجة عمّي عن طريق السيد دي غراسان .

وفاة والدينا أمرٌ طبيعي ، ويتوجّب علينا خلافتهم بعدها . أتمنى أنكِ الآن ، مع مرور الزمن ، أحسنُ حالا ، وأنكِ قد ارتحت من هذين المصابين . ليس هناك شيء بإمكانه مقاومة الزمن والتصدي لألاعيبه ، أنا متأكد من هذا . أجل يا ابنة عمّي العزيزة ، فمن سوء حظي ، لقد ولّى زمن الأوهام بالنسبة لي . ما الذي بإمكاني أن أصنع! خلال سفري في عدة بلدان تدبّرت كثيرا أحوال الحياة . لقد انطلقت من فرنسا طفلا ، وها أنا ذا قد عُدت الآن رجلا . الآن ، أنا أفكّر في أشياء لم يسبق لي التفكير بها . أنتِ حرّة يا ابنة عمّي ، وأنا كذلك حرّ ، فظاهريًا ، لا شيء يمنعنا من تحقيق مشاريعنا الصغيرة . لكني شخص جدّ وفيّ وإخلاصي لكِ يمنعني من إخفاء وضعيتي وسيرورة أموري حاليا . أنا لمْ أنسَ أنني لا أملكُ نفسي وأني أهديتكِ إياها ، دائمًا ما فكّرت في ذلك المقعد الخشبي خلال رحلاتي . . .»

نهضت أوجيني من مكانها وكأنها كانت تجلس على جمرات متوهجة ، وذهبت لتجلس على درجة من درجات الفناء .

« . . . الذي أقسمنا عليه ولاءنا وتواعدنا فيه حبًا أبديا . أنا لا أزال أذكر الرواق ، والصالة الرمادية ، وغرفتي ، والليلة التي جعلتِ فيها بفضلك واستعدادك الدائم للمساعدة ، مستقبلي أكثر سهولة . أجل ، دائما ما ساندت هذه الذكريات شجاعتي ودفعتي للمضي قدما ، وأعتقد أنكِ لا تزالين تفكرين بي ، مثلمَا أفكّر ، أنا بدوري ، دائما بكِ ، في ساعاتنا المعتادة . أوَ شاهدت السُحب على الساعة

التـاسـعـة؟ بلى ، أليسَ كـذلك؟ ولذلك فـإني لا أريد أن أخـون صداقتنا المقدسة بالنسبة لي ، لا ، يجب ألا أخونك .

لكن الأمـر حـاليـا ، يتـعلق بالنسـبـة لي بزواج يلائـم جـمـيع الأفكار التي كونتها في مخيلتي عن الزواج . فالحبّ المتعلّق بالزواج والذي يُنتج الزواج ليسَ إلا وهمـا . في يومنا هذا ، تُملي عليّ خبـرتي أنه يتـوجّب عليّ إتباع جمـيع القـوانين الاجتـمـاعيـة ، وأن أحـقق جـمـيع القـواعـد والأعـراف التي يريدها المجتـمع ، عن طريق زواجي .

فـبـداية فـإن فـارق السن بيني وبينكِ سوف يؤثر كـثـيـرا على مستقبلكِ يا ابنة عمي أكثر مما سيؤثر على مستقبلي . ضف إلى ذلك أخلاقك وتربيتك وعاداتك التي لا تتلاءم أبدًا وما هو سائد في باريس ، والتي لن تتماشى مع طبيعة مشاريعي المستقبلية . فأنا أريد أن يكون لي منزل كبير ، أستقبل به العديد من الناس ، وأعتقد أني لا أزال أتذكـر حـيـاتكم الـهـادئة واللطيـفـة . لا ، سـأكـون أكـثـر صـراحـة مـعـك ، ولتكوني حكمًا على وضـعـيـتي ، فـمن حـقّك أن تعرفي ومن حقّكِ أن تحكمي بنفسك . أنا الآن أملك ثمـانين ألف جنيـه من الريع . وهذه الثـروة المعتـبـرة تمكنني من الارتبـاط بعـائلة دوبريون . وسـأحظى إن أنا تزوجت من الوريثـة ذات التـسـعـة عشـر ربيـعـا ، باسـم ، ولقب ومنصب في البـلاط الملكي ، بالإضـافـة إلى مكانة جدّ مرموقة .

أعترف لكِ يا ابنة عمّي أني لا أحب هذه الآنسة البتة ، لكني بارتباطي بها سأضمن لأطفالي مكانة اجتماعية رائعة تعود عليهم بفوائد لا منتهية . كمـا أن الأفكار الملكية تعود وتهيمن يومًا بعد يوم . وخـلال بضع سنوات ، سـيكون بإمكان ابني الذي سـيـصـبح

ماركيز دوبريون وسيحظى بأربعين ألف جنيه من الريع ، أن يحظى بأية مكانة يريدها في الدولة . من اللازم علينا أن نفكّر بأطفالنا يا ابنة عمّي . أرأيت يا ابنة عمّي كيف أني أشرح لكِ بكل صدق وضعية قلبي وآمالي وثروتي . من الممكن أنك نسيتي مشاغبات شبابنا الآن بعدَ سبع سنوات من الغياب ، لكنّني أنا ، لم أنسَ لا عطفكِ ولا كلماتي ووعودي . أتذكر كلّ شيء حتى أحاديثنا السخيفة منها التي لو كانت قيلت من طرف شاب آخر ميت الضمير وليسَ بمثل استقامتي لما ذكر منها شيئا . وبهذا أنا أخبرك أن هذا الزواج مدبّر ليناسب ثروتي ووضعيتي الاجتماعية وأني لم أنسَ حبّنا الطفولي . وبهذا ، أنا أترك لك حريّة التصرف وأجعلك سيّدة لقدري ، ولتعلمي أني إن اقتضى الأمر أن أتخلى عن طموحاتي الاجتماعية ، فسأكون سعيدًا بالسعادة البسيطة والصافية والتي أريتني إياها . . .

– تا تا تا تا تا تا تا تا تا تا تا تا تا . . .

ابن عمّك المخلص ،

شارل .

ثمّ أضاف :

«تذييل : أنا أرفق برسالتي هذه حوالة باسم أسرة دي غراسان ، قيمتها ثمانية آلاف فرنك لصالحِك . وهي تحتوي بذلك على القيمة الأصلية التي تفضلتِ بإعطائي إياها بالإضافة إلى الفوائد التي ترتبت عنها . كما أني أنتظر أن يقدم لي من بوردو صندوق يحتوي على أشياء أتمنى أن تسمحي لي بإهدائك إياها تعبيرا لك عن خالص امتناني لكِ . بإمكانك أن ترسلي عن طريق البريد العاجل أماناتي عندكِ إلى فندق دوبريون ، شارع هيلرين– بارتين .»

- عن طريق البريد العاجل؟ أرسل أمانة كدت أن أموت من أجل الحفاظ عليها مائة مرَة!

كان هذا بمثابة خراب تامّ ومريع . فهكذا ، غرقت السفينة من غير أن تترك لا حبلا ولا حتى لوحة خشبية تطفو بها أوجيني على سطح محيط الأمل .

بعض النساء ، حينَ يحسسن أن رجالهن قد تخلوا عنهنَ ، فإنهن تسرعن لانتزاعهم من أيادي منافستهن ، التي يقتلنها ثم يهرولن هاربات إلى أبعد نقطة في العالم . هذا جميل من دون شك : فقد كان الدافع وراء هذه الجريمة مشاعر جميلة تفرض نفسها على العدالة الإنسانية . أما الصنف الآخر من النساء فيخفضن رؤوسهن ويعانين في صمت ، مستسلمات للموت ، تبكين وتسامحن ، وتدعون وتتذكرنَ حتى آخر نفس لهن . هذا هو الحبّ ، الحّب الحقيقي ، حبّ الملائكة ، الحبّ الفخور الذي يحيا على آلامه ويموت بسببها .

كان هذا هو إحساس أوجيني بعد أن انتهت من قراءة رسالة ابن عمّها الكريهة . رفعت ناظرها إلى السماء وهي تتذكر آخر ما قالته لها والدتها ، والتي مثلها مثل المحتضرين ، استطاعت أن تلقي نظرة خاطفة واعية وثاقبة على المستقبل . ثم إن أوجيني حين تذكرت هذه الوفاة وهذه الحياة النبوية ، قيّمت قدرَها برمّته . لم يعد عليها سوى أن تفرد أجنحتها نحو السماء وأن تحيا على الصلوات حتى آخر يوم من حياتها .

- أمي كانت محقة : نحن نعاني ونموت . قالت وهي تبكي .

ثم اتجهت بخطوات مثقلة إلى الصالة . وعلى غير عادتها لم تمر بالرواق لكنها وجدت ذكرى ابن عمها في هذه الصالة الرمادية ،

في تلك المدفأة التي وضع عليها طبق الفنجان الذي كان يستعمله كلّ صبح عند إفطاره وكذلك السكرية القديمة . كانت هذه الصبيحة مليئة بالأحداث بالنسبة لها .

أخبرتها نانو أن القسيس قد قدِم ، وقد كان هذا الأخير من أقارب كروشو .

فمنذ بضعة أيام كان القسّ العجوز كروشو قد حرّضه على التحدث إلى الآنسة غراندي بطريقة جد دينية ليُعلِمها بوجوب زواجها ويقنعها بضرورته الدينية . حين رأته أوجيني اعتقدت أنه قَدِمَ ليأخذ الألف فرنك التي توزعها كلّ شهر على الفقراء والمساكين ، فأمرت نانو أن تذهب لتحضرها ، مما جعل القسيس يبتسم قائلا :

- اليوم يا آنستي ، قدمتُ لأحدثك عن فتاة مسكينة تهتم سومور بأجمعها بأمرها ، والتي بسبب زلة فاضلة منها ، لا تعيش على الطريقة المسيحية كما يجب .

- يا إلهي ، سيدي القسيس إنك قد جئتني في وقت من المستحيل عليّ فيه أن أفكّر في غيري وفي الخير الذي بإمكاني أن أفعله لأجلهم ، فكلّ ما يمكنني فعله الآن هو الانشغال بذاتي . أنا تعيسة يا سيدي ، ولا ملاذ لي إلا الكنيسة ، إن لها صدرًا رحبًا يسع جميع آلامنا ، ومشاعر خصبة لدرجة أنه بإمكاننا أن نستغلها دون أن نخشى نفاذها .

- يا آنستي ، باهتمامنا بهذه الفتاة ، فإننا نهتم بأمركِ أنتِ . اسمعيني ، إذا أردتِ خلاصك الأبدي فسيكون عليكِ أن تتبعي أحد الطريقين : إمّا أن ترحلي عن هذا العالم ، وإما أن تطبقي قواعده وتعيشي وفقها . أن تخضعي لمصيرك الأرضي أو لمصيرك السماوي .

– آه ، إن صوتَك ليُحدّثني في الوقت الذي كنتُ أودّ فيه سماع صوت! أجل ، الرّب يتحدّث على لسانك هاهنا . سأودّع هذا العالم ، وسأعيش للرب وحده في صمت وعزلة .

– من الضروري يا ابنتي أن تفكري طويلا في هذا القرار العنيف . ففي الزواج حياة ، وفي الحجاب ممات .

– إذن ، فالموت ، الموت فورًا وفي أقرب الآجال يا سيدي القس!

– الموت! لكن أمامك العديد من الالتزامات التي يجب أن تقومي بها تجاه مجتمعك ، آنستي . أوَلستِ والدة هؤلاء الفقراء الذي يحيون على النقود التي تتبرعين لهم بها؟ فثروتك بمثابة قرض عليكِ أن تحسني التصرف به . سيكون من الأناني أن تدفني ذاتك في الدير . كما أنه من غير المشروع لك أن تبقي عانسا . فقبل كل شيء : هل سيكون بإمكانك أن تديري ثروتك الهائلة وحدكِ؟ قد تفقدينها . صدقي قسيسك : سيكون حصولك على زوج أمرًا مفيدًا لكِ ، فعليكِ أن تحافظي على ما رزقك الله إياه . أنتِ تحبين الرّب بطريقة صادقة ولا أعتقد أنك

ترفضين خلاصك وسط هذا العالم الذي تُعدين من أجمل وأتقى ما فيه .

ودخلت الصالة حينها السيدة دي غراسان التي جاءت مدفوعة بالانتقام وبيأس عظيم .

– آنستي! آه سيدي القسيس .كنتُ قد قدمتُ لأحدثك عن بعض الشؤون ، لكن ، أرى أنك مشغولة .

– سيدتي ، قال القسيس ، تفضلي .

– أوه ، سيدي القسيس ، هلاّ عدتَ بعد مدة؟ فأنا في حاجة لدعمك لي في هذه الأثناء . قالت أوجيني .

- أجل يا بُنيّتي المسكينة ، قالت السيدة دي غراسان .

- ما الذي تقصدينه سيدتي؟ سأل كل من أوجيني والقسيس .

- أوَ تعتقدين أني لا أعلم بخبر عودة ابن عمّك وبزواجه من دوبريون؟ لا يمكن أبدًا للمرأة أن تخفي أحوال روحها بعيدًا .

احمرّت أوجيني وصمتت . لكنها قرّرت أن تتحلى بقدرة التحمل والإخفاء التي كان والدها يتمتع بها .

- حسن ، سيدتي ، أعتقد أني أحتفظ لحدّ الآن بأحوال قلبي لنفسي ، بعيدًا عن الأنظار . وأنا لا أعي ما الذي تتحدثين عنه . تحدثي ، تحدثي أمام السيد القسيس .

- حسن آنستي ، تفضلي ، هاهي ذي الرسالة التي بعث لي بها زوجي ، اقرئيها .

قرأت أوجيني هذه الرسالة :

«زوجتي العزيزة ،

لقد عاد شارل غراندي من الهند ، هوَ في باريس منذ حوالي شهر من الزمن . . .

- منذ شهر! فكّرت أوجيني بحسرة . ثم واصلت القراءة :

«كان عليّ أن أنتظره مرتين قبل أن أتمكن أخيرًا من التحدث إلى الفيكونت المستقبلي شارل دوبريون . ورغم أن باريس برمتها تتحدث عن زواجه ، وأن كل إعلانات الزواج قد تمّت . . .»

- كان يكتب لي في الوقت الذي . . . فكّرت أوجيني . لكنها سكتت ، ولم تصرخ مثلَ فتاة باريسية : *«النذل الحقير!»* .

«لا أعتقد أن هذا الزواج سيتم . فمن المستحيل أن يعطي الماركيز ابنته لابن شخص مفلس . لذلك فإني ذهبت لأشرح له

المجهودات التي بذلتها أنا وعمّه من أجل شؤون والده ، ولأفسر له المناورات الماهرة التي اضطررنا لاستعمالها حتى نهدئ من روع الدائنين لحد اليوم . إلا أن هذا الوقح الصغير لم يُجبني حتى ، أنا الذي كرّست خمس سنوات من حياتي من أجل مصالحه وشرفه ، وقال لي أن شؤون والد لا تعنيه ، إنها شهادة معتمدة سيكون من شأنها أن تطالبه بأربعين ألف فرنك كمبلغ شرفي يمثل واحدًا بالمائة من الديون . ولكن فلنتحلَّ بالصبر ، إن عليه اثنا عشر مائة ألف فرنك من الديون ، وسوف أُعلنُ عن إفلاس والده . لقد أقحمت نفسي في هذه القضية مقابل كلمة ذلك التمساح غراندي ، ولقد عقدتُ وعودًا باسم عائلتي . فإذا لم يكن الفيكونت دوبريون يكترث لشرفه ، فإن شرفي يهمّني كثيرًا . ولذلك فإني سوف أشرحُ وضعيتي للدائنين . إلا أني أكنّ الكثير من الاحترام للآنسة أوجيني ، وفي الزواج الذي كنا نفكر فيه فيما سبق ، من دون أن تحدثيها بهذا الصدد . . .»

هنا ، أرجعت أوجيني الرسالة إلى السيدة دي غراسان ببرود ، من دون أن تكمل قراءتها .

- أنا أشكرك سيدتي ، سنرى بهذا الصدد لاحقا . . . قالت أوجيني .

- آه ، كم أن صوتك وكلماتك تشبه المرحوم والدك في هذا الحين ، قالت السيدة دي غراسان .

- سيدتي ، أنتِ تدينين لنا بثمانية آلاف فرنك ذهبي ، قالت نانو .

- هذا صحيح ، هلاّ تفضّلت معي سيدة كورنوايي .

- سيدي القسيس ، سألت أوجيني برباطة جأش نبيلة ألهمتها

إياها الفكرة التي تود عرضها ، هل يُعدّ بقائي عذراء خلال الزواج خطيئة؟

- هذه حالة لا أعرف حلّها . سوف أقرأ وأخبركِ غدًا .

رحل القسيس ، وذهبت أوجيني إلى مكتب والدها حيث أغلقت على نفسها ورفضت أن تنزل لتناول العشاء رغم إلحاحات نانو . ثم عاودت الظهور في المساء ، في الساعة التي يجتمع فيها القوم عندها . لم تكن الصالة مكتظة من قبل مثلما كانت عليه يومها . فقد انتشر خبر عودة شارل وخيانته الغبية في كل أنحاء المدينة . لكن مهما بلغت حدة فضول الزائرين لأوجيني يومها ، فإنها لم تشف فضولهم ، هي التي توقعت منهم ذلك ، لم تترك أدنى أثر من المشاعر التي كانت تلتهمها من الداخل تزعزع هدوء ملامحها . استطاعت أن تضحك لتردّ على أولئك الذين اهتموا لأمرها وأظهروا لها نظرات أو أحاديث مشفقة حزينة . تمكّنت أوجيني أخيرا من تغطية حزنها خلف حجاب اللباقة .

عند الساعة التاسعة ، عندما غادر اللاعبون طاولاتهم ، ودفعوا ثمن قماراتهم ، وتحدثوا طويلا ، وبينما هم يستعدون للذهاب ، اقتحمت أوجيني المشهد بخطوة مفاجئة انتشر خبرها لاحقاً في سومور ونواحيها :

- سيدي الرئيس ، قالت أوجيني للسيد دو بونفون ، هلّا بقيت من فضلك .

لم يكن هناك شخص في هذا الجمع لم يتأثر بعبارة أوجيني . شحب وجه الرئيس واضطر للجلوس .

- ها هي الملايين تتسرب للرئيس! قالت الآنسة دو غريبوكور .

– هذا واضح ، سيتزوج الرئيس الآنسة غراندي ، صرخت السيدة دورسونفال .

هاهي ذي دراما التسع سنوات تنكشف : أوَلم يكن طلبها من السيد الرئيس أن يبقى أمام جميع سومور بمثابة إعلان لها على زواجهما . ففي المدن الصغيرة ، تراقب الأعراف بطريقة جد صارمة لدرجة أن عبارة كهذه تكاد تكون وعدًا مقدسا . وعندما انفردت أوجيني بالسيد الرئيس ، قالت له بصوت متأثر :

– سيدي الرئيس ، أعلم ما الذي يُعجبك فيّ وما الذي تريده مني . أقسِم لي أن تتركني حرة طيلة حياتي وألا تطالبني بحقوقك الزوجية عليّ يومًا ، وسأكونُ لكَ .

– أوه ، أنا لم أنتهِ بعد ، قالت أوجيني وهي تراه يجثو على ركبتيه . أنا لا أريدُ أن أخدعك يا سيدي . أنا أحملُ في قلبي شعورًا يتعذر عليّ إخماده . ولذلك فإن الصداقة ستكون الشعور الوحيد الذي بإمكاني أن أكنّه لك كزوج : أنا لا أريد أن أنتهك حرمات قلبي ولا أن أخالف شرائعه . لكنّك لن تحصلَ عليّ وعلى ثروتي إلا مقابل خدمة عظيمة تسديها إلي .

– سأكون جاهزا لكلّ ما تطلبينه ، قال الرئيس .

– هاهي ذي اثنتا عشر مائة ألف فرنك ، سيدي الرئيس ، قالت وهي تستخرج من صدرها ورقة مطوية بعناية ، فلتذهب إلى باريس ، ليسَ غدًا ، وليسَ هذه الليلة ، بل الآن فورًا . فلتتجه عند السيد دي غراسان ، ولتتعرف على أسماء جميع دائني عمّي ، اجمعهم ، ولتسدد كل الديون التي قد تتبقى ، ديونا وفوائد متراكمة بقيمة خمسة بالمائة منذ بداية الدين وحتى يوم تسديده . احرص على أن يكون تسديد الديون تامًا وموثقًا كما يجب . أنتَ قاض وأنا

أثق بكَ في هذه القضية . أنتَ رجل مخلص ، وسأعوّل على كلمتك ووعدك لتخطي مخاطر الحياة في ملاذ اسمك . سيكون بيننا عطف ورحمة متبادلة ، فنحن نعرف بعضنا البعض منذ زمن طويل ، نحن نكاد نكون أقرباء ، وأنا متأكدة أنكَ لا تريد أن تكون سببا في تعاستي .

جثا الرئيس عند أقدام الوريثة الغنية وهو يرتعش من السعادة والجزع ، قائلا : سوفَ أكونُ عبدَك!

- عندما تحصل على وصل تسديد الديون ، سيدي ، قالت وهي تلقي عليه نظرة باردة ، فلتحملها بالإضافة لهذه الضمانات وهذه الرسالة إلى ابن عمّي غراندي . وعندَ عودتكَ ، سأفي بوعدي .

فهمَ السيد الرئيس حينها أنه لم يتحصل على الآنسة غراندي إلا بسبب الخلاف الذي وقع بين العاشقين ، ولذلك فإنه سارع إلى تنفيذ أوامرها قدر المستطاع ليتفادى حدوث أي صلح بين الطرفين .

وحين رحل السيد دو بونفون ، ارتمت أوجيني على الكنبة وانفجرت باكية . ها قد ذوى كلّ شيء . سافر الرئيس إلى باريس ووصل في مساء الغد ، وفي الصبيحة التي تلي وصوله ، ذهب ليرى السيد دي غراسان . استدعى القاضي الدائنين من عند كاتب العدل الذي حُفظت صكوك المديونية عنده . وسدد السيد دو بونفون المستحقات والفوائد للدائنين باسم الآنسة غراندي . وقد كان دفعُ الفوائد بالنسبة للتجارة الباريسية حدثا عجيبا في تلك الفترة . وبعد توثيق السندات ، قدّم مبلغ يقدّر بخمسين ألف فرنك للسيد دي غراسان أهدته إياه الآنسة أوجيني مقابل خدماته . ثم اتجه إلى فندق دوبريون ووجد فيه شارل وحماه الماركيز يؤنبه ويعلن

له أنه لن يحدث هناك زواج بينه وبين ابنته ما لم يتمّ تسديد جميع الديون التي على والده .

في البداية أعطاه السيد الرئيس الرسالة :

«ابن عمّي ،

لقد كلّفت السيد دو بونفون بأن يحملَ إليك قسائم تسديد الديون بجميع المبالغ المُستحقة باسم عمّي . فلقد بلغني خبر الإفلاس وأعتقد أنه ليس بإمكان ابن مفلس أن يتزوج بالآنسة دوبريون . أجل يا ابن عمّي ، لقد كنتَ محقا في حكمك عليّ وعلى أساليبي : فأنا من دون شك لا أعرف شيئا عن هذا العالم ، ولا أعرف الحسابات ولا الأخلاقيات التي تدور فيه ، ولن أتمكّن من إعطائكَ المُتع التي تودّ أن تعيش فيها . كُن سعيدًا ، كن سعيدًا حسبَ العادات الاجتماعية التي من أجلها ضحّيت بحبّنا الأول . ولكي تكتمل سعادتك ، لا يسعني إلا أن أهديكَ شرفَ والدكَ . وداعًا ، ستجد دائمًا في ابنة عمّك صديقة وفيّة .

أوجيني .

لم يستطع الرئيس أن يكتم ابتسامته لمّا رأى التعبير المتعجب الذي ارتسم على ملامح شارل .

- سوفَ نتبادل إعلانات زواجنا يا سيّدي ونعلنها لبعضنا البعض في آن الوقت ، قال له الرئيس .

- آه! ستتزوجُ من أوجيني؟ آه ، يُسعدُني هذا ، إنها لفتاة طيبة . قال شارل ، ثم أضاف بعد أن اصطدم فكره فجأة بفكرة مبهرة : أَهي غنية إذن؟

- قبلَ أربعة أيام ، كانت تملكُ قُرابة التسعة عشر مليون فرنك ، قال الرئيس ، لكنها اليوم لم تَعد تملكُ سوى سبعة عشر مليونًا .

نظر شارل إلى الرئيس ببلاهة : سبعة عشر مل . . . مل . . .

– سبعة عشر مليونًا ، أجل سيدي . وبذلك فإني سأجمع أنا والآنسة غراندي قرابة السبعمائة وخمسين ألف جنيه من الريع . علاوة على ذلك ، تفضل سيدي ، هذا صندوق صغير طلبت مني الآنسة أن أقدّمه لك ، قال وهو يضع كنز شارل على الطاولة .

– يا عزيزي ، قالت الماركيزة دوبريون متجاهلة السيد دو بونفون تمامًا ، لا تُلقِ بالًا لما يقوله زوجي ، صدقني لا شيء سيمنع هذه الزيجة . . .

– لا شيء ، سيدتي ، قال شارل ، لقد تمّ تسديد الثلاثة ملايين التي كانت دينا على والدي الليلة الماضية .

– بأوراق نقدية؟

– أجل ، كاملة ، ديونا وفوائد . وسأعمل على ردّ الاعتبار لوالدي .

– يا للسخافة! صرخت الحماة ، ومن هذا السيد هنا؟ تمتمت السيدة في أذن شارل حين رأت كروشو .

– إنه وكيل أعمالي ، ردّ عليها شارل بصوت منخفض .

حيّت السيّدة السيّدَ كروشو بتعالٍ ثم خرجت .

حمل السيد الرئيس قبعته ثم قال : وداعًا يا ابن العمّ .

– إن هذا السخيف يسخر مني ، إن بي رغبة لضربه وتحطيمه . فكّر شارل .

رحل الرئيس عائدًا . وبعد عودته بثلاثة أيام إلى سومور ، وثق السيد دو بونفون زواجه من أوجيني . وبعدها بستة أشهر عُين كمستشار في البلاط الملكي بأنجيه .

قبلَ أن تترك سومور ، صهرت أوجيني ذهبَ المجوهرات التي

لطالما كانت غالية على قلبها ، بالإضافة إلى الثمانية آلاف فرنك التي أرسلها لها ابن عمها وصنعت منها وعاءً للقربان المقدس وأهدته للكنيسة التي لطالما دعت له فيها . وقسمت وقتها بين أنجيه وسومور . زوجها الذي كان مخلصا لها لأسباب سياسية ترقى في عمله لينتهي به الأمر كقاض أول في المحكمة بعد بضع سنوات . وحينها رغب في الحصول على كرسي في الجمعية الوطنية . . .

إلا أن السيد الرئيس دو بونفون (الذي تخلص أخيرا من اسم أسرته : كروشو) لم يتمكن من تحقيق أي طموح من طموحاته . فقد وافته المنية بعد ثمانية أيام من تعيينه كممثل لسومور . فالرب الذي يرى كلّ شيء لا يضرب في المكان الخطأ أبدًا ، ولا بدّ وأنه حاسبه على حساباته ومكائده القضائية التي صاغ بها عقد الزواج الذي يُعطي فيه كلّ منهما للآخر في *حالة ما إذا لم ينجبا أطفالا* ، *مجموع أملاكهما ، الأثاث والعقار من دون أي استثناء أو احتفاظ ومن دون القيام حتى بعملية التقييم* ، ومن دون *أن يتمكن أحد من معارضة الاستغناء عن الجرد* .

وتعبّر هذه الفقرة عن مدى احترام السيد دو بونفون لرغبة زوجته ووحدتها . كانت النسوة يتحدثن عن السيد دو بونفون باعتباره أحد أرقى الرجال ، وكنّ يشفقن عليه لدرجة لوم أوجيني على أوجاعها وحبها ،لكنهن دومًا ما يحسن اتهام النساء بوحشية» : لا بدّ وأن السيدة الرئيسة دو بونفون تعاني كثيرًا ولذلك فهي تترك زوجها وحيدًا .

المرأة المسكينة! أو ستُشفى قريبًا؟ ما بالها؟ التهاب معدة أم سرطان؟ لمَ لا يعرضها على طبيب يشخص حالتها؟ إنها تبدو شاحبة مؤخرا ، لا بدّ وأن تزور أحد أطباء باريس . كيفَ حدث

وأنها لا ترغب في إنجاب طفل؟ يُقال أنها تحبّ زوجها كثيرا ، فلم لا تنجب له وريثا في منصبه هذا؟ هذا فظيع ، المسكين إن هذا ليسَ حتى نتيجة نزوات منه ، لكنّا عاتبناه حينها ، الرئيس المسكين!

أوجيني التي تتحلى بخواص المنعزل التي تتولد عن التأمل المستمر ، وعن طريق النظرة الثاقبة التي تولّدت عندها ، وبفضل مآسيها وتربيتها وتعليمها كانت تعلم أن السيد الرئيس كان يتمنى موتها حتى يمتلك ثروتها العظيمة خاصة وأن ثروته الخاصة قد ازدادت بعد وفاة عمّيه القس وكاتب العدل اللذان كانا قد انتقلا عند ربهما . كانت المسكينة تشفق على الرئيس . وهاهي ذي الإرادة الإلهية قد انتقمت منه ومن حساباته ومن لامبالاته الزوجية التي جعلت منه رجلا يحترم الحبّ الميؤوس منه والذي كان قلب أوجيني يتغذى عليه . أوَليسَ إنجاب طفل بمثابة قتل واستئصال لآمال الأنانية والسعادة التي نتجت عن ملامسة الرئيس لطموحاته؟

ولذلك فإن الربّ كان قد رمى لسجينته كتلا من الذهب الذي لم يكن ليبهرها ، هي التي لم تكن تبالي بغير السماء والتي عاشت تقية وطيبة ، في ربى أفكار مقدسة ، هي التي دائما ما كانت مآسيها تنتفض بداخلها بسرية . أصبحت السيدة دو بونفون أرملة في سن السادسة والثلاثين ، غنيّة بثمانمائة ألف جنيه من الريع ، وكانت لا تزال جميلة ، جمال امرأة في أربعينياتها . كان وجهها أبيضا ، هادئا ، ومستريحا . صوتها هادئا ومسموعا ، وبأساليب بسيطة . كانت لها جميع محاسن الوجع ، وقدسية شخص لم تتسخ روحه لما لامس هذا العالم الدنس ، لكنها كذلك كانت تتسم بصلابة امرأة عانس وبالعادات المتقشفة التي تقوم عليها حياة

الريف . فرغم امتلاكها لثمانمائة ألف جنيه من الريع ، فإنها عاشت حياتها كما عاشت أوجيني غراندي الفقيرة ، لم تكن تشعل نار المدفأة في غرفتها إلا في الأيام التي كان والدها سابقا يشعلها فيها ، وكانت ترتدي ملابسَ مشابهة لملابس والدتها . أمّا منزلهم في سومور ، ذلك المنزل الذي لا تزوره أشعة الشمس ولا حرارتها ، والذي دائما ما غطّ في جوّ كئيب ، فقد كان يعكس تمامًا صورة حياة أوجيني . كانت تُكدّس مداخيلها بعناية ، وربّما لكان غيرها اتهموها بالبخل الشديد لولا أنها كانت تتصدق كثيرا بأموالها ، فأوجيني كانت قد أنشأت مؤسسات خيرية ودينية ، نزلا في الدير ، ونزلا للعجائز ، ومدارس مسيحية للأطفال ، ومكتبة عامّة اكتنزت بالكتب ، وبذلك شهدت لها مؤسساتها هذه ضد أي عتاب على بخلها .

كانت السيّدة دو بونفون التي غالبا ما تُنادى ، تهكما ، بالآنسة ، تُلهمُ غيرها احترامًا دينيا عميقا . وبذلك فقد كان قلبها النبيل الذي لا ينبض إلا لأنعم المشاعر يخضع باستمرار لحسابات مصالح البشر ، مما جعل المسكينة تفقد ثقتها بالمشاعر .

- لا أحدَ سواكِ يحبني فعلا ، كانت تقول لنانو .

كانت يدُ هذه المرأة ترعى الجروح الدفينة لكل العائلات . كانت أوجيني تمشي نحو السماء بصحبة موكب من الأعمال الصالحة وقد أخفت سعة روحها كلّ مساوئ تنشئتها وعيوب عادات بدايات حياتها .

هذه هي قصة تلك المرأة التي لا تنتمي لهذا العالم ، والتي رغمَ أنها خلقت لتكون زوجة وأما مثالية ، لم تحظ لا بزوج ولا بأطفال ولا بعائلة . ومنذ مدة ، أصبح الأمر يتعلق بزواج من نوع

جديد بالنسبة لها . فمنذ عدّة أيام ، انشغل سكان سومور بالحديث عنها وعن الماركيز دو فروافون الذي بدأت عائلته في إحاطة الأرملة تماما كما فعل آل كروشو سابقًا معها . قيلَ أن نانو وزوجها كانا يساندان الماركيز ويخدمان مصالحه ، لكن هذا خطأ جسيم . فلا نانو ولا كورنوايي يمتلكان ما يكفي من البصيرة ليستوعبا فساد العالم .

باريس ، سبتمبر ١٨٣٣

إبنَة البَخيل

أوجيني غراندي

في الحياة العاطفية تمامًا كالحياة الجسدية: يوجَدُ شهيق وزفير، فالنفس بحاجة لتشرّب مشاعر نفس أخرى، بحاجة لأن تستوعبها، وإلا فلن تكون هناك حياة علي متن القلب، وسينقصه الهواء، وسيعاني ويذبل تدريجيا.. الحبّ هوَ تحوّلنا الثاني الذي نستسلم لتياره ونتشبث ببهجته تماما كما يتشبث سبّاح في النهر بأغصان الصفصاف التي تحُفّ ضفافه. أوَ ليسَ هناكَ شبه ظريف بين بدايات الحبّ وبدايات الحياة؟ أو لا يتشاجر ذاك الذي هو في سن يرتعشِ قلبه من أجل باقات ورد ينساهَا بمجرّدِ أن يقطفها؟ أو ليسَ جشعا برغبته في انتزاع الوقت وإمساكه ؟ لا يكاد المرء يضع شفتيه على الكأس، حتى يرمقه بنظرة ويجدَه قد نفذ وفرغَ ! هذه هي حياتنا. نحنُ لا نستطيع أن نكونَ الآن، وأن نكون قد كُنّا. اللحظات التي نكون خلالها سعداء منتشين مشتتة متباعدة في حيواتنا! إنها تشبه المسامير المتشبثة على طول جدار ممتد على مسافة معتبرة، قد تتخيلون أنها تشغل حيزا كبيرًا، اجمعوها، وستجدون أنها حفنة لا تكاد تشغل حتى كفة يد!

إن النساء يكابدن الحبّ أكثر من الرجال. فالرجل ينشغل، ويفكّر، ويحضن مستقبله الذي يجدُ فيه عزاءً ومواساة. أمّا المرأة فتكمن وتبقى، وتواجه الكرب وجهًا لوجه من دون أن يلهيها عن مآسيها شيء، هي تهوي رويدًا رويدًا حتى تصل إلى قاع الخراب الذي تسبب به شجنها، وغالبًا ما تقيس عمق هُوتها هاته، وتملؤها أمانيَ ودموعًا. أن تحسّ وتحبّ وتعاني وتتخلص، هذا هو ملخّص سيناريو حياة المرأة.



